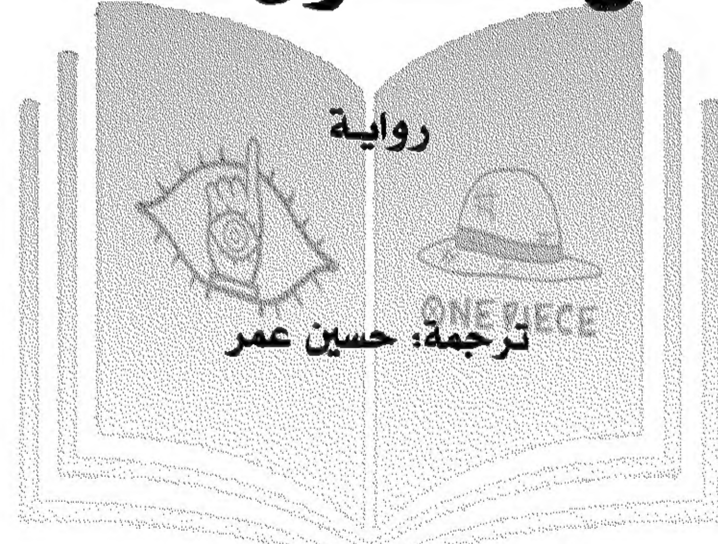

غيوم ميسو
هل ستكون
هنا؟
رواية

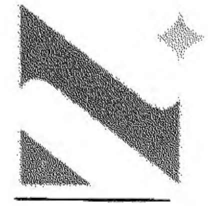
غيوم ميسو

هل ستكون هنا؟

رواية



ترجمة: حسين عمر



المركز الثقافي العربي

سما للنشر

لا بدّ أنّنا جميعاً طرحنا على أنفسنا هذا السؤال مرّة واحدة على الأقلّ:

لو أُتيحَت لنا الفرصة في أن يعود بنا الزمن إلى الوراء، ماذا كنّا سنغيّر في حياتنا؟

لو استطعنا الرجوع بالزمن إلى الوراء، أيّ الأخطاء كنّا لنحاول أن نصحّحها؟ أيّ الآلام، أي أمورٍ ندمنا عليها كنّا لنختار أن نلغيها من حياتنا؟

هل كنّا سنجرؤ فعلاً على أن نمنح معنى جديداً لحياتنا؟

ولكن لكي نصبح ماذا؟
لكي نذهب إلى أين؟
ومع مَنْ؟

مقدّمة

شمال شرق كمبوديا
موسم الأمطار
سبتمبر 2006

حطّت الطائرة المروحية التابعة للّجنة الدولية للصليب الأحمر في الموعد المحدّد.

كانت القرية الجاثمة على هضبة مرتفعة ومُحاطة بالغابات تضمّ ما يقارب مئة مَسكنٍ بسيطٍ مبنية بغالبيتها العظمى من الخشب وأغصان الأشجار. بدا المكان تائهاً ومنسياً خارج الزمن، بعيداً عن الأماكن السياحية في كلٍّ من مدينة أنغكور الواقعة في أعماق غابات شمال كمبوديا وبنوم بنه عاصمة البلاد. كان الهواء مليئاً بالرطوبة ويغطي الطين كلّ شيءٍ في المكان.

لم يكلّف قائد المروحية نفسه عناء إيقاف المحرّك، فقد كانت مهمّته تتحدّد في إعادة فريقٍ طبيّ إنسانيٍ إلى المدينة. لم تكن المهمّة معقّدة في الأوقات الطبيعية، ولكن، ولسوء الحظ، كنّا في شهر سبتمبر وكانت الأجواء العاصفة والأمطار الغزيرة التي تتساقط من دون انقطاع تجعل من الصعوبة بمكان التعامل مع الطائرة المروحية.

كانت كمية الوقود في خزّان المروحية محدودة، إلّا أنها كافية لأن توصل الجميع إلى برّ الأمان.

شريطة عدم التجوّل بها خارج إطار مهمّتها...

خرج طبيبان جرّاحان واختصاصيّ في التخدير وممرّضتان جرياً من المستوصف الميداني الذي كانوا يعملون فيه منذ اليوم السابق. وكان أعضاء الفريق الطبي قد تجوّلوا في الأسابيع الأخيرة على القرى المجاورة وهم يعالجون على قدر استطاعتهم أضرار أمراض الملاريا والإيدز أو السلّ ويُقدّمون الرعاية الطبية لمن بُتِرت أطرافهم ويزوّدونهم بالأطراف الاصطناعية، في تلك الزاوية من البلاد التي لا تزال مزروعة بالألغام الأرضية المضادة للأفراد.

بناءً على إشارة من الطيّار، ولجَ أربعة أعضاء من الفريق الطبي إلى داخل المروحية، في حين أنّ العضو الخامس والأخير في المجموعة، وهو رجل في حوالي الستين من عمره، تخلّف قليلاً عن زملائه وهو شارد النظر إلى مجموعة الكمبوديين الذين يحيطون بالطائرة المروحية. كان عاجزاً عن اتّخاذ القرار بالمغادرة.

فصاح به قائد المروحية:

- يجب أن نغادر، يا دكتور! إن لم نُقلع الآن، سوف تتخلّف عن موعد طائرتك.

هزّ الطبيب برأسه. كان يتهيّأ للصعود إلى الطائرة حينما التقت نظرته بنظرة طفلٍ كان رجلٌ مسنٌّ يُمسكُ بيده. كم عمره يا تُرى؟ سنتان؟ ثلاث سنواتٍ على الأكثر. كان وجهه الصغير قد تشوّه على نحوٍ مروّع بفعل شقٍّ عمودي مزّق شفته العليا. وهو تشوّهٌ خلقيّ قد يَحكم عليه بأن يتغذّى طيلة حياته على أنواع الحساء والعصائد ويجعله عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة.

صرخت إحدى الممرّضتين بلهجة مناشدة:

- هيا أسرع!

صاح الطبيب بصوتٍ عالٍ في محاولة للتغطية على هدير شفرات المروحية التي كانت تدور بصخبٍ فوق رؤوسهم:

- يجب إجراء عملية جراحية لهذا الطفل.

- لم يعُد لدينا متّسعٌ من الوقت! الطرقات غير سالكة بسبب الفيضانات ولن تستطيع الطائرة المروحية أن تعود وتقلّنا قبل مضي عدّة أيام.

لكنّ الطبيب لم يتحرّك من مكانه، وهو غير قادرٍ على أن يشيح ببصره عن ذاك الطفل الصغير. كان يعرف بأنه في هذه المنطقة من العالم، يتخلّى الوالدان أحياناً عن أطفالهم الذين يولدون وهم يعانون من «شفّة أرنبية»، وذلك بسبب عادات وتقاليد قديمة. وما أن يودَع هؤلاء الأطفال في ميتم، يحرمهم تشوّههم الخلقي من أيّ فرصة في أن يتمّ تبنّيهم من قِبل عائلة أخرى.

عاودت الممرّضة حثّه على الصعود إلى الطائرة المروحية، قائلةً:

- هناك الكثير ممّا ينتظرك بعد غد في سان فرانسيسكو، يا دكتور. لديك برنامج مكثّف للعمليات الجراحية، ولديك أيضاً مؤتمراتك الطبية و...

حسم الطبيب أخيراً الأمر على نحوٍ قاطع، فقال وهو يبتعد عن المروحية:

- غادروا من دوني.

قفزت الممرّضة من المروحية إلى الأرض وقالت:

- في هذه الحالة، سوف أبقى معك.

كانت شابّة أميركية تُدعى إيميلي وتعمل معه في المستشفى نفسه.

هزّ الطيّار رأسه وهو يتنهّد. ارتفعت المروحية على نحوٍ عمودي ثمّ وقفت في مكانها لبرهة قصيرة قبل أن تبتعد نحو الغرب.

أخذ الطبيب الصبيّ الصغير بين ذراعيه: كان شاحب الوجه ومتقوقعاً على نفسه. أخذ الطفل وبرفقته الممرّضة إلى المشفى الميداني واستغرق بعض الوقت وهو يتكلّم معه لكي يخفّف من قلقه ويقلّل من فزعه قبل أن يُخضعه للتخدير. ما أن تخدّر الطفل تماماً، أعمَلَ الطبيب مبضعه بعناية ودقّة في كشط طبقة من حجاب سقف حلقه ومدّها لترميم الفم المشقوق. ومن ثمّ قام بالإجراء نفسه لترميم الشفتين وتجميلهما وإعادة ابتسامة حقيقية لذاك الطفل الصغير.

* * *

خرج الطبيب من غرفة العمليات بعد أن انتهت العملية وجلس لبعض الوقت في الشرفة المغطّاة بالصفائح وأوراق الشجر اليابسة. استغرقت العملية وقتاً طويلاً. عملياً، لم يكُن قد نام منذ يومين وقد أحسّ فجأة بأنّ التعب قد نال منه. أشعل سيجارة ونظر من حوله. كان هطول المطر قد هدأ قليلاً وانقشعت السُحُب بعض الشيء لتظهر فسحة في السماء يشعّ منها ضوءٌ ساطع يغلب عليه اللونان الأحمر الأرجواني والبرتقالي.

لم يكن قد ندم على قراره في البقاء في تلك المنطقة. كان يسافر كلّ سنة عدّة مرات إلى أفريقيا أو آسيا للعمل لحساب اللجنة الدولية للصليب الأحمر. لم تكن هذه المهمات الإنسانية تمرّ من دون إلحاق الأذى به، ولكنّها غدت بالنسبة له كمادة مخدّرة أدمن

عليها، وهي وسيلة بالنسبة له للهروب من حياته الثرّة كرئيس قسمٍ في أحد المشافي في ولاية كاليفورنيا الأميركية.

أحسّ وهو يسحق عقب سيجارته بوجود شخصٍ يقف خلفه. حينما التفت إلى الوراء، تعرّف على الرجل المسنّ الذي كان يمسك بطرف ذراع الطفل في أثناء مغادرة الطائرة المروحية. كان الرجل في مقام زعيم القرية وهو يرتدي الزيّ التقليدي للمنطقة وقد تحدّب ظهره وخطّت التجاعيد وجهه. وعلى سبيل التحية، رفع الرجل المسنّ يديه المضمومتين إلى ذقنه، مرفوع الرأس، وهو يحدّق في عيني الطبيب بثبات. ومن ثمّ بحركة من يده، دعاه لأن يتبعه إلى مسكنه. قدّم له كأساً من خمر الرزّ، قبل أن يتفوّه بأولى كلماته:

- اسمه لو-نان.

ظنّ الطبيب بأنّه يقصد اسم الطفل واكتفى بأنّ هزّ رأسه.

أردف العجوز الكمبودي قائلاً:

- شكراً لأنّك أعدتَ له وجهاً.

تقبّل الطبيب شكره بكلّ تواضع، ثمّ وبشيءٍ من الضيق أشاح ببصره عن الرجل العجوز. من خلال النافذة التي من دون زجاج، استطاع أن يلمح الغابة الاستوائية بأشجارها الكثيفة والخضراء والتي كانت تمتدّ على مسافة قريبة من القرية. كان بالنسبة له أمراً غريباً أن يعرف بأنّه على بُعد عدّة كيلومترات فقط، وفي مكانٍ أكثر علوّاً في جبال راتاناكيري، لا تزال تعيش نمورٌ وأفاعٍ وفيلة...

ساهياً في أحلامه، لاقى مشقّة في فهم معاني كلمات مضيفه حينما سأله هذا الأخير:

- لو كانت لديك فرصة تحقيق إحدى أمنياتك، أيّ أمنية كنت لتختار؟

- عفواً؟

- ما هي أكبر أمنياتك في هذه اللحظة، يا دكتور؟

بحث الطبيب في البداية عن إجابة روحية، ولكنّه تحت تأثير التعب الذي أضناه والانفعال غير المنتظر الذي استبدّ به، قال بهدوء:

- أريد أن أرى مجدّداً امرأةً.

- امرأة؟

- نعم... المرأة الوحيدة، المرأة الوحيدة التي يهمّني أمرها.

في تلك اللحظة، في ذلك المكان النائي، بعيداً عن أعين الغرب، حدث شيءٌ جليل بين هذين الرجلين.

فوجِئ العجوز الخميري ببساطة الطلب الذي تمنّاه الطبيب، فسأله:

- وهذه المرأة، ألا تعرف أين هي الآن؟

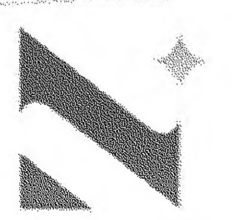
- لقد ماتت منذ ثلاثين عاماً.

قطّب العجوز الآسيوي حاجبيه على نحوٍ خفيف واستغرق في تفكيرٍ عميق. ثمّ، وبعد برهة من الصمت، نهض بوقار وتوجّه نحو نهاية الغرفة حيث يتكوّم على رفوفٍ هشّة جزءٌ من موارده: أسماك فرس البحر المجفّفة، جذور نبات جنكة الصيني، ثعابين سامّة مغطّسة في محلول الفورمول...

نبش لبرهة بين خردواته قبل أن يضع يده على ما كان يبحث عنه.

حينما عاد نحو الطبيب، ناوله عبوة زجاجية صغيرة.

كانت تحتوي على عشرة أقراص ذهبية اللون...



1

اللقاء الأوّل

ذات مساء جميل يدعى فيه المستقبل ماضياً.
إنّها تلك اللحظة التي تلتفت فيها إلى الماضي ونرى شبابنا.

لويس أراغون

مطار ميامي
سبتمبر 1976
إليوت في سنّ الثلاثين

حدث ذلك بعد ظهيرة أحد أيام الأحد من شهر سبتمبر، تحت سماء فلوريدا...

كانت امرأة شابة تقود سيارة مكشوفة وتسلك الطريق المؤدّي إلى المطار. كان شعرها يتطاير بفعل الرياح وهي تسير بطريقة سليمة وتتجاوز عدّة سيارات قبل أن تتوقّف لبرهة قصيرة أمام ردهة المغادرة في المطار. استغرق توقّفها الوقت اللازم لإنزال الرجل الذي يجلس في المقعد إلى جانبها. ترجّل الرجل وأخذ أمتعته من صندوق

السيارة ثمّ انحنى على النافذة ليُرسل قبلة إلى سائقته. صفق باب السيارة وولج إلى المبنى المشيّد من الزجاج والفولاذ.

هو، إليوت كوبر، ذو بنية جسمانية متناسقة وقامة مشيقة. إنّه طبيب في سان فرانسيسكو، ولكنّ سترته الجلدية وشعره غير المنضبط كانا يمنحانه هيئة فتى مراهق.

توجّه تلقائياً نحو مكتب الحجز ليحصل منه على بطاقة السفر: ميامي/سان فرانسيسكو.

- أراهن أنّك قد اشتقت إليّ...

فوجئ إليوت بهذا الصوت المألوف والتفت إلى الوراء متوثباً.

ألقت عليه المرأة التي واجهته نظرة، بعينيها الزمرديتين، تمزج بين التحدّي والضعف. كانت ترتدي بنطلون جينز واطئ الخصر وسترة ضيّقة الخصر مطرّزة برمز Peace and love وقميصاً بألوان منتخب البرازيل، موطنها الأصلي.

سأل وهو يطوّقها ويضع يده على رقبتها:

- متى كانت آخر مرّة عانقتُكِ فيها؟

- على الأقلّ، منذ دقيقة.

- منذ وقتٍ طويل...

طوّقها وضمّها إليه بشدّة.

هي، إيلينا، امرأة حياته، يعرفها منذ عشرة أعوام ويدين لها بكلّ نجاحاته: مهنته كطبيب وانفتاحه على الآخرين ونوعٌ من الالتزام في طريقة إدارة حياته...

لقد استغرب عودتها، لأنّهما كانا متّفقين دائماً على أن يتجنّبا مشاهد الوداع الطويلة، مقتنعين تماماً بأنّ هذه الدقائق الإضافية المعدودة ستسبّب في النهاية الألم ولن تَبعث على الراحة.

هذا لأنّ حكايتهما معقّدة. فهي تُقيم في فلوريدا بينما يُقيم هو في سان فرانسيسكو.

كان حبّهما طويل الأمد يعيش على نمط الفرق في التوقيت، والذي جرى ضبط إيقاعه من خلال المناطق الزمنية الأربعة والمسافة البالغة أربعة آلاف كيلومتر التي تفصل الساحل الشرقي عن الساحل الغربي.

بالطبع، بعد مرور كلّ هذه السنوات، لا بدّ أنّه كان باستطاعتهما أن يختارا الإقامة معاً، ولكنّهما لم يفعلا ذلك. في البداية، لأنّهما لم يكونا يثقان باستنزاف الزمن لأنّ الحياة اليومية، في مقابل حياة أكثر راحة، ستحرمهما من حالة اللهفة وتسارع نبضات القلب التي تنتابهما عند كلّ لقاء من لقاءاتهما التي هي بمثابة الأوكسجين لهما. ثمّ إنّ كلّاً منهما كان قد أسّس حياته في بيئته المهنية. عاد أحدهما نحو المحيط الهادئ وتوجّه الآخر نحو المحيط الأطلسي. بعد دراساتٍ طويلة في مجال الطبّ، حصل إليوت على منصبٍ في قسم الجراحة في أحد مستشفيات سان فرانسيسكو. أمّا إيلينا، فقد اهتمّت بدلافينها وحيتانها في حوض أوشن وورلد (Ocean World) «عالم المحيطات» في مدينة أورلاندو في ولاية فلوريدا، وهو أكبر حوض بحريّ في العالم، حيث تعمل فيه كطبيبة بيطرية. كما بدأت منذ بضعة أشهر بتكريس الكثير من الوقت لمنظمة بدأ يكثر الحديث عنها: منظّمة السلام الأخضر. بدأت رابطة «مناضلو قوس قزح» التي تأسّست قبل أربعة أعوام من قبل مجموعة من النشطاء السلميين والمدافعين عن البيئة، بدأت تُعرف وتُشتَهر بفضل كفاحها ضدّ التجارب النووية. لكنّ إيلينا انضمّت إليها لكي تشارك على نحوٍ خاصّ في حملتها ضدّ المجازر التي تُرتَكَب بحقّ الحيتان والفقمات.

كانت لكلّ منهما إذاً حياة مليئة بالعمل والنشاط ولم يكُن لديهما متّسع من الوقت لكي يشعرا بالملل. لكن ذلك لم يغيّر من حقيقة أنّ كلّ افتراقٍ جديدٍ بينهما كان أكثر وطأة من سابقه.

«على كافة ركاب الرحلة رقم 711 المتّجهة نحو سان فرانسيسكو المغادرة فوراً والتوجّه إلى البوابة رقم 18...».

سألت وهي تحلّ قبضتها عنه وتخفّف شدّة عناقه:

- أهذه طائرتك؟

أجاب عن سؤالها بالإيجاب بحركة من رأسه، ثمّ ولأنّه يعرفها جيّداً، سألها:

- هل كنتِ تريدين أن تقولي لي شيئاً قبل أن أغادر؟

قالت وهي تمسك بيده:

- نعم. سوف أرافقك حتى منطقة الإقلاع.

ثمّ وهي تسير بجانبه، انخرطت في حديثٍ بلكنتها الجنوب أميركية التي كانت تصيبه بالإحباط.

- أعرف جيّداً أن العالم يسير نحو الكارثة، يا إليوت: الحرب الباردة، التهديد الشيوعي، سباق التسلّح النووي...

في كلّ مرّة يفترقان عن بعضهما، كان ينظر إليها كما لو أنّه سيراها للمرّة الأخيرة. إنّها جميلة مثل بدرٍ منير.

- ... استنفاد الموارد الطبيعية، ناهيك عن التلوّث وتدمير الغابات الاستوائية أو...

- إيلينا؟

- ماذا؟

- ما الذي تريدين الوصول إليه، بالضبط؟

- أرغب في أن ننجب طفلاً، يا إليوت...

- هنا، في الحال، في المطار؟ أمام أنظار الجميع؟

هذا كلّ ما وجده لكي يردّ عليها. كانت محاولة للدعابة لكي يخفي بها دهشته من طلبها. لكنّ إيلينا لم ترغب في الضحك.

قالت له قبل أن تترك يده وتتّجه نحو المخرج:

- أنا لا أمزح، يا إليوت.

صاح ليستوقفها:

- انتظري!

«هذا آخر نداء للسيّد إليوت كوبر، المسافر على متن الرحلة رقم 711 المتّجهة نحو...»

قال ساخطاً وهو يسلك، مستسلماً، السلم المتحرّك الذي يؤدي إلى منطقة الإقلاع:

- اللعنة!

كان على وشك أن يصل إلى أعلى السلّم حينما التفت إلى الوراء ليلوّح لها بيده للمرّة الأخيرة.

غمرت أشعة شمس سبتمبر بهو المغادرين.

لوّح إليوت بيده.

لكنّ إيلينا كانت قد اختفت.

* * *

كان الليل قد حلّ حينما حطّت الطائرة في مطار سان فرانسيسكو. استغرقت الرحلة ستّ ساعات وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً في كاليفورنيا.

كان إليوت يهمّ بالخروج من بهو المطار واستقلال سيارة أجرة حينما عدل عن رأيه. كان يتضوّر جوعاً، فقد أصابته كلمات إيلينا بالقلق والاضطراب ولذلك لم يتناول شيئاً من وجبة الطعام التي

قُدِّمت له على متن الطائرة، وهو يعلم أنّ ثلاجة بيته فارغة. توجّه إلى مقهى غولدن غيت كافيه، في الطابق الثاني والذي سبق له أن ارتاده مع مات، صديقه المقرّب الذي كان يرافقه أحياناً إلى الساحل الشرقي، جلس إلى طاولة تقديم الطلبات وطلب طبقاً من السلطة وقطعتَي كعك وكأساً من نبيذ الشاردونيه. كان مرهقاً ومضطرباً بسبب الرحلة الجوية الطويلة، ففرك عينيه قبل أن يطلب فِيَشاً لكي يستخدم الهاتف الموضوع في قمرة في مؤخّرة صالة الحانة. اتّصل مع إيلينا ولكن لم يردّ أحد عليه. بسبب الفرق في التوقيت، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل في فلوريدا. كانت إيلينا بالتأكيد في بيتها ولكنّها على ما يبدو لم ترغب في التكلّم معه.

كان ذلك متوقعاً...

مع ذلك، لم يندم إليوت على ردّ فعله على طلب إيلينا، فهو حقيقة لم يكن يرغب في إنجاب طفل.

نعم هذه هي الحقيقة.

لم تكن المشكلة في مشاعره اتجاه إيلينا التي يعشقها ويكنّ لها من الحبّ ما يفيض. لكنّ الحبّ لوحده لم يكن كافياً ليفكّر في الإنجاب منها، ففي أواسط أعوام السبعينيات تلك، لم يكن يبدو له بأنّ الإنسانية تسير في الاتجاه الصحيح وبالتالي، باختصار، لم يكن يرغب في أن يتحمّل مسؤولية إنجاب طفل إلى هذا العالم.

وهذا كلامٌ لم تكن إيلينا ترغب في سماعه.

لدى عودته إلى طاولة تقديم الطلبات، أنهى وجبته ومن ثمّ طلب فنجاناً من القهوة. كان متوتّراً وغاضباً ويُطقطق أصابعه لاإرادياً. تحسّس في جيب سترته علبة سجائره التي ألحّت عليه ولم يقاوم الرغبة في إشعال إحداها.

كان يعرف بأنّ عليه أن يكفّ عن التدخين. فقد ازداد الحديث من حوله عن مضار التبغ، وأظهرت الدراسات حول الأوبئة، منذ ما يُقارب خمسة عشر عاماً، العواقب الناجمة عن النيكوتين. وبصفته طبيباً جرّاحاً، كان إليوت يعرف تماماً أنّ خطر الإصابة بسرطان الرئة يزداد عند المدخّنين تماماً مثلما هو الحال بالنسبة إلى خطر الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية. ولكن، مثله مثل الكثير من الأطبّاء، كان ينشغل بصحّة الآخرين أكثر ممّا ينشغل بصحّته الشخصية. لا بدّ من القول بأنّه كان يعيش في عصرٍ لا يزال فيه من الطبيعي التدخين في مطعمٍ أو على متن طائرة. في عصرٍ كانت السيجارة فيه لا تزال مرادفاً للحياة البرّاقة وللحرية الثقافية والاجتماعية.

قال في نفسه وهو ينفث سحابة من الدخان: سوف أتوقّف عن التدخين قريباً ولكن ليس هذا المساء... أحسّ بأنّه مكتئبٌ للغاية وعاجزٌ عن بذل هكذا محاولة.

شعر بالانزعاج وترَكَ نظرته تشرد عبر الجدار الزجاجي وهنا رآه للمرّة الأولى: رجلٌ يرتدي على نحوٍ غريب منامة بلونٍ أزرق سماوي بدا وكأنّه يراقبه من الجانب الآخر من الجدار الزجاجي. أغمضَ عينيه نصف إغماضة لكي يتبيّن تفاصيله على نحوٍ أدقّ. كان الرجل في حوالي الستين من عمره ولا يزال يحظى بقوام رياضي وله لحية قصيرة بالكاد غزاها الشيب، الأمر الذي جعله يُشبه الممثل شون كونري في الشيب الذي في شعره. قطّب إليوت حاجبيه. ماذا يفعل هذا الرجل، حافي القدمين ومرتدياً منامة، في هكذا ساعة متأخّرة من الليل، وسط المطار؟

ربّما لم يكن على الطبيب الشابّ أن يهتمّ بأمره، لكنّ قوّة

مجهولة جعلته يغادر كرسيه ويخرج من الحانة. بدا الرجل حزيناً جدّاً وهائماً على وجهه كما لو أنّه هابطٌ من العدم. كلّما اقترب منه إليوت، كلّما أحسّ بعدم ارتياحٍ لم يجرؤ على الاعتراف به. تُرى مَن يكون هذا الرجل؟ ربّما كان مريضاً فرّ من مستشفى أو من مصحّ... في هذه الحالة، ولكونه طبيباً، أليس من واجبه أن يُقدّم له المساعدة؟

حينما أصبح على مسافة أقلّ من ثلاثة أمتار من الرجل، أدرك أخيراً سبب اضطرابه الشديد لرؤية هذا الرجل: فهذا الرجل يذكّره بوالده الذي مات قبل خمس سنوات بسرطان البنكرياس.

اقترب حائراً من الرجل أكثر. حينما وقف أمامه تماماً وجد أنّ الشَّبَه فعلاً كبيرٌ جدّاً مع والده: كان له شكل الوجه نفسه والغمازة نفسها على الخدّ الأيسر، التي ورثها هو أيضاً من والده...

وماذا لو كان هو...

كلا، كان عليه أن يتمالك نفسه! فوالده قد مات وشبع موتاً. لقد حضر مراسيم وضعه في النعش وحرق جثّته.

- هل يمكنني أن أساعدك، يا سيّد؟

رجع الرجل بضع خطوات إلى الوراء. بدا هو الآخر مرتبكاً مثله وأظهر شعوراً يمزج القوّة بالحرمان.

كرّر سؤاله:

- هل يمكنني أن أساعدك؟

اكتفى الآخر بأن غمغم:

- إليوت...

كيف عرف اسمه؟ وهذا الصوت...

لم يكونا، هو ووالده، قريبين من بعضهما أبداً، هو شيءٌ من

التورية. لكنّ بعد وفاته، كان إليوت يشعر بالندم أحياناً لكونه لم يبذل المزيد من الجهد في الماضي لكي يحاول أن يفهمه على نحوٍ أفضل.

على الرغم من أنّه كان مشوّش الذهن ومدركاً لعبثية سؤاله، لم يستطِعْ إليوت أن يمنع نفسه من أن يسأل بصوتٍ مخنوقٍ من جرّاء الانفعال:

- أبي؟

- كلا، يا إليوت، أنا لستُ والدك.

وعلى نحوٍ غريب، لم يُطمئنه هذا الجواب المنطقي أبداً، كما لو أنّ حدساً يهمس له بأنّ ما هو أكثر دهشةً سيأتي لاحقاً.

- إذاً، مَنْ تكون؟

وضع الرجل يده على كتفه. لمع بريقٌ مألوف في عينيه، وتردّد للحظات قبل أن يجيب:

- أنا أنت، يا إليوت...

تراجع الطبيب خطوة إلى الوراء ثمّ جمد في مكانه كالمصعوق؛ فأكملَ الرجل جملته:

- ... أنا أنت، بعد ثلاثين سنة.

***

أنا، بعد ثلاثين سنة؟

باعد إليوت بين ذراعيه في إشارة إلى أنّه لم يفهم شيئاً.

- ماذا تُريد أن تقول بكلامكَ هذا؟

فتح الرجل فمه ولكنّه لم يحظَ بفرصة الإدلاء بمزيدٍ من الإيضاحات: انبجس دفقٌ من الدم فجأة من أنفه وسال بغزارةٍ على منامته.

أخرج إليوت من جيبه منديلاً ورقياً كان قد أخذه تلقائياً من الحانة ووضعه فوق أنف الرجل الذي بات يُعامله الآن كما لو أنّه مريضٌ في عيادته وقال آمراً:

- ارفَعْ رأسك وأرجِعه إلى الوراء!

ردّ الرجل المسنّ بلهجة هادئة وواثقة:

- سأكون بخير.

تأسّف للحظة لعدم اصطحاب حقيبته الطبية معه، لكنّ التزيف خفّ سريعاً.

- تعال معي، يجب أن تغسل وجهك بالماء.

سار الرجل في إثره دون أن يثير أيّ ضجّة. ولكن حينما وصلا إلى مقربة من المرحاض، داهمته فجأة حالة من الارتعاش كما لو أنّه أُصيب بنوبة من الصرع.

أراد إليوت أن يساعده، لكنّ الرجل رفض ذلك ودفعه بقوّة.

قال وهو يدفع باب الحمامات:

- دعني وشأني!

بعد أن كبح الرجل اندفاعه للمساعدة، قرّر إليوت أن ينتظر في الخارج. أحسّ بالمسؤولية اتجاه هذا الرجل ولم يكن مطمئناً لحالته.

يا لها من حكاية غريبة، في البداية، هذا الشبه في الشكل بينه وبين والد إليوت ومن ثمّ هذه الجملة التي لا رأس لها ولا عقب -أنا أنت بعد ثلاثين سنة- والآن هذا الرعاف وهذه الارتعاشات.

اللعنة، يا له من نهار!

لكنّ النهار لم ينتهِ بعد، لأنّه، بمضيّ بعض الوقت، ظنّ إليوت أنّ انتظاره في الخارج قد طال، فقرّر الدخول إلى المراحيض.

- يا سيّد؟

كانت المراحيض عبارة عن حجرة طويلة. فتّش إليوت في البداية صفّ الحمّامات ولكنّه لم يرَ أحداً.

لم يكن في المكان لا نافذة ولا بوابّة نجاة. لا بدّ إذاً أن يكون الرجل في إحدى المقصورات.

- هل أنت هنا، يا سيّد؟

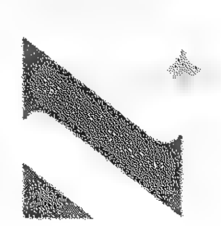
لم يتلقّ أيّ جواب. خشي الطبيب من أن يكون الرجل قد أُصيب بالإغماء، فهرع لكي يفتح أوّل باب: لا أحد.

الباب الثاني: لا أحد.

الباب الثالث، الرابع... الباب العاشر: كانت جميع المقصورات فارغة.

أحسّ باليأس والإحباط، فرفع عينيه نحو السقف: لم يُلاحظ أنّ أيّ لوح قد نُزِع عن مكانه.

كان ذلك مستحيلاً ومع ذلك كان لا بدّ من التسليم بالواقع: لقد اختفى الرجل.



2

أنا مهتمٌّ بالمستقبل، ففيه أنوي أن أقضي سنواتي المقبلة.

وودي آلن

سان فرانسيسكو
سبتمبر 2006
إليوت في سنّ الستين

فتح إليوت عينيه فجأةً. كان مستلقياً في سريره وقلبه يدقّ بقوّة وجسده ينضح عرقاً.

يا للكابوس اللعين!

هو الذي لم يكن يتذكّر قطّ أحلامه، حلم لتوّه حلماً غريباً جدّاً: كان يتجوّل في مطار سان فرانسيسكو، حينما وقع على... نسخة ثانية من نفسه. ولكن نسخة أكثر شباباً منه والذي بدا متفاجئاً أكثر منه لدى رؤيته. بدا كلّ شيء واقعياً وحقيقياً جدّاً، ومقلقاً جدّاً، كما لو أنّه **فعلاً** قد عاد ثلاثين عاماً إلى الوراء.

ضغط إليوت على زرّ رفع الستائر قبل أن يلقي نظرة قلقة على العلبة الموضوعة على طاولة سريره والتي كانت تحوي أقراصاً صغيرة ذهبية اللون. فتح العبوة: كان قد بقي فيها تسعة أقراص. كان

قد ابتلع في الليلة الماضية، وقبل أن ينام، قرصاً منها بدافع الفضول.

تُرى هل كان ذاك القرص مصدر حلمه الغريب؟ كان المسنّ الكمبودي الذي أعطاه العلبة قد ظلّ متكتّماً على تأثيرات الدواء ومفاعيله، وإن كان قد طلب منه بنبرة جدّية بأن «لا يسيء أبداً استخدامه».

وقف إليوت بصعوبة على قدميه وتقدّم نحو النافذة الزجاجية المطلّة على مجمّع مارينا السياحي والتي تتيح إطلالة أخّاذة على المحيط وجزيرة ألكاتراز وجسر غولدن غيت. كانت الشمس المشرقة تُلقي على المدينة نوراً مائلاً إلى الحُمرة تتغيّر درجة لونه في كلّ دقيقة. كانت قوارب شراعية ومراكب تلتقي في عرض المحيط، على صوت أبواق الضباب، وعلى الرغم من الصباح الباكر، كان بعض ممارسي رياضة المشي يسيرون على طول مارينا غرين المرج الشاسع المطلّ على البحر.

أراحته رؤية تلك المشاهد المألوفة بعض الشيء. من المؤكّد أنّه سوف ينسى سريعاً هذه الليلة المضطربة. ما كاد أن يقتنع بذلك حتى عكس له زجاج النافذة صورة مقلقة: كانت بقعة غامقة تمتدّ على سترة منامته. أسبل عينيه لكي يتفحّص البقعة بتركيز أكبر.

دم؟

تسارعت وتيرة نبضات قلبه، ولكن لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. لا بدّ أنّه قد نزف من أنفه في أثناء الليل وروى هذه الحادثة في حلمه. كانت تلك مسألة شائعة ومن العبث الشعور بالذعر منها.

بعد أن هدأ قليلاً واطمئنّ بعض الشيء، ذهب إلى الحمّام لكي يستحمّ قبل الذهاب إلى العمل. ضبط درجة حرارة الماء في الرشّاش

وظلّ ساكناً لبعض الوقت، سارحاً بأفكاره، بينما كانت غرفة الاستحمام تمتلئ بالبخار. كان لا يزال هناك شيءٌ ما يُقلقه. ولكن ما هو هذا الشيء؟ كان قد بدأ يتجرّد من ثيابه حينما قاده حدسه إلى أن ينبش في جيب منامته. كان فيه منديل ورقيّ ملطّخ بالدم. خلف لطخات الهيموغلوبين، استطاع أن يميّز صورة الجسر الأشهر في المدينة وقد علته عبارة: **غولدن غيت كافيه - مطار سان فرانسيسكو**.

تسارعت نبضات قلبه من جديد وهذه المرّة، بات من الأصعب عليه أن يستعيد هدوءه.

* * *

أيكون مرضه هو ما يشوّش ذهنه؟

قبل بضعة أشهر، ومن خلال إجراء الفحص بالمنظار الأليافي(*)، عَلِمَ بأنّه يعاني من سرطان الرئة. في الحقيقة، لم يُفاجئه ذلك كثيراً، إذ لا يُمكن للمرء أن يدخّن يومياً علبة سجائر على مدى أربعين عاماً من دون أن يُعاقَبَ على ذلك. لقد عرف دائماً أخطار ذلك وقَبِلَ بها. هذا من طبيعة الأمور، إنّها مجازفة الحياة. لم يكنْ قد سعى أبداً إلى أن تكون له حياة مثالية ولا إلى أن يحمي نفسه بأيّ ثمنٍ كان من صدمات الحياة. بطريقة ما، كان يؤمن بالقدر: الأمور تحدث حينما ينبغي لها أن تحدث. وعلى الإنسان أن يتقبّل ذلك.

موضوعياً، كان ذلك نوعاً خطيراً من السرطان: أحد أشكال السرطان الأسرع انتشاراً وتطوّراً والأقل قابلية للمعالجة. شهد الطبّ

(*) منظار أليافي: مسبار لين من ألياف بصرية لاكتشاف أعمق التجاويف في الجسم. (المترجم)

خلال السنوات الأخيرة هذه تقدّماً في هذا المجال والآن تساهم أدوية جديدة في إطالة أمد حياة المرضى. لكن الأوان كان قد فات بالنسبة إليه: لم يتمّ اكتشاف الورم مبكّراً وأظهرت الفحوصات أنّ الورم قد انتشر في أعضاء أخرى من جسمه.

عرض عليه الأطباء أن يتّبع العلاج التقليدي -مزيجٌ من العلاج الكيماوي والعلاج بالأشعة- ولكنّه رفض ذلك. في المرحلة التي وصل إليها في المرض، لم يعُد هناك الشيء الكثير ليجرّبه، وكانت نتيجة المعركة قد حُسِمت وسوف يموت في غضون بضعة أشهر.

كان قد نجح إلى هذه اللحظة في إخفاء مرضه، لكنّه كان يعلم أنّه سوف لن يستطيع أن يفعل ذلك إلى ما لا نهاية. أصبح سُعاله متواصلاً وأصبحت آلامه في منطقة الأضلاع والكتف أكثر شدّة وكان التعب ينال منه أحياناً على نحوٍ مفاجئ، في حين كان المعروف عنه أنّه لا يعرف التعب والإنهاك.

لم يكن الألم هو ما يخيفه، بل ما كان يخشاه أكثر من أيّ شيءٍ آخر هو ردّ فعل الآخرين. وخاصّة ردّ فعل أنجي، ابنته البالغة عشرين عاماً، والطالبة في نيويورك، وردّ فعل مات، صديقه المقرّب الذي لطالما تقاسَمَ معه كلّ شيء.

خرج من تحت رشّاش الماء وجفّف جسمه سريعاً وفتح خزانة ملابسه. اختار ثيابه بعناية أكثر من أيّ وقتٍ مضى، إذ اختار قميصاً قطنياً مصرياً وبزّة إيطالية. بينما كان يجهّز نفسه، زال شبح المرض لكي يترك مكانه لرجلٍ لا يزال في مقتبل العمر، في مظهره الرجولي. حتى الآونة الأخيرة، بفضل سحره الذي لا يُقاوَم، كان يحدث له أن يخرج للسهر مع فتياتٍ ونساء جميلات لا يبلغن أحياناً نصف سنّه. لكنّ هذه العلاقات لم تكن تدوم أبداً. كل الذين عاشروا إليوت كوبر

من كثب كانوا يعرفون بأنّ امرأتين فقط كانتا مهمّتين في حياته. كانت الأولى ابنته أنجي، والثانية تُدعى إيلينا وقد ماتت منذ ثلاثين عاماً.

* * *

خرج إلى الرصيف واستُقبِل بالشمس والأمواج والرياح. وقف لبرهة لكي يستمتع بالشمس التي أشرقت قبل أن يفتح باب كراجٍ صغير. هناك، اندسّ في سيارة قديمة من طراز «الخنفساء» برتقالية اللون، وهي آخر مخلّفات حقبة هيبّية ولّت منذ زمنٍ طويل. أخفَضَ الغطاء المتحرّك للسيارة ودخل بحذر إلى الجادة وسلك فيلمور ستريت نحو البيوت ذات النمط الفيكتوري في حيّ باسيفيك هايت شمال سان فرانسيسكو. وكما في الأفلام السينمائية، كانت شوارع سان فرانسيسكو الأفعوانية والشديدة الانحدار تَرسم على نحوٍ غريب ما يشبه خطوط قطارات الملاهي الحلزونية. لكنّ إليوت تجاوز عمر اللهو بسرعة السيارة في تقاطعات ومفترقات الطرق. في شارع كاليفورنيا، انعطف إلى اليسار وصادف عربة ذات كوابل تقلّ الدفعة الأولى من السيّاح نحو الحيّ الصيني، قبل أن يبلغ الجيب الصيني في المدينة، دخل إلى مرأب للسيارات تحت الأرض يقع خلف كاتدرائية غريس ووصل إلى مركز لينوكس الطبي الذي كان يعمل فيه منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

بصفته رئيساً لقسم جراحة الأطفال، كان يُعدّ أحد أقطاب المستشفى. لكنّ هذه الترقية كانت حديثة العهد وحصل عليها متأخّراً. خلال كلّ فترة عمله المهني، كان يولي الأولوية القصوى لمرضاه ويكرّس نفسه لتقديم العناية لهم، وكان يجهد -وهذا أمرٌ نادرٌ بالنسبة إلى طبيبٍ جرّاح- لكي لا يتمسّك بمجرّد خطط تقني

ومهني، وإنّما أن يأخذ في الحسبان أيضاً البُعد العاطفي. لم تكن مراتب الشرف تُثير اهتمامه ولم يسعَ قط إلى بناء شبكات من العلاقات عن طريق مباريات الغولف أو عطلات نهاية الأسبوع على ضفاف بحيرة تاهو. ومع ذلك، حينما كان أطفال زملائه يحتاجون إلى الخضوع لعملٍ جراحي، كانوا يلجؤون غالباً إليه هو، في إشارة إلى أنّه لا يُخطئ كثيراً في هذه المهنة.

* * *

مدّ إليوت نحو صامويل بيلو، مسؤول المَختبَر في المستشفى، جُرياباً بلاستيكياً صغيراً كان يحفظ فيه بعض البقايا التي عثَر عليها في قاع عبوة الأقراص التي قدّمها المسنّ الكمبودي له.

- هل يمكنك أن تحلّل لي هذا؟

- ما هذا؟

- أنت مَن عليه أن يقول لي ما هذا.

ثمّ دخل بسرعة الريح إلى الكافتيريا وأخذ جرعته الأولى من الكافيين وصعد بعد ذلك إلى قسم العمليات لكي يبدّل ثيابه ويلتحق بفريقه المكوّن من اختصاصي تخدير وممرّضة وطبيبة هندية متمرّنة يشرف على عملها.

كان المريض طفلاً رضيعاً نحيلاً، عمره سبعة أشهر، يُدعى جاك ويعاني من مرض في القلب.

كان هذا التشوّه القلبي الذي يمنع تزويد دمه بالكمية المطلوبة من الأوكسجين يسبّب له ازرقاقاً في البشرة وتصلّباً في أصابعه ويلوّن شفتيه باللون الأزرق.

بينما يتهيّأ إليوت لشقّ القفص الصدري للطفل الرضيع، لم يستطعْ أن يمنع نفسه من الإحساس بنوع من الرهبة، مثل فنان قبل أن

يصعد إلى خشبة المسرح. بالنسبة له، كانت عمليات القلب المفتوح تنمّ عن شيءٍ إعجازي. كم عملية قام بإجرائها؟ المئات، بل الآلاف، من دون شكّ. حتى أنّ فريقاً تلفزيونياً أعدّ عنه، قبل خمسة أعوام، تقريراً أشادَ فيه ببراعة «أنامله الذهبية» القادرة على خياطة أوعية دموية رفيعة مثل إبرة، باستخدام خيوط رفيعة لا تُرى بالعين المجرّدة. ولكن في كلّ مرّة، كان ينتابه التوتّر نفسه والخشية نفسها من الفشل.

استغرقت العملية الجراحية أكثر من أربع ساعات تمّ خلالها تعطيل وظائف القلب والرئتين ليقوم جهازٌ بأداء تلك الوظائف. مثل سمكريّ قلوبٍ، سدّ إليوت الثقب بين البُطينين وفتح قناةً رئوية لكي يمنع مرور الدم الأزرق نحو الشريان الأبهر. كان ذلك عملاً دقيقاً يتطلّب الكثير من التمرين والتركيز. لم ترتعش يداه، لكنّ جزءاً من تفكيره كان في مكانٍ آخر، كان ينصبّ على مرضه الخاصّ الذي لم يستطِعْ أن يتجاهله وعلى الحلم الغريب الذي رآه في الليلة السابقة. حينما أدرك فجأة ضعف تركيزه، أحسّ بأنّه يخرج عن الأصول المتّبعة في إجراء العملية وركّز من جديد على المهمّة التي عليه أن ينجزها.

حينما انتهت العملية الجراحية، شرح إليوت لوالدَي الطفل الرضيع بأنّه من المبكّر جدّاً الحديث عن نتيجة العمل الجراحي. سوف تتم متابعة حالة الطفل لبضعة أسابيع في قسم العناية المشدّدة حيث ستتمّ مساعدته على التنفّس إلى أن يستعيد القلب والرئتان تدريجياً كامل وظائفهم.

خرج إلى مرأب المستشفى وهو لا يزال يرتدي ثياب الطبيب الجرّاح. سقطت عليه أشعّة الشمس التي كانت لا تزال مرتفعة في

السماء وخلال جزءٍ من الثانية، شعر بالدوخة والدوّار. كان منهكاً وخائر القوى تملأ رأسه أسئلة كثيرة: هل من المنطقي والمعقول أن يُخفي مرضه، مثلما يفعل؟ هل كان حريصاً في مواصلة إجراء عمليات جراحية مع احتمال أن يعرّض حياة مرضاه للخطر؟ ماذا كان ليحدث هذا الصباح لو أنّه تعرّض لانتكاسة صحية خلال قيامه بالعمل الجراحي؟ ولكي يحفّز تفكيره، أشعل سيجارة وسحب أوّل نفسٍ منها بتلذّذ. كان هناك أمرٌ واحدٌ مؤكّدٌ مع هذا السرطان ألا وهو أنّه يستطيع الآن أن يدخّن قدر ما يشاء، لأنّ ذلك سوف لن يغيّر شيئاً في تفاقم المرض.

جعلته نسمة خفيفة يرتعش. منذ أن علم بأنّه سيموت قريباً، بات أكثر حساسية حيال كلّ ما يحيط به، ويكاد يشعر جسدياً بخفقان المدينة كما لو أنّها عضوٌ حيّ. كان المشفى يطلّ على رابية نوب هيل الصغيرة. كان يمكنه من هناك أن يستشعر الذبذبات المتصاعدة من الميناء والأرصفة البحرية. سحب آخر نفسٍ قبل أن يسحق سيجارته. كان قد حسم قراره: سوف يتوقّف عن إجراء العمليات الجراحية اعتباراً من نهاية الشهر، وسوف يُخبر ابنته ومات بحقيقة مرضه.

نعم، لقد قُضِيَ الأمر. لا يمكن للمرء أن يعود إلى الوراء. سوف لن يقوم بعد الآن بالشيء الوحيد الذي كان يجعله يشعر بأنّه حقّاً مفيد ألا وهو تقديم العلاج للآخرين.

فكّر مرّة أخرى لبرهة في هذا القرار القاسي وشعر بأنّه قد أصبح عجوزاً ويائساً.

- دكتور كوبر؟

التفت إليها ليجد خلفه شاريكا، طسته المتمرّنة الهندية، تقف

أمامه. كانت قد غيّرت ملابسها واستبدلت زيّها الطبي بسروال جينز وقميصٍ بلا أكمام جميلٍ له حمالات رفيعة. قدّمت له بشيءٍ من الاستحياء كوباً من القهوة. كان كلّ شيءٍ فيها يوحي بالجمال والشباب والحياة.

قَبِلَ إليوت منها المشروب وشكَرَها على ذلك بابتسامة.

- جئتُ لكي أودّعك، يا دكتور؟

- تودّعيني؟

- اليوم، تنتهي مدّة تمريني في الولايات المتّحدة.

تذكّر إليوت ذلك، وقال:

- هذا صحيح، سوف تعودين إلى بومباي.

- شكراً لك على حُسن استقبالكَ لي ولطفكَ معي. لقد تعلّمتُ منكَ الكثير.

- شكراً لمساعدتكِ يا شاريكا، سوف تكونين طبيبة ناجحة.

- أمّا أنت، فأنت طبيب عظيم.

هزّ إليوت رأسه، منزعجاً من المديح.

تقدّمت الشابّة الهندية خطوةً إلى الأمام واقتربت منه.

- كنتُ أقول في نفسي... كنتُ أقول في نفسي بأنّه ربّما نستطيع أن نخرج معاً لتناول العشاء هذا المساء.

في أقلّ من ثانية، تلوّنت بشرتها السمراء الجميلة باللون القرمزي. كانت خجولة وكان من الصعب عليها أن تعرض عليه هذا الاقتراح.

أجاب إليوت وهو مندهشٌ تماماً للسياق الذي اتّخذته هذه المحادثة:

- أنا آسفٌ، ولكن هذا مستحيل.

قالت الطبيبة الهندية:

- لقد فهمت.

صمتت لبضع ثوانٍ قبل أن تُضيف:

- تنتهي مدّة تمريني رسمياً في الساعة السادسة مساءً. هذا المساء، لن تعود مسؤولي ولن أعود تحت إمرتك. إذا كان هذا ما يمنعكَ...

نظر إليها إليوت بانتباه أكبر. كم عمرها يا تُرى؟ أربعة وعشرون عاماً؟ خمسة وعشرون عاماً على أبعد تقدير. لم يكن غامضاً أبداً معها وأحسّ بعدم ارتياح.

- لم أقصد هذا.

قالت:

- هذا غريب، لطالما اعتقدتُ بأنني لم أكُن لامبالية حيالك...

ماذا كان عليه أن يُجيبها؟ هل كان عليه أن يُخبرها بأنّ نصفه قد مات من قبل وأنّ النصف الآخر سيتبعه؟ أن يُخبرها بأنّنا نزعم بأنّ ليس للحبّ عمر، ولكن هذا الزعم هو مَحض هراء...

- لا أعرف ماذا أقول لكِ.

غمغمت وهي تبتعد عنه:

- لا تقُل شيئاً، إذاً!

شعرت بالاستياء وكانت قد ابتعدت عنه حينما تذكّرت أمراً، وقالت من دون أن تنظر إلى الخلف:

- آه، نسيت، لقد تلقّى المقسم رسالة من صديقك مات: إنّه ينتظرك منذ نصف ساعة، ويبدأ يفقد صبره...

* * *

خرج إليوت مسرعاً من المستشفى وأوقف سيارة أجرة على عجل. كان مقرّراً أن يتناول الغداء مع مات وقد تأخّر عليه كثيراً.

مثلما هناك الحبّ من النظرة الأولى، هناك أحياناً الصداقة من اللقاء الأول، كان مات وإليوت قد التقيا قبل أربعين عاماً في ظروفٍ خاصّة. من الناحية الظاهرية، كان كلّ شيء يفرّق بين الرجلين: مات رجلٌ فرنسي منفتح، هاوٍ للنساء الجميلات ومحبّ لملذّات الحياة؛ في حين إليوت أميركي ذو نزعة محافظة ويميل للعزلة.

وقد اشتريا، معاً، مصنعاً للنبيذ في مقاطعة نابا فالي، التي تُسمى بيريغور[*] كاليفورنيا. كان النبيذ الذي ينتجانه -نبيذ عنب خفيف وشاردونيه بنكهة الأناناس والبطيخ- قد نال شهرة طيّبة بفضل الجهود المحمومة التي بذلها مات لترويج منتجاتهما داخل البلاد وفي أوروبا وآسيا أيضاً.

بالنسبة إلى إليوت، كان مات هو الصديق الذي يبقى وفيّاً له حينما لا يعود لديه صديق، الصديق الذي يطلبه في عزّ الليل إذا ما كان هناك ذات يوم جثّة ينبغي رفعها.

وبانتظار ذلك، كان إليوت في عجلة من أمره، أمّا مات، فسوف يحتجّ...

* * *

كان مطعم بلفيو الفريد للغاية والذي كانا يتناولان فيه الغداء بانتظام، يرتفع على طول ميناء أمباركاديرو ويطلّ على الواجهة البحرية. كان مات ديلوكا، وهو يمسك كأساً بيده، ينتظر بفارغ الصبر منذ نصف ساعة في الهواء الطلق على الرصيف الذي ينفتح

(*) بيريغور: منطقة في فرنسا، مشهورة بمطبخها وصناعة النبذ. (المترجم)

على جسر باي بريدج وجزيرة الكنز وناطحة السحاب في حيّ الأعمال.

كان علي وشك أن يطلب الكأس الثالثة حينما رنّ هاتفه.

- مرحباً يا مات، اعذرني، ولكنني سوف أتأخّر قليلاً.

- لا تستعجل، يا إليوت. مع مرور الوقت، اعتدتُ على مفهومك الخاصّ للدقّة في المواعيد...

- أنا أحلم! ولكن ألن توبّخني؟

- كلا، يا صديقي العزيز، فأنت طبيب وإنقاذك لحياة الآخرين يمنحك كلّ الحقوق، هذا معلومٌ.

- هذا ما كنتُ أخشاه، أنت توبّخني...

لم يستطِعْ مات أن يمنع نفسه من الابتسام. غادر الرصيف، وهاتِفُه على أذنه، لكي يدخل إلى صالة المطعم الفسيحة. اقترح عليه وهو يقترب من رفوف عرض المأكولات البحرية:

- هل تريد أن أطلب لك الطعام؟ أمامي الآن سرطان بحر يتلوّى سيشرّفه أن يُقدَّم لك كوجبة...

- أنا أثق بك وأفوّضك.

أغلق مات سمّاعة الهاتف وبإشارة من رأسه للشيف، حسم مصير السلطعون المسكين.

- وواحد سرطان بحر مشوي، واحد!

بعد مضي ربع ساعة، اجتاز إليوت مهرولاً الصالة الفسيحة المزيّنة بالخشب النفيس والمرايا. بعد أن تعثّرت قدمه بعربة للحلويات واصطدم من دون قصدٍ بنادلة، انضمّ إلى صديقه على طاولتهما المعتادة. كانت أولى كلماته عبارة عن تحذير لصديقه:

- إذا كنت لا تزال حريصاً على صداقتنا، تجنّب أن تلفظ في الجملة نفسها كلمتَي «تأخير» و«مجدداً».

قال مات مؤكّداً:

- لم أقل شيئاً. حجزنا هذه الطاولة منذ الساعة الثانية عشرة، والآن بلغت الساعة الواحدة والنصف ولكنني لم أقل شيئاً. قُلْ لي إذاً، كيف انقضت زيارتك إلى كمبوديا؟

بالكاد تلفّظ إليوت ببضع كلمات حتى داهمته نوبة سعال. قدّم له مات كوباً كبيراً من المياه الغازية.

سأله مات، جزعاً:

- ألا تلاحظ أنّ سعالك قد زاد بعض الشيء؟

- لا تقلق.

- ومع ذلك... ألا ينبغي عليك إجراء فحصٍ صغير؟ صورة أشعّة أو شيءٍ من هذا القبيل...

قال إليوت وهو يفتح دفتر قائمة الطلبات:

- أنا الطبيب هنا. إذاً، ماذا طلبتَ لي؟

- لا شيء يهمني، لكنني أرى أنّك لا تبدو بحالة جيّدة.

- هل ستستمر هذه المجاملات لوقتٍ طويل؟

- بكل بساطة، أنا قلقٌ بشأنك: أنت تعمل كثيراً.

- قلتُ لك بأنني بخير! فقط هذه المهمة التي قمتُ بها في كمبوديا أتعبتني قليلاً...

قاطعه مات عابساً:

- ما كان عليك أن تذهب إلى هناك. بالنسبة لي، قارة آسيا...

- على العكس، كانت رحلة مثمرة وثرية جدّاً. ولكن، حدث معي هناك شيءٌ غريب.

- ما هو؟

- قابلتُ مسنّاً كمبودياً، قدّمتُ له مساعدة. أراد أن يعرف أغلى أمنياتي، كما لو أنّه ماردٌ يخرج من مصباحٍ سحري...

- وبماذا أجبته؟

- طلبتُ منه أمراً مستحيلاً.

- أن تفوز أخيراً في مباراةٍ للغولف؟

- دَعْكَ من هذا.

- كلا، أخبرني...

- أخبرته بأنني كنتُ سأتمنى لو أنني ألتقي شخصاً من جديد...

في هذه اللحظة، أدركَ مات أنّ صديقه جادّ وتغيّرت تعابير وجهه.

سأل وهو يعرف تماماً الجواب:

- ومَن كنت ستتمنى لو أنك تلتقي به من جديد؟

- إيلينا...

خيّمت مسحة من الحزن على الرجلين، لكنّ إليوت رفض أن يستسلم للكآبة. بينما كانت النادلة تقدّم المقبّلات، استأنف حديثه وهو يروي لصديقه الحكاية المدهشة لعبوة الأقراص والكابوس المزعج الذي عانى منه في الليلة السابقة.

أرادَ مات أن يشيعَ جوّاً من الاطمئنان:

- إن أردتَ رأيي، انسَ هذه الحكاية وخفّف عنك عبء العمل قليلاً.

- لا يمكنكَ أن تتصوّر إلى أيّ درجة كان هذا الكابوس مزعجاً ومقلقاً ويبدو واقعياً. كان... كان غريباً جدّاً أن يرى المرء نفسه من جديد وهو في سنّ الثلاثين.

- هل تعتقد حقّاً أنّ هذه الأقراص هي مَن تركت هذا التأثير عليك؟

- وماذا سواها؟

قال مات بنبرة تخمينية:

- ربّما تناولتَ طعاماً غير طازجٍ. بالنسبة لي، أنت تُفرطُ في التردّد على المطاعم الصينية...

- كفّ عن...

- أنا جادٌّ فيما أقول. لا تذهب ثانية إلى السيّد تشاو، صاحب المطعم الصيني. أنا متأكّد من أنّ طبق البط الصيني الذي يقدّمه مُعَدٌّ من لحم الكلاب...

* * *

سار ما تبقّى من وقت تناول وجبة الغداء بمزاجٍ مرح. كان مات يتميّز بهذه الموهبة العظيمة في إشاعة البهجة والغبطة من حوله. في الأوقات التي كان إليوت يقضيها برفقته، كان ينسى أفكاره السوداوية وهمومه. أخذ الحديث نبرة هزلية مازحة وبات يجري حول مواضيع أكثر سطحية.

سأل مات وهو يأخذ لقمة من الموز المحلّى:

- هل رأيتَ الفتاة الجالسة قرب البار؟ إنّها تنظر إليّ، أليس كذلك؟

التفتَ إليوت نحو طاولة تقديم الطلبات: كانت حورية بحر

جميلة، ذات ساقين رفيعتين وطويلتين وعينين كعينَي غزال، ترتشف بارتخاء كأساً من المارتيني.

- هذه فتاة منادمة عبر الهاتف، يا عزيزي.

- إطلاقاً.

- هل تريد أن تُراهن؟

- أنت تقول هذا لأنّها تنظر إليّ أنا.

- كم تخمّن عمرها؟

- خمسة وعشرون عاماً.

- كم عمركَ أنت؟

أجاب مات:

- ستون عاماً.

- ولهذا السبب هي فتاة منادمة عبر الهاتف...

أظهر إليوت تأثراً لبضع ثوانٍ قبل أن يتصرّف بحدّة وانفعال.

- لم أكن قط على هذه الدرجة من اللياقة والجاهزية!

- نحن نشيخ، يا صديقي. هذه هي الحال، إنّها الحياة وأعتقد أنّه عليك أن تتقبّل ذلك.

تقبّل مات هذه البداهة بقلق خفيف.

قال إليوت وهو ينهض من الطاولة:

- حسناً، سوف أتركك الآن. سوف أذهب مرّة أخرى لأنقذ حياة بعض الناس. وأنت، ما هو برنامجك لفترة ما بعد الظهيرة؟

ألقى مات نظرة على البار ليرى بحزن أنّ حورية البحر الجميلة تتحدّث مع زبونٍ شاب. لو كان الأمر قبل بضعة أعوام، لاستطاع أن يذهب وينتزع الفتاة الحسناء من الشابّ الوسيم، ولكنّه يشعر، الآن،

بأنّه مهمَلٌ من النساء لوجود مَن هو أفضل منه، مثل ملاكمٍ اعتزل الحلبات.

قال وهو يلحق بإليوت:

- سيارتي في المرأب. سوف أرافقك إلى الفندق. ربّما أحتاج، أنا العجوز، لفحصٍ صغير...



3

اجلس قرب فتاة حسناء مدة ساعة، ويبدو لك أن الأمر لم يستغرق سوى دقيقة. اجلس على مقلاة لدقيقة، ويبدو لك أن الأمر استغرق ساعة. هذه هي النسبية.

ألبرت أينشتاين

سان فرانسيسكو، 1976

إليوت في سنّ الثلاثين

سأل مات زهر يستلقي على الرمال ويشير إلى الخليج الواسع الذي يمتدّ أمام أبصارهما، محاطاً بالتلال:

- ألسنا على ما يُرام هنا؟

في تلك الفترة، لم تكن أحوال الصديقين المادية قد تحسّنت بعد. لم يكن من الوارد بالنسبة لهما أن يُضيّعا وقتهما في تناول وجبة الغداء في مطعم، ولذلك كانا يفضّلان في الساعة المخصّصة لاستراحة الغداء الذهاب إلى الشاطئ لتناول وجبة سريعة من الهوت دوغ قبل العودة إلى العمل.

كان نهاراً جميلاً، طافحاً بضوءٍ ساطع. في البعيد، كان جسر غولدن غيت، الملفّح بضبابٍ خفيف، يبدو وكأنّه يطفو فوق سجادة من السُّحب الحليبية اللون.

أجابه إليوت موافقاً وهو يقضم شطيرته:

- أنت محقّ، نحن أحسنُ حالاً هنا ممّا لو كنّا في السجن!

قال مات على نحوٍ غامض:

- اليوم، لديّ خبرٌ مهمّ لأخبرك به.

- حقّاً؟ ما هو؟

- اصبِرْ قليلاً، يا عزيزي، سوف ترى المفاجأة عند تناول التحلية...

كانت مجموعة من الشبّان والشابات، الذين جاؤوا للاستمتاع بشمس أواخر الصيف الهندي، يعبثون ويلهون من حولهما وهم يرتدون ألبسة من آخر طراز: كان الفتيان يرتدون سراويل واسعة وقمصاناً داخلية ملساء ولهم سوالف شعر كثيفة؛ بينما الفتيات يرتدين قمصاناً طويلة مبرقشة، وسترات مخملية ويتزيّنّ بالحلي.

أدار مات جهاز الترانزستور الصغير ووقع على الأغنية الضاربة: أغنية هوتيل كاليفورنيا التي تغنيها فرقة إيغلز لموسيقى الروك.

وفي الوقت الذي كان يدندن بلازمة الأغنية، كان يجُول بناظره على الشاطئ.

- هل رأيت الفتاة التي على يميننا، إنّها تنظر إلينا، أليس كذلك؟

التفت إليوت بهدوء. كانت امرأة شابة جميلة، مستلقية على منشفة، رشيقة مثل حورية، تتناول بتلذّذ آيس كريم إيطالي. صالبت ساقيها الطويلين وأرسلت نظرة لطيفة نحوهما.

- ربّما.

سأل مات وهو يُلقي عليها التحية بإشارة من يده:

- ما رأيكَ بها؟

- أذكّرك بأنّ هناك امرأة في حياتي.

أزال مات الذريعة بإشارة من ظهر يده:

- هل تعلم أنّ 5% فقط من الثديات يعيشون حياة زوجية؟

- ماذا تقصد؟

- ماذا تنتظر لكي تنضم إلى 95% من الذين لا يُخضِعون حياتهم لهذه المبادئ؟

- لا أدري إن كانت إيلينا ستوافقكَ الرأي في هذا الأمر...

التهم مات آخر لقمة من شطيرته وهو يُلقي في الوقت ذاته نظرة قلقة نحو صديقه.

- هل أنت متأكّد من أنّك على ما يُرام؟ تبدو بحالة سيّئة اليوم.

- كفّ عن مجاملاتك، أنت تُضايقني.

- هذا لأنني قلقٌ بشأنك: أنت تعمل كثيراً.

- العمل صحّة.

- لقد فهمت: لا تزال تذهب إلى صاحب المطعم الصيني، أسفل بيتك تماماً...

- السيّد تشاو؟

- نعم، هل سبق لك وتذوّقت عنده لحم البطّ على الطريقة البكينية؟

- إنّه لذيذ جداً.

- يبدو أنّه لحم القطط...

قاطعهما بائع مثلّجات متجوّل:

- أيّ نكهة يفضّل هذان السيّدان: فستق؟ كراميل؟ جوز الهند؟

تقبّل إليوت نصائح صديقه الذي طاب له أن يطلب آيس كريم لكليهما. بالكاد انصرف البائع حتى استأنفا حديثهما من حيث توقّف:

- كيف قضيت عطلة نهاية الأسبوع في فلوريدا؟ تبدو قلقاً...

اعترف له إليوت:

- لقد حدث لي أمرٌ غريب البارحة مساءً.

- ها أنا أُصغي إليك.

- لقد قابلتُ شخصاً في المطار.

- امرأة؟

- رجلٌ... في حوالي الستين من عمره.

بينما قطّب مات حاجبيه، روى له إليوت لقاءه الغريب مع ذاك الزائر الغامض الذي انتهى به المطاف بالاختفاء في مراحيض المطار.

انتظَرَ مات انقضاء عدّة ثوانٍ قبل أن يقول عابساً:

- أوه، الأمر أخطر ممّا كنتُ أعتقد.

- أُقسم لك على أنّ هذا صحيح.

- صدّقني، يا رجل، عليكَ أن تخفّف العمل.

- لا تقلق بشأني.

- لماذا تريدني ألا أقلق يا إليوت؟ تخبرني أنّ (أنتَ آخراً) قد جاء من المستقبل ليتحدّث معك بلطف. هذا أمرٌ طبيعي تماماً، أليس كذلك؟

- حسناً، لنتحدّث في أمرٍ آخر.

- كيف حال عزيزتك إيلينا؟

أدار إليوت رأسه نحو المحيط وزاغ بصره لبرهة نحو سُحب الضباب الرقيقة التي تحوم حول الدعائم المعدنية لجسر غولدن غيت.

أجاب وهو غارقٌ في التفكير:

- تُريد أن ننجب طفلاً.
أشرقَ وجه مات:
- فكرة رائعة، هل يمكنني أن أكون عرّابه؟
- لا أريد طفلاً، يا مات.
- حقّاً؟ لماذا؟
- أنت تعرف ذلك جيّداً: العالم بات خطراً للغاية، لا يمكن التنبؤ بمستقبله...
رفع مات عينيه نحو السماء.
- أنت تهذي، يا عزيزي. ستكون موجوداً لكي تحمي طفلك، وكذلك إيلينا، وحتى أنا سأساهم بقسطي في ذلك. هذه هي مهمّة ذوي الأطفال، أليس كذلك؟
- هذا الكلام سهلٌ بالنسبة لك: أنت تعيش حياة بلاي-بوي، وتغيّر صديقتك الصغيرة كلّ يومين. لا أشعر بأنّك على وشك بناء أسرة...
- هذا لأنني لم أحظَ بفرصة الالتقاء بفتاة مثل إيلينا. لا يحدث مثل هذا الشيء إلّا معك أنت. ليس هناك على الأرض سوى فتاة واحدة بهذه المزايا وقد ظفرتَ أنت بها. لكنّك أحمقٌ للغاية بحيث لا تستطيع أن تدرك هذا...
أشاح إليوت ببصره ولم يُجب بأيّ شيء. انقضت موجة عاتية على الشاطئ وألقت قليلاً من الزبد باتجاههما. لم تمضِ سوى بضع دقائق حتى عاود حُسن المزاج ظهوره وجرى الحديث حول أمور أقلّ أهمية.
حينما قرّر مات بأنّ لحظة «المفاجأة» قد حانت، نبش في حقيبته ليُخرِجَ منها قنينة من الشامبانيا.

سأل إليوت:

- بماذا نحتفل؟

وجد مات صعوبة في إخفاء انفعاله. اعترف وهو يَقذف بسدادة القارورة:

- هذه هي، لقد وجدتها أخيراً، يا عزيزي!

- شريكة حياتك؟

- كلا!

- وسيلة حلّ مشكلة الجوع في العالم؟

- أرضنا، يا رجل! استثمارنا المستقبلي! أرضٌ رائعة على قمّة ربوةٍ مع منزلٍ كبيرٍ من الخشب...

كان مات قد نال شهادته في قيادة الطائرات المائية قبل عدّة سنوات خلت، واشترى طائرة مائية ويكسب رزقه من خلال اصطحاب السيّاح في نزهة فوق الخليج. لكنّه كان يفكّر مليّاً ومنذ زمنٍ طويل في المشروع الطائش بعض الشيء ألا وهو إقامة معمل لصناعة النبيذ مع إليوت في نابا فالي.

قال لإليوت موضحاً بابتهاج:

- أؤكّد لك بأنّ هذه هي اللحظة المناسبة للاستثمار. في الوقت الراهن، ليس هناك بعد سوى بعض القطاعات المحدودة في الوادي، لكنّ النبيذ هو مستقبل كاليفورنيا. إنّه ذهبنا الأحمر، هل تفهم... إذا باشرنا بالمشروع في الحال، هو في متناول يدنا!

غيرَ مقتنعٍ تماماً ولكن مسروراً بسعادة صديقه، وعد إليوت بأن يأتي لرؤية الأرض في عطلة نهاية الأسبوع التالية وأصغى بمرح إليه وهو يتحدّث عن أحلامه الكبيرة إلى أن أعاده منبّه ساعته إلى الواقع.

قال له وهو ينهض من مكانه ويتمطّى:

- حسناً سوف أتركك الآن. سوف أذهب مرّة أخرى لأنقذ حياة بعض الناس. وأنت، ما هو برنامجك لفترة ما بعد الظهيرة؟

التفت مات لكي يتأكّد من أنّ الحورية الجميلة لم تتحرّك من مكانها. كما لو كانت تنتظره، غمزت له بعينها غمزة صريحة وواضحة.

شعّ وجه مات وابتهج. كان شابّاً ووسيماً ومقبلاً على الحياة.

- أعتقد أنّ أحدهم يحتاجني في فحصٍ بسيط.

* * *

سارت سيارة الأجرة بشقّ الأنفس، بسبب الازدحام، على طول شارع هايد ستريت. دفع إليوت الأجرة وصفق باب السيارة. لم يعُد المستشفى بعيداً جدّاً: بهذا الإيقاع من السير، سوف يصل إليه بشكلٍ أسرع مشياً على القدمين. أشعل سيجارة وسلك الشارع بخطوات حثيثة. كان يشعر دائماً بقلقٍ ينتابه كلّما اقترب من مكان عمله. كانت الأسئلة نفسها تراود ذهنه باستمرار. هل سيكون بمستوى ما يُنتَظَر منه؟ هل سيتّخذ القرارات الصائبة؟ هل سيفقد بعض مرضاه؟

لم يكُن قد بلغ بَعد عمراً يشعر المرء معه بأنّه قد أصبح محصّناً. لم تكن لديه لا الصدفة الخارجية الواقية المتينة ولا الأسلحة الداخلية لكي يحمي نفسه بها. كان قد أنجز إلى هذه اللحظة من عمره مسيرة بلا أخطاء: أنهى دراسته بتفوّق في مدينة بيركلي التي قفز فيها سنة دراسية، ثمّ دراسته الخارجية في بوسطن، وأربع سنوات كطبيب مقيم في القسم الداخلي وعدّة اختصاصات في مجال طبّ الأطفال من خلال زمالته الدراسية. وفي كلّ مرّة، كان ينهي هذه الدراسات بتقدير ممتاز.

ومع ذلك، لم يكن قد تأكّد تماماً واطمئنّ من أنّه قد خُلِق لهذه المهنة. كان هناك بالتأكيد هذا التشجيع الناجم عن الاعتناء والاهتمام بالآخرين، والإحساس بأنّه مفيدٌ ونافع. أحياناً، في نهاية نهارٍ سعيد، حينما يشعر بأنّ عمله الجراحي كان حاسماً، كان يخرج من عمله بنوعٍ من النشوة والغبطة، فيستقلّ سيارته ويسير بسرعة على طول المارينا. لقد صارع من أجل الحياة وقد كسب المعركة. في تلك الأماسي، خلال بضع ساعات، كان يشعر بأنّه مساوٍ لله قليلاً. لكن هذه الغبطة لم تكن تدوم لوقتٍ طويلٍ على الإطلاق. كان هناك على الدوام يوم غد، وبعد غد حيث يرتجف مريضٌ «لا ينبغي أن يموت» بين يديه.

نظر إلى ساعة يده، وسحق عقب سيجارته، وأسرع الخطى. كان شبح المستشفى يلوح أمامه الآن على بعد ما يُقارب مئة متر.

تساءل في نفسه من جديد: **هل فعلاً خُلقتُ لهذه المهنة؟**

أيّ نوعٍ من الأطبّاء سوف يصبح؟ لقد سلك هذا الطريق لكي يفي بوعدٍ قديم قطعه على نفسه، بعد أن وقع حدثٌ مهمّ في حياته. لم يكن نادماً على خياره، لكن يحسد في بعض الأيام حياة بنات الأكثر لامبالاة. منذ عشر سنوات، لم يعد لديه الوقت لفعل أيّ شيء: لا وقت ليقرأ ولا ليمارس الرياضة ولا ليهتمّ بأيّ شيءٍ آخر سوى مهنته.

دخل إلى بهو المستشفى، التقط صدريته وصعد إلى الطابق الثاني. عكست له مرآة المصعد وجه رجلٍ منهَك. منذ وقتٍ طويلٍ جدّاً لم ينَم لثماني ساعات متواصلة. منذ أن علّمته ليالي المناوبة أن يُقسّم نومه وينام في أثناء الدوام على نحوٍ متقطّع، فينام عشر دقائق ويستيقظ، لم يعد بوسعه أن يحظى بفترات صباحية ممتعة.

دفع باب صالة أرضيتها مرصوفة ببلاطٍ لامع حيث ينتظره لينغ، وهو طبيب مقيم ومتمرّن في قسم الطوارئ.

قال لينغ، وهو يُقدّمه للسيّد والسيّدة رومانو، الزوجان اللذان كانا برفقته:

- أريد رأيك بحالة تتعلّق بطبّ الأطفال، يا دكتور كوبر.

كان الرجل قصير القامة أسمر البشرة بملامح إيطالية-أميركية يُثير التعاطف مباشرةً، في حين كانت المرأة أطول قامةً وشقراء ذات ملامح شمالية. كانت علاقة اقتران جميلة بين شخصين على طرفَي نقيض من حيث الشكل.

لم يكونا في المستشفى لأمرٍ يتعلّق بهما، وإنّما بابنتهما أنابيل التي وصلت لتوّها إلى القسم وهي مستلقية بلا حراك على أحد أسرّة الغرفة.

قال لينغ موضّحاً:

- وجدَتها أمّها في هذه الحالة لدى عودتها إلى البيت عند الظهيرة. يُعتقَد بأنّها لم تستيقظ هذا الصباح. لقد طلبتُ فحصاً طبيّاً شاملاً وأجرى الدكتور أمندوزا اختباراً على جهاز الماسح الضوئي.

الماسح الضوئي جهازٌ جديد للتصوير الطبّي بدأ بالانتشار في مستشفيات العالم برمّته تحت اسم «سكانر».

اقترب إليوت من الجسد الذي كان في حالة غيبوبة. كانت أنابيل فتاة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها والتي ورثت في آنٍ واحد شقرة أمها وبراءة أبيها.

- هل عانت مؤخّراً من آلام في الرأس أو حالات غثيان؟

أجابت الأمّ:

- كلا.

- هل تتعاطى المخدّرات؟

- كلا!

- هل من الممكن أن تكون قد صدَمَت رأسها بشيءٍ ما وهي نائمة أو تكون قد سقطت من سريرها؟

لم يحدث ذلك أيضاً.

حتى قبل أن يكشف على الفتاة المراهقة، أحسّ إليوت بالحياة التي كانت تهرب والموت القابع في زاوية من الصالة، وهو ينتظر ساعته.

ومع ذلك كان الفحص الأوّلي باعثاً على الاطمئنان: كانت أنابيل تتنفّس على نحوٍ جيّد، وكان قلبها ورئتاها يقومون بوظائفهم على نحوٍ طبيعي. ثمّ تحقّق إليوت من ردّة فعل قرنية عينيها. هنا أيضاً، لم يكن هناك ما يشير إلى وجودِ خلل.

لكن الأمور ساءت عند فحص بؤبؤ العينين، حينما حرّك إليوت بهدوء رأس مريضته يميناً ويساراً، اكتشف أنّ عينيها لا تتبعان حركة رأسها. ثمّ، حينما ضغط على عظم القصّ في قفصها الصدري، انقبض رسغ الفتاة بطريقة مُقلِقة.

سأل السيّد رومانو:

- هذه ليست إشارة إيجابية، أليس كذلك؟ هل هناك مشكلة في الدماغ؟

ظلّ إليوت حذراً:

- من المبكّر الحكم على ذلك. دعنا ننتظر نتائج الفحوصات.

وصلت النتائج بعد عدّة دقائق. حينما وضع الطبيب صورة الأشعة على الجدار المضاء، كان يشكّ أصلاً في ما سيجده. ولأنّه

كان في مستشفى جامعي، ترك للطبيب المقيم أن يتكفّل بالحديث عن التشخيص:

- أهي وذمة في المخيخ؟

أكّد إليوت، بحسرة وأسف:

- بالضبط. وذمة مخيخية نزفية.

خرج من الغرفة المظلمة لينضمّ إلى والدَي أنابيل.

ما أن عبرَ عتبة الباب، سألاه معاً:

- ماذا إذاً، يا دكتور؟

نظر إليهما بتعاطفٍ وإشفاق. لا بدّ أنّه قد أراد أن يجيبهما بشيءٍ يخفّف عنهما من قبيل «**كلّ شيءٍ على ما يُرام، سوف تستيقظ الفتاة الصغيرة بين لحظة وأخرى**». ولكن لم تكن هذه هي الحقيقة.

- أنا آسفٌ جدّاً، لكن ابنتكما تعرّضت لسكتة دماغية وحالتها ميؤوسٌ منها.

ساد وجومٌ وخيّمت لحظة من الصمت بدت وكأنّها استغرقت دهراً إلى أن استوعب الوالدان مغزى هذه المعلومة. أطلقت الأمّ صرخة خانقة في حين رفض الأب الاستسلام:

- ولكنّها تتنفّس! لا تزال على قيد الحياة!

- حتى هذه اللحظة، لكنّها تعاني من وذمة سوف تتضخّم إلى أن تُعطّل قدراتها التنفسية وحينها سوف تتوقّف عن التنفس.

طالبت الأمّ:

- يمكننا وضعها على جهاز التنفّس الاصطناعي.

- نعم، يا سيّدتي، يمكننا أن نضعها على جهاز التنفّس الاصطناعي، ولكن لن يغيّر ذلك شيئاً.

اقترب الأب مترنّحاً من جسد ابنته.

- كيف... كيف يُمكن أن تُصاب بسكتة دماغية؟ إنّها لم تبلغ حتى الخامسة عشرة...

أجاب إليوت موضّحاً:

- يمكن لهذا أن يحدث في أيّ عمر ويُصيب أيّاً كان.

كانت أشعّة شمسٍ ساطعة تنسلّ من النافذة، وتغمر الغرفة بضوءٍ فاقعٍ يداعب الشعر الذهبي للفتاة المراهقة. كانت تبدو وكأنّها نائمة فقط وكان من الصعب التصديق بأنّها سوف لن تستيقظ أبداً.

قالت الأمّ المذهولة وهي لم تُصدّق بعد ما يجري:

- ولكن ألن تحاول على الأقلّ أن تُجري لها عملية جراحية؟

اقترب منها زوجها وأمسك بيدها. نظر إليها إليوت وقال بصوتٍ هادئٍ جدّاً:

- لقد انتهى الأمر، يا سيّدة رومانو، أنا آسف.

لا بدّ أنّه قد أراد أن يبقى معهما لوقتٍ أطول، وأن يأخذ على عاتقه جزءاً يسيراً من ألمهما، وأن يجد بضع كلمات تخفّف عنهما مصابهما، حتى وإن كان يعرف أنّه ليست هناك أي كلمة مناسبة في هذه الحالة، ولكن طلبت منه إحدى الممرّضات الالتحاق بقسم العمليات، حيث من المقرّر أن يُجري عملية جراحية لأحد المرضى في الساعة الثالثة من بعد الظهر وكان قد تأخّر عن موعدها.

قبل أن يُغادر الغرفة، كان عليه أن يُكمل عمله حتى النهاية وأن يسأل والدَي الفتاة المريضة إن كانا موافقَين على انتزاع أعضاء من جسمها للتبرّع بها لمرضى يحتاجونها. فجرى نقاشٌ سريالي وجبَ عليه خلاله أن يُقنعهما بأنّ موت ابنتهما قد يُساهم في إنقاذ حياة بشرٍ آخرين. نعم ربّما كان على إليوت أن يؤدّي عمله حتى النهاية، لكنّه لم يشعر اليوم أنّه يمتلك الشجاعة لفعل ذلك.

فخرج من الصالة وهو مُحبطٌ وغاضبٌ في آنٍ واحد. قبل أن يصعد إلى غرفة العمليات، توقّف في المرحاض ليصبّ بعض الماء على وجهه.

أقسم وهو ينظر في المرآة: **سوف لن أُنجب أطفالاً أبداً. سوف لن أُنجب أطفالاً أبداً لكي لا يموتوا أبداً!**

وا أسفاه على إيلينا إن لم تفهم ذلك...

* * *

أورلاندو، فلوريدا

1976

حلّ المساء على أوشن وورلد، حديقة الحيوانات الكبيرة. بينما كانت الخيوط الأخيرة لأشعّة الشمس تشوّه شكل ظلال أشجار السرو، كانت حشود متفرّقة تغادر تدريجياً المحميّة البحرية مفتونة بلقائها بالدلافين والسلاحف العملاقة وأسود البحر.

انحنت إيلينا فوق حوض الحيتان لكي تشجّع أنوشكا، أضخم «الحيتان القاتلة» على الاقتراب من ضفّة الحوض.

- مرحباً، يا جميلتي!

أمسكت المرأة الشابة برعنفة أنثى الحوت وحثّتها على أن تنقلب على ظهرها.

قبل أن تغرز محقناً في لحمها لتسحب قليلاً من دمها، طمأنتها، قائلة:

- لا تخافي، سوف لن يؤلمك ذلك.

كانت عملية جراحية دقيقة. إذا كانت الحيتان هي الحيوانات الأكثر ذكاءً من بين فصيلة الحيتانيات، فهي الأكثر افتراساً أيضاً.

على الرغم من سلوكها اللطيف، تبقى أنوشكا وحشاً يبلغ طوله ستّة أمتار ويزن أربعة أطنان يمكنه أن يقتلك بضربة من ذيله أو يبتر أحد أعضائك بفكّه الحادّ المزوّد بحوالي خمسين سنّاً. في كلّ عملية من عملياتها، كانت إيلينا تحرص على أن يساهم الحيوان طواعية في ذلك، من خلال تحويل عمليات العلاج والرعاية إلى ما يشبه لعبة تلعبها مع الحيوانات، وكانت طريقتها هذه تلقى عموماً النجاح، إذ كانت تمتلك هذا الحسّ الخاصّ مع الحيوانات وهو ما جعل منها مدرّبة ممتازة.

قالت وهي تسحب المحقن:

- ها قد انتهى الأمر.

لكي تكافئ أنثى الحوت العملاقة، رمَت إليها سطلاً من الأسماك المجمّدة وجادت عليها ببعض المداعبات.

كانت إيلينا مغرمة بمهنتها. بصفتها طبيبة بيطرية مقيمة، كانت مسؤولة عن الصحّة الجسمانية والنفسية لجميع حيوانات الحديقة. تُشرف على صيانة الأحواض وإعداد الغذاء وتساهم أيضاً في تدريب وتأهيل المدرّبين. كان الجمع بين كلّ هذا القدر من المسؤوليات أمراً غير مألوفٍ بالنسبة إلى شخصٍ في سنّها، علاوة على أنّها امرأة. لا بدّ من القول أنّها كافحت جاهدة لكي تحصل على هذا المنصب منذ أن تخصّصت بعالم الحيتان. علاوة على إجازتها في الطبّ البيطري، تخصّصت في علم البيولوجيا البحرية وتلقّت تعليماً وتأهيلاً متقدّماً في مجال علم النفس الحيواني، وهو اختصاصٌ دراسته مكلِفَة جدّاً وفرص العمل فيه نادرة للغاية واحتمالات العمل مع الدلافين والحيتان ضعيفة جدّاً مثل العمل كرائد فضاء. ومع ذلك، ظلّت متشبّثة بحلمها وكانت محقّة في ذلك. لأنّه قبل ذلك بخمسة أعوام، في عام

1971، اختار رجل الأعمال والت ديزني مدينة أورلاندو الصغيرة ليبني فيها المنتجع الترفيهي ديزني وورلد، مدينة الألعاب العملاقة.

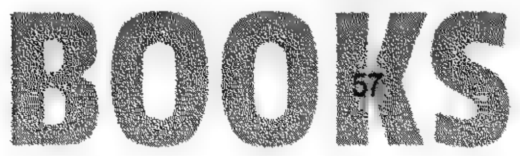
أمام تدفّق السيّاح، انتقلت أورلاندو من بلدة ريفية إلى الوجهة الأكثر جذباً في فلوريدا. فحذت أوشن وورلد حذو ميكي بأن أقامت في المنطقة حديقة الحيوانات البحرية الأكبر في البلاد. قبل عامٍ من الافتتاح الرسمي للحديقة، زارت إيلينا مقرّ الإدارة وألحّت عليها لكي تحصل على منصبٍ كان قد وُعِد به طبيبٌ بيطريّ أكبر سنّاً منها. وقد وافقت الإدارة على أن تضعها تحت الاختبار وتمّت في النهاية ترقيتها ومن ثمّ تعيينها بدلاً من زميلها! كان هذا هو الجانب الإيجابي في أميركا: في النهاية، تتغلّب الكفاءة على السنّ أو الجنس أو المنبت الاجتماعي.

كانت تعشق مهنتها. كانت تعلم أنّ أصدقاءها في منظمة السلام الأخضر يبدون أحياناً امتعاضهم بشأن حجز حرية الحيوانات، ومع ذلك يجب الإقرار بأنّ حديقة أوشن وورلد لم تكن عديمة الاحساس اتجاه البيئة، فقد حصلت إيلينا من إدارتها على الموافقة بأن تقوم بتمويل برنامجٍ ضخمٍ لحماية خراف البحر[1].

غادرت المرأة الشابّة منطقة الأحواض وذهبت إلى المباني الإدارية. وضعت بطاقة لاصقة على عبوة عيّنة الدم ثمّ وضعتها في المخبر الصغير للبدء بتحليلها. قبل أن تباشر بالعمل، أحسّت بالحاجة للذهاب إلى الحمّامات لكي تصبّ على وجهها ماءً بارداً. كانت تشعر طيلة النهار بأنّها مكتئبة قليلاً.

---

(1) خروف البحر: حيوان ثديي مائي له جسمٌ ضخم ينتهي بزعنفة دائرية الشكل.



حينما رفعت رأسها نحو المرآة المثبّتة فوق المغاسل، لاحظت أنّ دمعة تسيل على خدها. حدث ذلك دون أن تنتبه له فعلاً.

قالت وهي تمسح عينيها المحمرّتين بساعدها:

- يا إلهي، كم أنا غبية جدّاً!

في الحقيقة، كانت تعلم جيّداً المشكلة التي تعاني منها: لم تستطِعْ أن تفكّر من جديد في آخر حديثٍ لها مع إليوت وفي ردّ الفعل الذي أبداه حينما تكلّمت معه عن إنجاب طفل. كان يُبدي هذا الموقف في كلّ مرّة تحدّثه في هذا الموضوع ولم تكن تفهم تحفّظه الذي فسّرته على أنّه رفضٌ للالتزام. ومع ذلك لم تكن تشكّ للحظة واحدة في حبّه لها. كانت علاقتهما تتّقد بنارٍ وهّاجة وتتغذّى من رغبة كلّ منهما الدائمة في إبهار الآخر وملء حياته وإدهاشه...

ولكن هل كان بوسع هذا الحبّ أن يُقاوم مرور الزمن؟ قاربت الثلاثين من عمرها وهي لا تزال ذات مظهرٍ أنيق. إنّها تعيش في فلوريدا ويحوم الرجال من حولها، واثقة من قدرتها على إغرائهم. ولكن لكم سنة أخرى يمكن لهذا الحال أنّ يستمرّ؟ بدأ شبابها يتراجع تدريجياً وتشعر أنّ جسدها لم يعُد مثلما كان ولم يعُد له القوام نفسه وطراوة أجساد الفتيات البالغات ثمانية عشر أو عشرين عاماً نفسها اللواتي تصادفهنّ على الشاطئ أو في المدرّجات في أثناء العروض في حديقة الحيوانات المائية.

بقدر ما كان الأمر يتعلّق بها نفسها، لم يكن التقدّم في العمر يزعجها كثيراً، لكنّ طرائق التفكير من حولها كانت تتطوّر وتتحوّل: كان يجري الكلام عن الحبّ الحرّ والثورة الجنسية ولم تكن هذه التحوّلات تروق لها على الإطلاق لأنّها أرادت لعلاقتهما الثنائية أن

تستمرّ مع الزمن، ولم تكن ترغب أبداً في أن ترى أنّ الرجل الذي تحبّه يخوض مغامرات مع نساء أخريات.

شربت قليلاً من الماء ومسحت عينيها بمنديلٍ ورقي.

ربّما لم تُظهر بما فيه الكفاية لإليوت إلى أيّ درجة كانت متعلّقة به، لأنّها محتشمة بطبعها ولم تكن كلمات الحبّ والغزل من ضمن مهاراتها. لكن حينما نحبّ، لا نحتاج إلى إلقاء الخطابات الغزلية، فالحبّ نعرفه ونحسّ به، وهذا كلّ شيء. ثمّ، حين تطلب امرأة من رجلٍ بأن يكون والد أطفالها، هذا واضحٌ بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟ وتحديداً لأنّها تحبّه، أرادت أن تنجب منه طفلاً. لم تكن من أولئك النساء اللواتي يعانين من آلام الحمل ويرغبن بأن يُنجبن طفلاً مهما كلّف الثمن من أجل ذواتهنّ فقط. لقد رغبت في أن تُنجب طفلاً من إليوت، كامتدادٍ لقصّة حبّهما.

لكن كان من الواضح أنّه لا يرغب في ذلك ولم تكن تُدرك السبب.

كانت تشكّ في أنّ الرغبة في إنجاب طفلٍ مرتبطة على نحوٍ وثيق بالمَسار الشخصي لكلّ شخص وبتاريخه العائلي الخاصّ. في البرازيل، حظيت إيلينا بفرصة أن تترعرع في كنف أسرة متواضعة ولكن مُحبّة وحنونة وتُدرك بأنّها سوف تنجح في الأمومة. أمّا إليوت فكانت علاقته مع والديه خلافية وقائمة على المواجهة. تُرى أيكون هذا هو سبب جموده وتحفّظه في مسألة الإنجاب؟

مع ذلك، لم تكن إيليتا تشكّ في قدراته على إسعاد طفل. لمرّات عديدة، حينما كانت تذهب لمقابلته في المستشفى، تراه منهمكاً في العمل، فهو جرّاحٌ متخصّص في طبّ الأطفال ويُجيد

التعامل مع مرضاه الصغار. كان صلباً ومتّزناً ولم يكُن مفتقراً للنضوج ولا أنانياً مثل بعض الرجال الذين تراهم يحومون من حولها.

كانت تتصوّره بسهولة في صورة الأب الحنون الذي يُصغي إلى أطفاله. إلى درجة أنّها فكّرت عدّة مرّات في أن تتوقّف عن أخذ حبوب منع الحمل من دون أن تُخبره بذلك لكي تتظاهر بأنّ الأمر قد حدث «تلقائياً» وتضعه أمام أمرٍ واقع، إلّا أنّ قيامها بذلك كان ربّما سيجعلها تشعر بأنّها تحطّم الثقة المتبادلة بينهما.

إذاً، ما هي المشكلة؟

كانت تعرف الكثير من الأشياء عنه: التزامه وإيثاره وذكاءه ورائحته ومذاق بشرته ومسار عموده الفقري وغمّازته حينما يضحك...

لكن أليس هناك دائماً تفصيلٌ ما يفوتنا عند منْ نحبّ؟ أوَليس هذا الجانب المجهول هو الذي يُديم الحبّ؟

على أيّ حال، كانت متأكّدة من أمرٍ واحدٍ على الأقلّ ألا وهو أنّ شريك حياتها ووالد أطفالها المستقبليين سيكون هو وليس سواه. وهذا الطفل سوف تنجبه منه أو لن تنجبه أبداً.

***

سان فرانسيسكو

1976

عاد إليوت، بسيارته الخنفساء، إلى بيته عابساً. لم يقُد سيارته هذا المساء بالسرعة القصوى. لقد حارب من أجل الحياة وانهزم. لم يكن إلهاً وإنّما مجرّد طبيب صغير تافه. هبط الليل تدريجياً وانبعثت أضواء ومصابيح السيارات معاً. كان الطبيب متعباً ومزعزعاً، فاستعرضَ في ذهنه شريط الأحداث لليومين الأخيرين من

خلافه مع إيلينا ولقائه في المطار في الليلة السابقة مع ذاك الرجل الغريب وأنابيل الصغيرة تلك التي عجز عن إنقاذها.

لماذا يشعر على الدوام أنّه لا يستوعب حياته؟ وأنّه لا يسيطر عليها فعلاً؟

غارقاً في أفكاره، وصل متأخّراً بعض الشيء إلى تقاطع شارعَي فيلمور ويونيون. بينما نحت سيارته قليلاً نحو الرصيف، شعر بما يشبه صدمة تبعَها ضجيجٌ عالٍ.

هل انفجر أحد الإطارات؟

أوقف المحرّك وخرج من قمرة السيارة ليقوم بمعاينة إطارات سيارته ومن ثمّ مصدّها الأمامي.

لا شيء.

كان على وشك أن يواصل طريقه حينما سمع ما يشبه أنيناً، أنينٌ حزين على الرصيف المقابل.

رفع رأسه ليرى كلباً صغيراً وقد قذفت به الصدمة إلى الجانب الآخر من الطريق.

تنهّد قائلاً: **هذا ما ينقصني...**

عَبَرَ الشارع باتجاه الحيوان، وهو كلب من فصيلة اللابرادور ذو شعرٍ صوفيّ اللون، كان مطروحاً على جنبه وقد تقوّس قائمه الأمامي الأيمن.

صرخ في الجرو وكلّه أمل ألّا يكون قد جرحه:

- **هيّا، تحرّك!**

ولكن الكلب لم يتحرّك قيد أنملة.

هدّد الكلب وقد أرفق تهديده بحركة تومئ بأنّه سيركله بقدمه:

- اغرب عن وجهي!

مرّة أخرى، أطلق الكلب صرخة مخنوقة نابعة عن ألم واضح. كان قائمه المصاب يُعيق حركته، لكنّ إليوت لم يبدِ أيّ تأثّر لذلك. لم يكن أبداً ميّالاً للحيوانات، وإنّما كان اهتمامه منصبّاً على البشر: الرجال، النساء، الأطفال، الشيوخ... كلّ المرضى الذين يعالجهم في المستشفى... أمّا الحيوانات...

هزّ كتفيه وأدار ظهره للكلب اللابرادور. سوف لن يُضيّع المزيد من الوقت مع هذا الكلب المغفّل.

عاد إلى سيارته وأدار مفتاح التشغيل معكّر المزاج.

بالتأكيد لو كانت إيلينا في مكانه لما غادرت مثل لصّ وإنما كانت ستعالج الكلب، متأثّرةً، ومن ثمّ تجهد لكي تعثر على صاحبه.

بالتأكيد، إيلينا...

كما لو أنّها جالسة إلى جانبه في مقعد السيارة، كاد أن يسمعها وهي تهمس: «مَن لا يحبّ الحيوانات لا يحبّ حقّاً الناس».

قال في نفسه وهو يهزّ رأسه: كلّ هذا مجرّد هراء! ولكن مع ذلك أوقف سيارته بعد عشرين متراً وعاد أدراجه مشياً على القدمين على مضض. كانت هذه المرأة تؤثّر عليه حتى وهي على بُعد أربعة آلاف كيلومتر منه!

قال وهو يضع الكلب على المقعد الخلفي:

- هيّا يا عزيزي، سنعالج كلّ هذا.

* * *

وصل إليوت بارتياح إلى المارينا. كانت سلسلة المساكن الممتدّة على طول الشاطئ تمزج بسعادة عناصر معمارية من حقب وتقاليد مختلفة. تجاور منازل محصّنة بأبراجٍ صغيرة منازل أكثر حداثة، مبنية بالكامل من الزجاج والفولاذ، لكي تفضي -بسحر ما-

إلى مجموعة غير متناظرة ولكن مليئة بالتناغم والانسجام من المساكن.

كان الليل قد خيّم تماماً والرياح تهبّ بشدّة. على الواجهة البحرية، على طول الشريط العشبي، كان شخصٌ له هيئة الهيبيين يتسلّى برفع طائرة ورقية مزيّنة بمصابيح صغيرة في السماء.

ركَنَ الطبيب سيارته أمام مدخل بيته وحمل الجرو بحرصٍ وحذر لكي يُخرجه من السيارة. محمّلاً بهذا «الطرد» المتحرّك، توجّه نحو بيتٍ جميل من الطراز المعماري المتوسّطي.

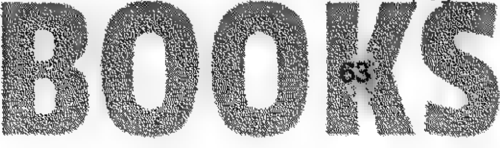
أدار إليوت المفتاح ودخل إلى الشقّة التي اشتراها بالأموال التي ورثها. كان المكان لانمطياً، فالمنزل عمره حوالي خمسين عاماً ولكن جرى تجديده بالكامل من قبل المهندس المعماري جون لوتنر، المختصّ في المنازل المستقبلية التي تستمدّ إلهامها من أعمال الخيال العلمي.

ضغط إليوت على قاطع الكهرباء وتلوّن داخل المنزل بنورٍ أزرق ومتموّج يشبه انعكاس أمواج البحر.

ثمّ وضع الكلب الصغير من فصيلة اللابرادور على الأريكة وأمسكَ بحقيبته الطبية وبدأ بمعاينة الكلب. ما عدا جرحٍ صغيرٍ مفتوحٍ في قائمه، لم يكن الجرو يعاني سوى من بعض الكدمات. والغريب في الأمر أنّ الكلب لم يكُن يحمل في رقبته طوقاً وكان يُلقي عليه نظرات مريبة.

- اسمع يا راستاكوير(*)، أنت لا تحبّني وهذا شعورٌ متبادَل،

(*) راستاكوير (Rastaquouère): مصطلح يعني حديث النعمة، أطلقه إليوت اسماً على الكلب. (المترجم)



ولكن هذا لا يمنع من أنّك محتاجٌ إليّ، وبالتالي عليك أن تبقى هادئاً تماماً إذا أردتَ أن أعالجك. . .

بعد هذا التحذير، عقّم الجرح وانهمك في إعداد ضمادة.

هتف بالكلب وهو يبتعد عن الأريكة:

- حسناً، استرِحْ هذه الليلة وغداً، هنا في زريبة الكلاب!

عبَرَ الصالون والمكتبة قبل أن يصل إلى المطبخ. كانت هذه الفسحات الثلاث تتقاسم الصالة الفسيحة نفسها التي تطلّ على حديقة داخلية تنتصب فيها شجرة أرز صفراء من ألاسكا تمّ إبرازها بمهارة من خلال لعبة الإنارة.

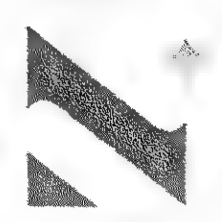
أخرج إليوت من الثلّاجة زجاجة مفتوحة من النبيذ الأبيض وصبّ منها كأساً راح يشربه في الطابق العلوي. هناك، خلف نافذة زجاجيّة مزدوجة، يمتدّ سقفٌ على الشرفة على شكل جسرٍ عائمٍ يُعطي الانطباع بالارتماء في المحيط.

جلس الطبيب، وكأسه في يده، على أريكة من الخوص واستسلم للريح التي هبّت على وجهه.

باختصار، مرّت صورة وجه أنابيل رومانو في ذهنه.

قال في نفسه وهو يُغمض عينيه: يا له من يومٍ لعين.

في تلك اللحظة، لَمْ يستطِعْ أن يتخيّل سوى أن ذاك النهار سوف لن ينتهي.



4

واحتفظ بأحلامك، (. . .). لا يمكنك قط أن تعرف متى ستحتاج إليها.

كارلوس رويز زافون

سان فرانسيسكو

سبتمبر 2006

إليوت في سنّ الستين

كان الليل قد خيّم منذ وقتٍ طويل حينما وصل إليوت إلى المارينا. ركن سيارته في الممرّ ودخل إلى المنزل الجميل ذي الطراز المعماري المتوسّطي الذي يقيم فيه منذ ثلاثين عاماً. ما أن دخل إلى المنزل، أدار فاصلٌ آلي الإضاءة في الداخل بطريقة تلقائية: ضوءٌ مائلٌ للأزرق متموّج يعطي الانطباع بأنّ الغرفة تسبح وسط انعكاس الأمواج.

عَبَرَ الطبيب صالون الاستقبال والمكتبة قبل أن يصل إلى المطبخ. منذ سفر ابنته إلى نيويورك، كان البيت فارغاً وهادئاً. كان راستاكوير، كلبه العجوز من فصيلة اللابرادور قد مات منذ اثنتي عشرة سنة ولم يحلّ أيّ حيوانٍ محلّه. أخرج إليوت من الثلاجة قارورة نبيذ أبيض وصبّ لنفسه كأساً منها. بسبب الألم المنتشر في

كليتيه، صعد بصعوبة درجات السلّم المعدني المؤدّية إلى الطابق العلوي. توقّف لبضع ثوانٍ في غرفته وفتح درج الطاولة بجانب سريره لكي يأخذ عبوة الأقراص التي لم يكفّ عن التفكير فيها طيلة النهار. ثمّ خرج إلى الحديقة في الشرفة التي تمنح إطلالة واسعة على ميناء المراكب والشَرْم السياحي.

استعاد بسرور الهدير الليلي المألوف القادم من المزار السياحي ويف أورغان، وهو بناءٌ عجيب على حافة الرصيف البحري يُصدر أصواتاً عشوائية على إيقاع الأمواج التي تندفع في تجاويفه.

قال في نفسه وهو جالسٌ في أريكته القديمة المصنوعة من الخوص: إنّ شيئاً كهذا لا يمكن أن يكون موجوداً إلّا في سان فرانسيسكو.

جعلته الرياح التي تداعب وجهه أن يرتعش. ومثلما فعل في الصباح نفسه، نظر إلى الأقراص التسعة في العبوة بمزيجٍ من الإغراء والريبة.

لم يكن يعلم على الإطلاق ما تحتويه تلك الأقراص، ولكنّه رغبَ بشدّة في أن يكرّر من جديد تجربة الليلة السابقة. في الحقيقة، لم يكن يتوهّم: لم يكن وجود هذه الأقراص في منامه في الليلة السابقة عن عبث.

مهما يكن، لن يخفّف ذلك من رغبته الجامحة في إعادة التجربة...

أسقط ببطء واحدة من الأقراص في راحة يده وراودته لحظة أخيرة من التردّد.

وماذا لو كانت عبارة عن سمّ أو واحدة من تلك الفضلات الغريبة التي قد تؤثّر ذهنه؟

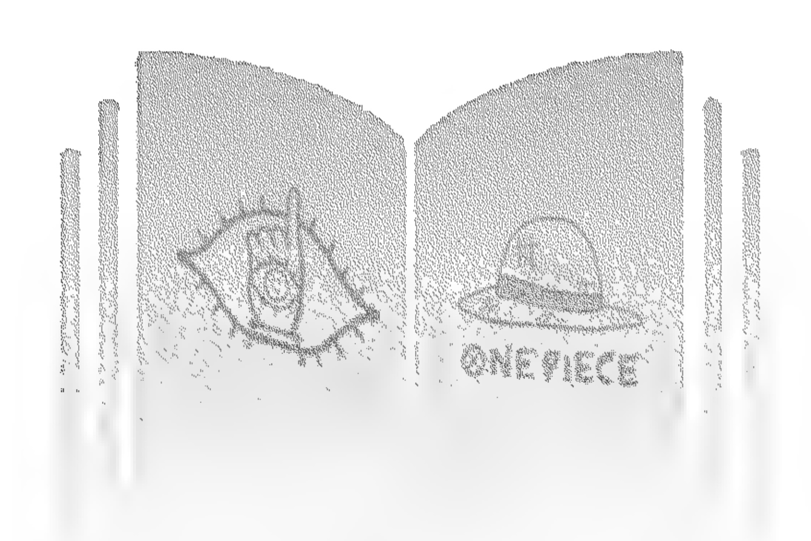
من الممكن أن يكون كذلك، ولكن ما الخطر الذي يشكّله ذلك عليه حقّاً؟ مهما يكن، سوف ينال منه السرطان عمّا قريب.

قال في نفسه وهو يبتلع القرص مع رشفةٍ من النبيذ: **عاجلاً قليلاً أو آجلاً قليلاً...**

في البداية، لم يحدث أيّ شيء. سعل على نحوٍ أقوى في أريكته وانتظر. جعله المرض يشعر بأنّه شائخٌ ومنهك.

أعاد في ذهنه شريط الأحداث للساعات الأخيرة، وهو يُفكّر في قراره المفاجئ والمؤلم بالتوقّف عن إجراء العمليات الجراحية بدءاً من نهاية الشهر.

قبل أن يُغمِضَ عينيه وينام، قال في نفسه: **يا له من يومٍ لعين.**



5

اللقاء الثاني

أفضل برهان على أنّ السفر عبر الزمن غير ممكن هو أنّه لم يتم غزونا من قِبَل قطعان سُيّاح المستقبل.

ستيفن هوكينغ

سان فرانسيسكو
سبتمبر 1976
إليوت في سنّ الثلاثين

إذاً، هل استرخينا؟

فتح إليوت عينيه فجأة ووثب لاإرادياً لدرجة أنّه سقط من الأريكة أرضاً. رفع عينيه إلى السماء، وأنفه ممرّغٌ في التراب، لاحَ له شبحٌ غير شفّاف تحت بريق النجوم، إنّه شبح الرجل الذي التقاه في الليلة السابقة في المطار. كان هذا الأخير، وقد صالب ذراعيه على صدره، ينظر إليه مع ابتسامة خفيفة، مستمتعاً على نحوٍ واضح بالخدعة التي يلعبها.

صرخ الطبيب الشابّ غاضباً:

- ماذا تفعل على شرفتي؟

ردّ عليه زائره الغريب:

- بيتكَ، هو بيتي...

نهض إليوت، ممزّقاً بين المفاجأة والغمّ، بغضبٍ واندفاع. مشدِّداً على قبضته، تقدّم نحو محدّثه وخلال بضع ثوانٍ، استكانَ الرجلان للصمت. كان لهما طول القامة نفسه تماماً.

سأل إليوت مهدّداً:

- هل يمكنني أن أعرف ماذا تفعل؟

تحاشى الآخر السؤال وهو يردّ بهدوء:

- لا تُريد أن تفهم، أليس كذلك؟

- لا أفهم ماذا؟

- الحقيقة...

- وما هي الحقيقة؟

- الحقيقة هي أنّني أنت.

- الحقيقة هي أنّك مجنونٌ ينبغي ربطه!

- وأنت، أيّها الصبي، بطيء الفهم قليلاً.

نظر إليوت بتركيزٍ أكبر إلى الرجل الذي يقف أمامه

هذه المرّة، لم يكن يلبس تلك المنامة المجعّدة التي كان يرتديها في الليلة السابقة، وإنّما سروالاً من القماش وقميصاً نظيفاً وسترة حسنة التفصيل، الأمر الذي جعله يحظى بالحضور وبعض الكاريزما. باستثناء أقواله المشوّشة، كان يشبه رجل أعمال أكثر منه نزيل مستشفى المجانين.

استخدم إليوت صوته الأكثر إقناعاً في محاولةٍ لإعادته إلى جادة الصواب.

- اسمَعْ، أعتقد أنّك تعاني من مرضٍ ما. ربّما هناك طبيبٌ يُتابع حالتك و...

- أنا الطبيب.

قال إليوت في نفسه وهو يحكّ رأسه: **لقد عدنا إلى نقطة البداية.** ماذا كان يُفتَرَضُ به أن يفعل في هكذا حالة؟ أن يطلب الشرطة؟ أن يطلب سيارة إسعاف؟ أن يطلب النجدة الخاصّة بالمجانين الهائجين؟ من الناحية الظاهرية، لم يكن ذاك الرجل عنيفاً، ولكن قد يصبح كذلك.

- لا شكّ أنّ ذويك قلقون بشأنك، لو تُخبرني عن اسمك، يمكنني العثور على عنوانك واصطحابك إلى بيتك.

أجاب الآخر بهدوء:

- اسمي إليوت كوبر.

- هذا مستحيل.

- ولماذا؟

- لأنّ إليوت كوبر هو أنا.

اقترَحَ عليه الرجل العجوز وهو يُخرج محفظته من جيبه:

- هل تُريد أن ترى أوراقي الثبوتية؟

كان كلّ ذلك يُسليه ويُبهجه.

عاينَ إليوت الوثيقة التي قُدِّمَت له ولم يُصدّق عينيه: ظهر على البطاقة الشخصية اسمه نفسه وتاريخ ميلاده! الصورة فقط كانت تختلف بثلاثين سنة إضافية.

حاول أن يُطمئن نفسه، فقال في سرّه: هذا لا يعني أيّ شيء، إذ يمكن لأيّ كان أن يستخرج أوراقاً ثبوتية مزوّرة. ولكن مَن ذا الذي سيكلّف نفسه عناء ذلك، وبأيّ غرض؟

لدى التفكير العميق في الأمر، لم يستطِعْ أن يَخرج سوى بتفسيرٍ وحيد: كلّ هذا ليس سوى مقلبٍ مدبّر من قِبل مات. تمسّك لبضع ثوانٍ بهذه الفكرة، من دون أن يستطيع الاقتناع بها تماماً. بالتأكيد، لم يكن مستبعداً أن يعدّ مات هذه المزحة، فهو صاحب مزاجٍ غريب الأطوار، ولكن مع ذلك، لا يمكن أن يصل به الأمر إلى هذه الدرجة. وحتى إذا أراد أن يمزح معه، ما كان ليختار هذا التدبير الذهني الذي يتطلّب تركيزاً شديداً، وإنّما كان على الأرجح سيَضرب تحت الحزام.

قال إليوت في نفسه: **لكي يدبّر لي مقلباً، مات من النوع الذي يُرسل إليّ مجموعة من راقصات التعري أو فتاة منادمة عبر الهاتف جميلة، لا رجلاً على حافّة الستين من العمر يدّعي بأنّه أنا.**

غارقاً في التفكير، لاحظ إليوت متأخراً جدّاً أنّ الرجل قد اقترب منه كثيراً. أصبح وجهه أكثر خطورةً. أمسك بذراعه وحدّق فيه.

- اسمع أيّها الصبي، يمكن لما هو بهذه الغرابة أن يحدث، لقد وجدتُ حقّاً وسيلة للعودة ثلاثين عاماً إلى الوراء.

- بالطبع.

- يجب عليك أن تصدّقني، اللعنة!

- ولكن ما تقوله لي ليس له أيّ معنى!

- إذا كان ليس له أيّ معنى، فسّر لي إذاً كيف استطعتُ أن أخرج من مرحاض المطار دون أن تراني؟

احتار إليوت في الردّ عن هذا السؤال.

ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الرجل قد يكون مجنوناً ولكن لديه سُرعة بديهة مذهلة.

استأنف حديثه:

- يا سيّد. . . لكنّ الآخر قاطعه:

- دعك من كلمة السيّد، هل تمانع؟

في تلك اللحظة، سُمِعَ نُباح وأنين حزينين عبر النافذة الزجاجية. خَفَضَ الطبيب عينيه ولاحظ حركة مباغتة. وحده الله يعلم كيف نجح اللابرادور الصغير في أن يُجرجر نفسه إلى الطابق العلوي وعلى الرغم من جرحه، كان يقفز بمرح ليُعلن عن حضوره.

صاح الرجل كما لو أنّه رأى شبحاً:

- راستاكوير!

بفرحٍ غامر، هرع الكلب نحوه وارتمى بين ذراعيه وأخذ يلعق يديه ويشمّ كلّ أنحاء جسده، كما لو كان الأمر يتعلّق بطقوسٍ بينهما.

سأل إليوت وقد أصبح أكثر استرخاءً:

- هل سبقَ لك ورأيت هذا الجرو؟

- بالطبع، هذا جروي!

- جروك؟

- جرونا.

كان حديثه هذا يستفزّ إليوت ويُخرجه عن طوره! كان هذا الرجل يضربه الآن على جهازه العصبي، ولكن للتخلّص منه، ربّما كان عليه أن يجرّب تكتيكاً مختلفاً كأن يتظاهر بأنّه يُصدّق مزاعمه.

ولذلك صمتَ لبضع ثوانٍ ثمّ سأل بطريقة في غاية الجدّية:

- إذاً، حقّاً أنت قادمٌ من المستقبل؟

- يُمكننا أن نرى الأمور بهذه الطريقة.

تظاهر إليوت بأنّه قد وافق على رأيه، ثمّ خطا بضع خطوات

ليذهب إلى الشرفة ويتّكئ بمرفقيه على حافّتها. ومن هناك، أخذ يُعاين الشارع كما لو أنّه يبحث يائساً عن شيءٍ ما.

قال بعد مضيّ برهة من الوقت:

- إنّه لشيءٌ غريب أن لا أرى سيارتك التي سرتَ فيها عبر الزمن. هل ركنتها في الشارع أم في صالون بيتي؟

لم يستطِعْ الرجل أن يكتم ابتسامة خفيفة:

- أجل، هذه حلوة منك. ألم تفكّر يوماً ما في أن تكون ممثلاً؟

ردّاً على ذلك، وضع إليوت النقاط على الحروف:

- اسمع، يا عزيزي، أنا لا أعرفك ولا أدري من أين أتيت، لكنني أعتقد أنّك لستَ خرفاً بقدر ما توحي به أقوالك. في الحقيقة، أنا متأكّدٌ من أنّك تمثّل مسرحية هزلية.

- وبأيّ هدف؟

- لا أعرف أيّ شيء عن ذلك على الإطلاق، ولأكون صادقاً معك، لا آبه لذلك أبداً. كلّ ما أريده الآن هو أن تغادر منزلي وأحذّرك بأنّ هذه آخر مرّة أطلبُ منك ذلك بلطف.

- اطمئن، سوف لن أطيل البقاء.

ولكن بدل أن يهمّ بالرحيل، جلس في الأريكة المصنوعة من الخوص وأخذ ينبش جيبه بحثاً عن سجائره: كانت علبة باللونين الأحمر والأبيض مع اسم ماركة شهيرة مكتوب باللون الأسود.

لاحظ إليوت بأنّها الماركة نفسها التي يُدخّنها ولكنّه لم يُبدِ اهتماماً بذلك: كانت ماركة كاوبوي من أكثر الماركات شعبية.

استأنف الرجل كلامه وهو ينفث حلقة من الدخان ويضع ولّاعته أمامه:

- اسمع، أنا أفهم تماماً أنّك لا تصدّقني، فمع مرور الزمن،

يفقد المرء تدريجياً يقينه، لكنني أتذكّر حقيقتي حينما كنتُ أصغر عمراً: رجلٌ علمٍ لا يكترثُ إلّا بالعقلانية.

- والآن أنت ماذا؟

- رجلٌ مؤمن.

هبّت نسمة رياحٍ خفيفة على الشرفة. كانت ليلة جميلة من ليالي بداية فصل الخريف. في أزمنة التلوّث البيئي هذه، تبدو السماء صافية بشكلٍ غير طبيعي ومرصّعة بآلاف النجوم الساطعة والبدر المنير والقريب الذي يشعّ بضوءٍ مائلٍ إلى الزرقة. مستغرقاً في عذوبة تلك الليلة المقمرة، أنهى الرجل سيجارته قبل أن يسحق عقبها في المنفضة أمامه.

- ربّما حان الوقت لكي تتقبّلني بما أكون، يا إليوت: أنا حليفُك.

- شخصٌ مزعج، هذا هو أنت.

- ولكن، شخصٌ مزعج يعرف عنك كلّ شيء.

أقرّ الطبيب بذلك:

- بالتأكيد: أنت تعرف كلّ شيء عنّي لأنك أنا. هذا ما تهذي به! ولكن ماذا تعرف حقّاً عني؟ ماركة سجائري وتاريخ ميلادي.. وماذا بعد؟

استسلم إليوت للغضب لأنه أحسّ بالخوف، فقد كان يشعر في قرارة نفسه بأنّ معادلة القوّة قد انقلبت وأنّ الرجل لم يكشف آخر أوراقه بعد. وكما لو أنّ هذا الأخير يؤكّد له ذلك، قال بصوتٍ أجشّ:

- أنا أعرف أموراً لم تُخبر بها أحداً، ولا حتّى صديقك الأقرب والأوفى، ولا حتى المرأة التي تشاركك حياتك.

- مثل ماذا؟
- أمورٌ لا ترغب في سماعها.
- هيا، أتحفنا، لنرى. ليس لديّ ما أخفيه.
- هل تراهن؟
- عن ماذا تُريد أن نتحدّث؟
فكّر الرجل للحظة ثمّ اقترح عليه:
- هل تريد أن نتحدّث عن والدك؟
أغاظه السؤال ووقع عليه مثل صفعةٍ ما كان يرغَب في أن يتلقاها.
- وما شأن والدي في هذا الموضوع؟
- حتى وإن لم يشأ أن يقرّ بذلك، كان والدك مدمناً على الكحول، أليس كذلك؟
- هذا ليس صحيحاً!
- بالتأكيد بلى. في نظر الناس، كان رجلَ أعمالٍ محترماً، زوجاً محبّاً وربّ أسرة صالحاً، ولكن في حياته الأسرية الخاصّة، بالنسبة إلى أمّك ولك، كانت المسألة مختلفة، أهذا صحيح؟
- أنت لا تعرف أيّ شيء عن ذلك.
- الأفضل أن تقرّ بأنني أعرف ذلك. لقد هدأ قليلاً حينما تقدّم به العمر، لكن حينما كنتَ طفلاً صغيراً، كان يضربك بقسوة أحياناً، هل تتذكّر ذلك؟
ولأنّ إليوت ظلّ صامتاً، واصلَ الرجل حديثه:
- كان ذلك يحدث له في بعض الليالي، بعد أن يفرغ عدّة قوارير. حينما كان يُفرط في الثمالة كان يهتاج ويستشيط غضباً ولا يهدّئه سوى الضرب...

مثل ملاكمٍ محاصَرٍ بحبال الحلبة، تلقّى إليوت الكلمات دون أن يتحرّك حيالها.

- لوقتٍ طويل، تركتَ هذا يحدث. بل أحياناً كنت تستفزّه، أليس كذلك؟ لأنّك كنت تعلم بأنّه حينما ينهال عليك بالضرب بما فيه الكفاية، لم يكن لينقضّ على والدتكَ.

صمت الرجل لبضع ثوانٍ قبل أن يسأل:

- هل تريدني أن أكمل؟

- اغرُبْ عن وجهي، اذهَبْ إلى الجحيم!

انحنى نحو الطبيب الشابّ وهمس في أذنه، كما لو أنّه يبوح له بسرّ:

- لدى عودتك من المدرسة، بعد ظهيرة أحد الأيام، حينما كنت في العاشرة من عمرك، وجدتَ أمّك مقطوعة الشرايين وتنزف في حوض الحمّام...

انفجر إليوت غاضباً أمسك بياقة سترة الرجل وصاح به:

- أيّها الوغد اللعين.

لكنّ الرجل أكمل بهدوء ومن دون اضطراب ما لديه:

- وصلتَ في الوقت المناسب تماماً لتُنقذها. اتّصلت هاتفياً لكي تطلب النجدة، لكنّها طلبت منك بأن تَعِدها بألّا تبوح بأيّ شيء حول الحادثة وهذا ما فعلتَه. لقد ساعدتها في كسر زجاج قمرة رشّاش الماء وأخبرَت المسعفين بأنّها قد جُرِحَت بسبب انزلاقها على الأرضية المبلّلة. بقي هذا السرّ دفيناً معك. لم يعرف أحدٌ عنه شيئاً.

أصبح الآن الرجلان يقفان وجهاً لوجه ويحدّقان في عينَي بعضهما. أُصيب إليوت في الصميم. لم يكن يتوقّع هذا الإفشاء

لأسرار عائلية. ليس هذا المساء، ولا بهذه الطريقة، كانت تلك الذكريات دفينة وتكاد تكون مكبوتة، ولم تُنسَ بعد.

كانت ذكريات مؤلمة.

- في البداية، اعتقدتَ بأنّك أحسنتَ التصرّف، إلى أن ألقَت والدتك، بعد مضي عامين على ذلك، بنفسها من الطابق الثاني من عمارتكم.

عند كلّ كلمة من كلمات الرجل، كان إليوت يتلقى ما يشبه لكمة.

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، رغبَ في أن يبكي. أحسّ بأنّه ضعيفٌ ويكاد ينفجر في مكانه.

- منذ ذلك الحين، لا تستطيع أن تمنع نفسك من الاعتقاد بأنّك تتحمّل قسطاً من المسؤولية في عملية انتحارها، وبأنّ الأمور ربّما كانت ستسير على نحوٍ مختلفٍ لو أنّك قلتَ الحقيقة. لأنّها ربّما كانت ستتلقى دعماً نفسياً أو علاجاً آخر في عيادة طبية. هل أتابع؟

فتح إليوت فمه لكي يحتجّ ولكنّه لم يتفوّه بكلمة.

ورغم أنّ التأثّر قد بدا على الرجل أيضاً إلّا أنّه استأنف غوصه في مياه الحقيقة المحفوفة بالمخاطر. لقد باح بكشفه الأخير الذي وجّهه مثل ضربة قاضية:

- أنت تقول لمن يريد أن يسمع ذلك بأنّك لا ترغب في إنجابِ طفلٍ لأنّ العالم الحالي شرّير وأنّ المستقبل يبدو غامضاً ومبهماً، ولكن ليس هذا هو السبب الحقيقي، يا إليوت...

قطّب الطبيب الشابّ حاجبيه. في هذه اللحظة، هو بنفسه كان يجهل إلى أين يريد محدّثه أن يصل.

- أنت لا تُريد طفلاً لأنّك لا تزال تعتقد أنّ والديك لم يكونا

يحبّانك. واليوم، تخشى بدورك ألّا تكون قادراً على أن تحبّ طفلك. إنّه لأمرٌ غريب كيف يشتغل العقل البشري، أليس كذلك؟

لن ينفِ إليوت ذلك. ها قد كانت ثلاث دقائق كافية لرجلٍ لم يسبق له أن التقاه لينسف يقينياته ويجعله يشكّ في كلّ شيء. كلّنا لسنا سوى حفنةٍ بائسة من الأسرار.

هبّت موجة أقوى من الرياح على الشرفة. رفع الرجل ياقته واقترب من إليوت ووضع يده على كتفه، كما لو أنّه يُريد أن يريحه.

صرخ فيه الطبيب الشاب:

- لا تلمسني!

ابتعدَ إليوت عنه نحو سور الشرفة. كان يشعر بالاختناق ويحتاج إلى استنشاق الهواء ويزدحم كلّ شيء في رأسه. شعر أنّ ثمّة أمرٌ جوهريٌّ لا يستوعبه ألا وهو الهدف الحقيقي لإفشاء هذه الأسرار.

قال وهو يحدّق في زائره الملغز:

- إذا أقررتُ أنّ كلّ هذا صحيح، ماذا تنتظر منّي؟

هزّ الرجل العجوز رأسه.

- لا أنتظر أيّ شيءٍ منك، أيّها الصبي، آسفٌ على أنني أخيّب أملك، لكنني لستُ هنا من أجلك.

- ولكن، إذاً...

- إذا كنتُ قد عدتُ فذلك لكي أراها، هي...

أخرَجَ من جديد محفظته من جيبه، ولكن هذه المرّة أعطى لإليوت صورة ذات ألوانٍ حائلة.

صورة شخصية لإيلينا في سنترال بارك وهي تقذف كرة ثلج، مشرقة الوجه ومحمرّة الوجنتين. كانت صورته المفضّلة وقد التُقِطَت في الشتاء الماضي ومنذ ذلك الحين، لم تُبارح محفظته.

- كيف حصلتَ على هذه الصورة؟ إن اقتربتَ من إيلينا مرّة واحدة، سوف أحطّم وجهك حتى...

نهض الرجل دون أن ينتظر نهاية هذا التحذير. كما لو أنّ اللحظة قد أتت بالنسبة له لكي يأخذ استراحة، داعبَ رأس الكلب وخطا بضع خطوات نحو النافذة الزجاجية. وهنا لاحظ إليوت بأنّه بدأ يرتعش بالتشنّجات نفسها التي أصابته في الليلة الماضية في المطار، تماماً قبل أن يختفي.

هذه المرّة، سوف لن يدَعه يرحل بهذه الطريقة!

هرع نحوه ليُمسك به، ولكن... فات الأوان. كان الآخر قد غادر الشرفة وأغلق المصراع المنزلق للباب من ورائه.

صاح الطبيب وهو يضرب بعنفٍ الباب الزجاجي الذي يمتدّ على طول الشرفة:

- افتَحْ هذا الباب اللعين!

بفضل مادة لزجة مشعّة، كان الزجاج يصطبغ عند حلول الليل بلون أخضر صُمّم بطريقة متميّزة. كان هذا الاختراع الهندسي المعماري يحوّل الزجاج إلى نوعٍ من المرآة من دون استخدام القصدير. عالقاً في الشرفة، كان إليوت على الجانب الخطأ من الزجاج: الجانب الذي لا يسمح له بأن يرى وإنّما يُرى فقط.

صرخ من جديد:

- افتَحْ!

ساد صمتٌ، ثمّ غمغم الصوت من خلف الباب:

- لا تنسَ ما قلته لك: أنا حليفك، لا عدوّك.

ما كان عليه أن يدع هذا الرجل يغادر. أصبح الآن يُريد أن يعرف منه المزيد. وعندما نفدَت الحلول، أمسك بكرسيّ معدني

وضرب به بكلّ ما أُوتي من قوّة الباب الزجاجي الذي تحطّم وتبعثر قطعاً صغيرة مشعّة. اندفع إلى داخل المنزل ونزل السلالم وجالَ على كلّ الغرف وخرج حتى إلى الشارع.

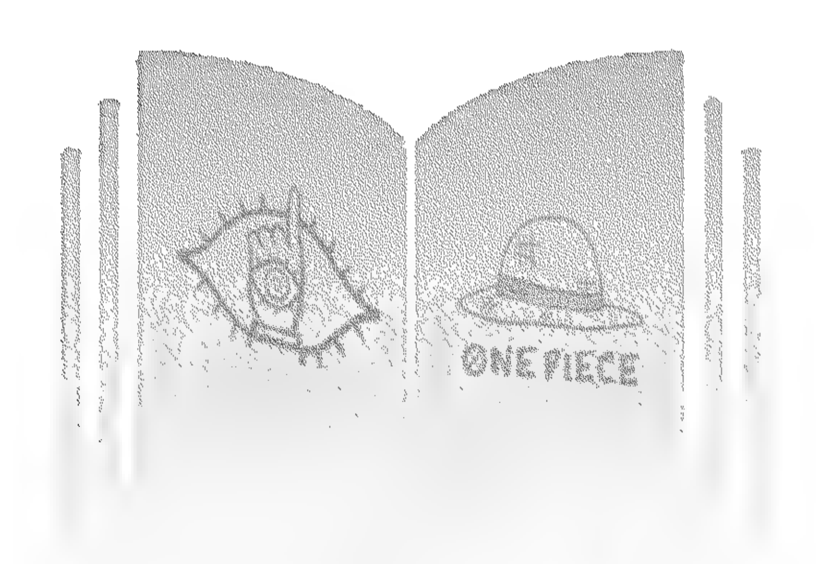
لا أحد.

حينما عاد إلى الشرفة، كان اللابرادور الصغير، حزيناً وجامداً في مكانه مثل الحجر، ينبحُ باتجاه العتمة.

قال وهو يأخذ الكلب بين ذراعيه:

- سيكون الأمر على ما يُرام، لقد انتهينا منه.

ولكن في قرارة نفسه، كان مقتنعاً بعكس ما صرّح به. لم يكن ذلك سوى بداية المتاعب.



6

كم أتمنى أن تتذكّري الأيام السعيدة
التي كنّا فيها أصدقاء.
في ذلك الوقت، كانت الحياة أكثر
جمالاً والشمس أكثر إشراقاً من اليوم.
جاك بريفير - جوزيف كوسما

1976

إليوت في سنّ الثلاثين

سار إليوت، وهو يتأبّط كلبه، نحو سيارته. كان لا بدّ أن يروي لصديقه مات ما حدث معه. فكّر للوهلة الأولى أن يتّصل مع إيلينا، ولكنّه أغلق سمّاعة هاتفه قبل أن تردّ عليه. كيف سيشرح لها الأمور من دون أن يُحدِثَ قلقاً ومخاوف؟ فضّل أن يعرف المزيد عمّا يحدث معه قبل أن يُشغل بالها.

فتح باب سيارته الخنفساء وأجلَسَ رفيقه الجديد في المقعد المجاور له. بدأ يتعلّق باللابرادور الصغير الذي بدا هو الآخر مضطرباً بسبب المغامرة الغريبة التي حصلت.

غادر إليوت المارينا لكي يذهب إلى الشارع الإيطالي. كان الليل قد تأخّر وأصبحت حركة السير خفيفة وسَلِسَة. دخل إلى شارع

لومبارد وعَبَرَ المنعطفات الثمانية الحادّة التي تمنحه لقبه بكونه الشارع الأكثر وعورة في العالم. كان المعبر جميلاً جدّاً ومدهشاً ولا يتناسب مع سمعته، ولكن، في تلك الليلة، كان لدى إليوت الكثير من الهموم والانشغالات، الأمر الذي جعله يسير بسيارته على الأزهار والمصابيح على جانبَي الطريق.

عبَرَ حي نورث بيتش بسرعة كبيرة مستعجلاً الوصول، ومرّ أمام البرجين المزدوجين للكاتدرائية الإيطالية -التي تزوّجت فيها مارلين مونرو من جو دي ماجيو قبل عدّة سنوات خلت- لكي يصل إلى قمّة تلّة تيليغراف هيل.

الشوارع المنحدرة في سان فرانسيسكو حقيقة وليست أسطورة. ما أن وصل إلى أعلى الرابية، ناور لكي يوقف سيارته بطريقة مائلة، موجّهاً العجلات نحو داخل الرصيف كما يقتضي نظام البلدية.

قال للكلب آمراً:

- حسناً، أنت ستبقى هنا.

أنّ الكلب متذمّراً، لكن الطبيب لم يستسلم للإشفاق عليه

حسم الأمر وهو يصفق باب السيارة:

- أنا آسف، ولكن هذا غير قابل للتفاوض.

دخل في ممرّ ضيّق وسط أشجار الكينا ونزل مسرعاً الدرجات المزيّنة بالزهور إلى جانب تيليغراف هيل. كان المكان ساحراً وسريالياً، كما لو أنّ قطعة من الريف استُجلبت إلى وسط المدينة الكبيرة. من هذا المكان يُشاهد المرء المدينة عند قدميه وفي الخلفية برج كويت المُنار بنورٍ أبيض. كان الغطاء النباتي الملوّن والمزدهر يوفّر ملاذاً حامياً لحشد من الطيور: بلابل وإناث الببغاء البرية وطيور

محاكية... سلك إليوت السلّم الخشبي الذي يتعرّج وسط نباتات الغار الورديّ والفوشيّة والبوغنفيليا المتسلّقة لكي يصل إلى الأكواخ الصغيرة المزيّنة بطراز تزيين فني، المعلّقة بالرابية. عند منتصف الطريق، وصل أمام بوابة حديقة غير مرتّبة. وككلّ مرّة يأتي فيها إلى هذا المكان، تسلّق السياج ليجد نفسه على مدخل بيتٍ مبنيّ من الخشب المدهون يتصاعد منه صوت أغاني مارفين غاي. كان يهمّ بقرع الباب، ولكن وجده مفتوحاً فدخل من دون استئذان، متلهفاً لإلقاء قلاقله على مسامع صديقه.

هتف وهو يدخل إلى الصالون:

- مات، هل أنت هنا؟ سوف لن تتوقّع قط ما حدث لي...

توقّف فجأةً. لاحظ على الطاولة المنخفضة بالقرب من النافذة كوبين من الشامبانيا موضوعين قرب تشكيلة من المعكرونة. كانت تفوح رائحة بخور هندي ذكية. قطّب إليوت حاجبيه ودخل إلى الغرفة المقابلة ليكتشف زوجاً من الأحذية عالية الكعب بالقرب من المدفأة وحمّالة صدر مرمية على الأريكة وسروالاً داخليّاً نسائياً مخرّماً معلقاً على تمثالٍ صغير. بحسب كلّ الدلائل لم يكن مات لوحده. بل كان يأمل ذلك، لأنّه لو ارتدى هو بنفسه كلّ هذه الألبسة الداخلية، لما عاد يتعرّف عليه! أوشك إليوت على أن يتوارى عن الأنظار وهو يمشي على أطراف أصابع قدميه حينما...

- مرحباً، يا هذا.

التفت كما لو أنّه ضُبط متلبّساً. وقفَت أمامه الفتاة التي التقياها سابقاً على الشاطئ.

تمتم وهو يُدير بصره عنها:

- آه... مساء الخير. أنا آسف على...

سارت برشاقة نحوه وهي طافحة بالمرح والإغراء. قالت بلهجة امرأة لعوب:

- لم يُخبرني مات بأنّك ستكون أيضاً في الحفلة.

- آه كلا، جئتُ فقط لكي...

قاطعه مات وهو يُطوّق خصره بشرشفٍ:

- ماذا تفعل هنا في هذه الساعة المتأخّرة؟

قال إليوت:

- يبدو أنني أزعجتكما.

- فطنٌ، حسبما أرى! دعني مع ذلك أن أقدّم لك تيفاني، إنّها هنا في المدينة لكي تقوم بتجارب الأداء في دور فتاة جيمس بوند.

- سررتُ بلقائكِ.

بادلته تيفاني ذلك بابتسامة لعوب.

التفت إليوت نحو صديقه:

- اسمع يا مات، قد أحتاج إلى مساعدتك...

سأل الشاب الفرنسي قلقاً من فقدان ليلته مع فتاة ساحرة:

- في الحال، وهنا! ألا يُمكن تأجيل ذلك إلى الغد؟

استسلم إليوت، محبطاً:

- أنت محقّ، سوف أتّصل بك غداً. اعذرني على إزعاجي لك.

كان قد خطا بضع خطوات نحو الباب، حينما أمسك مات بكتفه، مدركاً أنّ أمراً مهمّاً يَشغل بال صديقه:

- انتظر، يا صديقي، أخبرني بما حدث لك.

في الطرف الآخر من الغرفة، كانت تيفاني قد لملمت أغراضها

الشخصية بعد أن شعرت بأنّها قد أُهملت وارتأت بأنّ الوقت قد حان لتغادر المكان.

قالت وهي تستكمل ارتداء ملابسها:

- حسناً، يا صبيان، سأدعكما لوحدكما.

قال مات قلقاً وهو يُحاول استبقائها:

- لا، لا، لا، لا، لا! لا تغادري!

أكّدت وهي تغادر المنزل:

- لا تقلق يا عزيزي، فلا أعتقد أن غيابي سيترك فراغاً...

لحق بها مات عبر الحديقة، وهو يُقسم لها بكلّ الآلهة بأنّه متمسّك ببقائها، وحاول أن يحصل على رقم هاتفها، الذي رفضت المرأة الشابّة، المنزعجة من كونها قد أُهمِلَت، أن تُعطيه. ضاعف مات من جهوده عندما هبّت نسمة من المحيط الهادئ ورفعت فجأةً الشرشف الذي كان بمثابة جلبابٍ له. أمسك بأوّل أصيصٍ للزهور وقع تحت يده -كان نباتَ صبّارٍ ذو سوقٍ مسطّحة- وغطّى به نفسه. ركض بمثابرة خلف تيفاني التي كانت، على الرغم من انتعالها لحذاءٍ عالي الكعب، تجري مثل غزالةٍ. انبثق نورٌ في المنزل المجاور وسُمِعَ صوتُ بابٍ يُغلَق.

أطلّت سيّدة عجوز، أيقظها الضجيج، برأسها من النافذة. حينما لمح الوجه المستاء لجارته، تراجع مات على الفور، عاقداً العزم على العودة إلى منزله بأقصى سرعة. كان قد أوشك على أن يصل إلى باب المدخل حينما انزلق على آخر درجة من السلّم وسقط على العتبة، وانغرزت الدرنات الشوكية للصبار في المكان الأكثر حساسية في جسده. صرخ من الألم وأغلق الباب من خلفه قبل أن يرفع إصبع الاتهام في وجه إليوت:

- أتمنى أن يكون لديك هذه المرّة سببٌ وجيهٌ للغاية حتى تحطّمني!

- أنا على وشك أن أجنّ، هل هذا يكفي؟

- إذا كنت تُريد أن تُسعدني، كفّ عن النظر إليّ بهذه الطريقة! وخاصّةً، لا تفتح فمك.

أكّد إليوت وهو يحاول أن يكتم ابتسامة.

- لم أقل شيئاً.

قال مات وهو يدخل إلى غرفته:

- حسناً، أكمل. سوف أرتدي ثيابي وبعد ذلك نتحدّث عن مشكلتك.

لجأ إليوت إلى المطبخ وسخّن الماء لكي يحضّر قهوة. على الرغم من وعده، لم يستطِعْ أن يمتنع عن الصياح بمات:

- إن أردتَ نصيحة، استخدم ملقطاً!

* * *

في البيت الصغير، خمد التوتّر قليلاً. كان مات قد «تعالج» وارتدى بنطال جينز وبلوزة. ولذلك أخذ مكانه نشيطاً وجاهزاً على الطاولة حيث كان صديقه ينتظره.

سأل وهو يقدّم لنفسه فنجاناً من القهوة:

- حسناً، هلا رويت لي ما حدث لك؟

قال إليوت ببساطة:

- لقد عاد.

- دعني أخمّن: تقصد صاحبك المسافر عبر الزمن؟

- نعم، لقد حلّ في منزلي هذا المساء، على شرفتي.

عبس مات وهو يتذوّق شرابه ووضع قطعتَي سكّر في فنجانه.

- هل قال الكلام نفسه؟

- يزعم أنّه أنا، ولكن بزيادة 30 عاماً.

- غريبٌ مثل شبح، أليس كذلك، يا دكتور؟

- في الحقيقة، الأمر مقلقٌ حقّاً: إنّه يعرف الكثير من الأمور عنّي. أمور خاصّة، شخصية جدّاً...

- هل يريد أن يبتزّك؟

- لا أبداً، يؤكّد أنّه جاء لكي يلتقي إيلينا.

- على أيّ حال، إذا صادفتَ مرّة أخرى زميلك المستقبلي، لا تنسَ أن تسأله عن بعض التوقّعات حول النتائج الرياضية القادمة أو تطوّر تعاملات البورصة...

من جديد، عبسَ مات على نحو غريب وهو يرشف رشفةً من قهوته. أضاف إليها ثلاث قطع أخرى من السكّر وجرعةً من الحليب قبل أن يُكمل جملته:

- ... بقصد جني بعض المال بطريقك.

قال إليوت محتجّاً ومنزعجاً:

- أنت لا تُصدّقني، أليس كذلك؟

- أجل، أصدّق أنّ هناك رجلٌ يُضايقك، ولكنني لا أُصدّقُ أنّه قادمٌ من المستقبل.

قال إليوت وهو مطرقٌ في التفكير:

- أتدري ماذا؟ هنا، أنت تُثير قلقي فعلاً. أذكّرك بأنني، في الثنائي الذي نشكّله، أنا المهرّج الغبي...

نهض مات لكي يُلقي محتوى فنجانه في المغسلة وبصق ما في فمه وهو يهمهم:

- قهوتك عبارة عن منقوع جوارب!

ثمّ استأنف تقديم حججه:

- أنا من فِيّ لمسة من الجنون والشطط، أنا الذي له الحقّ في القيام بأشياء سخيفة ورواية فكاهات ليست دقيقة جدّاً. أمّا أنت، فأنت صوت العقل والحكمة. إذاً، لا تسعى إلى عكس الأدوار.

- كلّ هذا جميلٌ جدّاً، ولكنّه لا يمنع من أن يكون لديّ حدسٌ سيئ فيما يخصّ هذا الرجل. إنّه يُخيفني ومهما ادّعى، لستُ متأكّداً من أنّه لا يريد إلحاق الأذى بي.

قال مات وهو يُمسك بمضرب كرة البيسبول المرمي على أريكته:

- في هذه الحالة، يجب علينا أن نعثر عليه وأن نُرعبه بعض الشيء.

تنهّد إليوت:

- أعِدْ هذا إلى مكانه، هذا الرجل يبلغ ضعف عمرنا.

- ماذا تقترح لكي نصل إليه؟

فكّر إليوت لبرهة قبل أن يُبدي رأيه:

- أقوال هذا الرجل غريبة جدّاً بحيث لا يوجد هناك سوى حلّين: إمّا أنّه مختلّ عقلياً...

- وإمّا؟

- وإمّا أنّه يقول الحقيقة.

- إذا كنت لا تُمانع، سوف نقتصر على الاحتمال الأوّل.

- في هذه الحالة، يجب أن نتّصل مع المستشفيات والمصحّات النفسيّة في المنطقة لنرى إذا كان ينقصهم مريضٌ.

هتف الفرنسي وهو يُمسكُ بهاتفه:

- هيا، لنبدأ بذلك في الحال! إذا كان هذا الرجل موجوداً، أعدكَ بأننا سنعثر عليه.

فتح إليوت الأبواب الزجاجية للمكتبة ليحصل منها على دليل الهاتف. على رفوف المكتبة، عوضاً عن روائع الأدب، كانت توجد المجموعة الكاملة من مجلة بلاي بوي وبعض الأعمال المتخصّصة بزراعة الكروم.

أبدى ملاحظة لصديقه:

- هل تعلم أنّ هناك في هذا العالم مراكز أخرى للاهتمام غير المرأة والنبيذ؟

سأل مات بشيءٍ من الجدّية:

- حقّاً؟ لأنّني فكّرت كثيراً ولم أجد شيئاً منها.

ما أن حصلا على الإحداثيات، باشر الصديقان بالاتصال مع المؤسسات الصحية في كاليفورنيا لكي يعرفا إن كان الرجل الذي يبحثان عنه يوجد على قائمة الأشخاص الذين خرجوا مؤخراً من دون تصريح طبّي. لا بدّ من القول أنّ المستشفيات الخاصّة بالأمراض النفسية قد خُثّت، منذ بضع سنوات، على إطلاق جزء من نزلائها في الطبيعة. وبهدف تخفيض الضرائب، كان حاكم الولاية -شخصٌ يُدعى رونالد ريغان- قد قرّر في الحقيقة تقليص الميزانية بشكلٍ كبير. وهي سياسة ينوي أن يتّبعها على أوسع نطاق فيما لو حصل ذات يوم على الوظيفة الرئاسية.

لم يوفّر إليوت ومات جهودهما، ولكن بعد مضيّ ساعة، تبيّن لهما جليّاً بأنّهما لا يجدان له أثراً. كانت المهمّة صعبة للغاية ولم يكن ذاك الوقت من النهار مناسباً لهذه العملية.

قال مات متذمّراً وهو يضع سماعة هاتفه:

- هذا الرجل، هو الرجل الخفيّ. هل تُريد أن نواصل البحث؟

- أعتقد أننا نفعل هذا بطريقة خاطئة. في الواقع، كلّ ما أريده، هو أن أحصل على دليلٍ.

- تُريد دليلاً على ماذا؟

- أريدُ دليلاً على أنّ هذا الرجل ليس أنا.

- أنت تهذي، يا عزيزي. هذه أوّل مرّة أراك فيها على هذه الحالة واسمح لي أن أقول لك بأنّه في هذه اللحظة بالتحديد ما كنتُ لأودّ أن تكون أنت مَنْ يُجري لي عملية جراحية. أرِحْ أعصابك، يا صديقي! خُذْ إجازة، اصطحِب إيلينا في رحلة اسمرار على شواطئ هاواي لمدّة أسبوع وسوف ترى أنّ عالمك الصغير يستعيد انسجامه.

خرّ مات في أريكته وأدار التلفاز لكي يقع على حلقة من مسلسل كولميو. على الشاشة، كان الملازم الشهير، وبين نظرتَي تأمّل لزوجته، منهمكاً في إفحام مجرمٍ من خلال دفعه إلى شبكة تناقضاته.

قال مات وهو يتثاءب:

- من المؤسف أنّه لم يترك شيئاً في بيتك.

- ماذا تقصد؟

- من المؤسف أنّ صاحبك المسافر عبر الزمن لم يترك في بيتك شيئاً عليه بصماته. لكان بوسعنا أنْ نحلّل بصماته، كما في الأفلام.

تردّد إليوت لبرهةٍ، وهو يستذكر بدقّة حواره مع «زائره»، قبل أن يمسك بكتفَي صديقه ويهزّهما.

- مات، أنت عبقري، هل تعرف ذلك؟

أجاب الشابّ الفرنسي موافقاً:

- هذا صحيح. من المؤسف أنّك الوحيد الذي يَعرف ذلك. ولكن، لماذا تقول لي هذا؟

- لقد ترك ولّاعته! أكاد أكون واثقاً من ذلك: لقد دخّن سيجارة أمامي ووضع ولّاعته من ماركة زيبو على طاولة شرفتي.

التقط إليوت، منفعلاً، سترته ومفاتيحه.

- أنا عائدٌ إلى بيتي.

قال مات وهو يلحق به عند عتبة الباب:

- سوف أرافقك. لا أريد أن أراك تقود السيارة وأنت في هذه الحال.

- شكراً على اهتمامك.

- ثمّ إنني لن أتركك في اللحظة التي بدأت فيها المسألة تغدو مثيرة للاهتمام.

خرج الصديقان من المنزل وصعدا السلّم الخشبي.

اقترح عليه مات:

- سنستقلّ سيارتي، ما زلتُ أعاني من طنجرتك هذه.

لكن حينما وصلا إلى أمام المرآب، تبيّن لهما أنّ سيارة مات الرائعة من طراز شيفروليه كورفيت قد صُبغت من قبل تيفاني. كانت قد كتبت بأحمر الشفاه وبالخط العريض على طول الزجاج الأمامي:

BASTARD[1]

قال إليوت:

- صديقتُك لطيفة.

---

(1) وغد.

قال مات وهو يسحب بطاقة زيارة كانت محصورة تحت ماسحات الزجاج:

- سترى أنّها مع ذلك قد تركت رقم هاتفها. لا بدّ أنّها قد وجدت فيّ شيئاً لا يُقاوَم.

بينما كان صديقه يفرك زجاج سيارته بمزيلٍ سائل، ذهب إليوت ليجلب اللابرادور الصغير من سيارته.

سأله مات مندهشاً وهو يوسّع عينيه:

- لديك كلبٌ الآن؟ كنتُ أعتقد أنّك والحيوانات لستُم أصحاب كثيراً.

- لنقل إنّ هذا كلبٌ خاصّ.

جلس مات خلف المقود وربط حزام الأمان.

- ما هو الخاصّ فيه؟ يُجيد قيادة السيارة وتستخدمه كسائق، هذا هو؟

- نعم بل وعلّمته أن يتكلّم أيضاً.

- حقّاً؟

- هيّا، انطلق وإن كنت عاقلاً، ربّما يغني لك النشيد الوطني الفرنسي.

أقلع مات بالسيارة وانطلقت الكورفيت رودستار بسرعة وسط الليل. شعر إليوت بنفسه خفيفاً، كما لو أنّه تجرّد من ثلاثة آلاف طنّ من القلق والهموم. كان يكفيه بضع دقائق حتى يبدأ مؤشّر معنوياته بالارتفاع. لقد أحسّ بالخوف، هذا صحيحٌ، فقد عرف هذا الرجل كيف يُقلق راحته ويُفقده استقراره من خلال إفشاء سرّين أو ثلاثة أسرار عن العائلة. لكنّه استعاد الآن الثقة والمرح. كان سيعثر على الولّاعة ويتّصل بصديقٍ من الشرطة ويُظهر التحليل الجنائي بأنّ

بصمات هذا الرجل تختلف عن بصماته هو وتعود الأمور إلى نصابها، ويمكنه آنذاك أن يتّصل هاتفياً مع إيلينا ويسخران معاً من هذه الحكاية. وفي انتظار ذلك، يمكنه أن يستمر في مضايقة مات.

- أنت لستَ مرغماً على الخروج مع فتيات لهنّ معدّل ذكاء الحلزون نفسه.

- لماذا تقول هذا؟

- لأنّ نجمة الإغراء الفاتنة التي كانت عندك قبل لحظة ليست ذكية للغاية، إذا كنت تفهم ما أعنيه.

تلقّى مات المعلومة، من دون أن يبدو عليه انزعاج، ثمّ قال:

- بالرغم من ذلك، هل رأيتَ زوج...

قاطعه إليوت:

- حجم النهدين ليس معياراً للخروج مع امرأة. أنت في الثلاثين من عمرك الآن، وكنتُ أعتقدُ بأنّك قد تجاوزت هذه المرحلة البدائية إلى حدٍّ ما، ولكنني أرى أنّ الوضع ليس كذلك.

لم يقتنع مات بكلامه:

- الجسد مهمّ.

- صحيح، الجسد مهم لما تفكّر به، ولكن ماذا بعد؟

- بعد ماذا؟

- أقصد تبادل الحديث والاهتمام بالآخر وتبادل وجهات النظر...

هزّ مات كتفيه:

- إذا أردتُ أن أتناقش مع أحد، سوف أتّصل بك أنت. لا داعي لمشقّة الخروج مع مَن يحمل جائزة نوبل من أجل هذا الأمر.

- آه... وفي انتظار ذلك، لقد فوتَّ التقاطع المؤدي إلى بيتي.

أجاب مات، منزعجاً:

- ليس تماماً، أنا أسلك فقط طريقاً مختصراً أنت لا تعرفه.

الطريق المختصر الذي أظهر في الوقت ذاته أحد عيوبه المتمثّل بإطالة المسافة لعدّة كيلومترات. لم يتأخّرا سوى عشر دقائق إضافية عن الوصول إلى المارينا. كان إليوت يتململ وصبره ينفد، لكنّه كان يمتلك لباقة عدم إظهار أيّ علامة على ذلك.

ما كادت السيارة أن تقف أمام المنزل، حتى هرع إلى الداخل وهو يقفز أربع درجات من السلّم في خطوة واحدة حتى وصل إلى الشرفة. لم يكن يخشى الآن سوى أمرٍ واحد، وهو أن تكون الولّاعة قد اختفت.

لحسن الحظّ، لم يحدث ذلك. كانت الولّاعة من ماركة زيبو لا تزال موجودة على حافة الطاولة.

حينما شاهد مات كومة الزجاج المكسّر المرمي على أرضية الشرفة، سأل:

- ما الذي حدث هنا؟ هل تصارعت مع كينغ كونغ؟

- سوف أشرح لك فيما بعد. إلى ذلك الحين، يجب أن أتّصل مع أحدٍ ما.

- انتظر، يا حبيبي. الساعة الآن الثانية فجراً! سان فرانسيسكو ليست «المدينة التي لا تنام أبداً»، أنت تخطئ في هذا الجانب! في هذه الساعة، أغلبية الناس العقلاء يكونون في أسرّتهم.

- سوف أتّصل بالشرطة، يا مات.

اتّصل إليوت مع المفوضية المركزية للشرطة لكي يسأل إن كان المحقّق مالدين في الخدمة هذه الليلة. كان المحقّق في الخدمة وتمّ توصيله مباشرةً مع مكتبه.

- مساء الخير سيّد مالدين، إليوت كوبر معك على الخطّ، أنا آسفٌ لإزعاجك ولكنني أحتاج إلى أن تُسدي لي خدمة كبيرة.

* * *

في انتظار وصول الشرطة، كان الصديقان قد عادا إلى الشرفة.

قال مات:

- لم أكُن أعلم بأنّ لديك أصدقاء من بين رجال الشرطة. كيف عرفت هذا الرجل؟

أجاب إليوت باقتضاب:

- هو مَن قام بالتحقيق في حادث انتحار والدتي. لقد ساعدني كثيراً في تلك الفترة وبقينا على اتصالٍ منذ ذلك الحين. سوف ترى، إنّه رجلٌ طيّب.

اقترب الرجلان من الطاولة وهما يراقبان بانتباه الولّاعة العاصفة التي نسيها «المسافر عبر الزمن» المزعوم.

كانت من ماركة زينو ومصنوعة من الفضّة ومزخرفة بنجيمات مشعّة ودُوِّنت في أعلاها عبارة: *Millenium Edition*.

أبدى إليوت ملاحظة:

- هذه العبارة غريبة.

ردّ مات موافقاً وهو يجثو لكي يعاين الولّاعة عن قرب:

- هذا صحيح، كما لو أنّ هذه الولّاعة قد صُنِعت ضمن مجموعة محدودة تذكاراً لشيءٍ ما...

أنهى إليوت التعليق وهو يُدرك جسامة ما يقوله:

- ... الانتقال إلى عام 2000. إنهاء الجدل:

- دَعْكَ من هذا، نحن نتكلّم بكلامٍ فارغ!

بعد مرور بضع دقائق، توقّفت سيارة للشرطة أمام المنزل وأسرع

إليوت لاستقبال المحقّق مالدين. كان رجل شرطة من الطراز القديم، يشبه همفري بوغارت في شيخوخته، يرتدي معطفاً وقبّعة من اللبّاد ولكن ببنية ملاكم. لقد بدأ من أسفل السلّم الوظيفي، متعلّماً مهنته من مدرسة الشارع. ولأنّه يجوب شوارعها منذ ما يقارب أربعين سنة، لم تعُد لمدينة سان فرانسيسكو أسرار تُخفَى عليه.

ولكنّ الشرطيّ العجوز لم يكن قد أتى بمفرده. قدّم لإليوت زميله الجديد، المحقّق دوغلاس، محقّق متخرّج حديثاً من مدرسة الشرطة، مُجازٌ في علم الجريمة. كان دوغلاس، مُسرِّحاً شعره بعناية إلى الوراء ومتأنّقاً، يرتدي بزّة أنيقة حسنة التفصيل وربطة عنق عقَدَها بطريقة ممتازة، حتى في الساعة الثانية فجراً.

سأل مالدين وهو يخرج إلى الشرفة ويشير بدوره إلى حطام الزجاج المتناثر:

- ماذا جرى لك، يا إليوت؟ هل تلقّيت صاروخاً من نافذتك؟

قال إليوت موضحاً بسذاجة، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بإجراءٍ شكلي بسيط:

- أريد أن ترفع البصمات عن هذه الولاّعة.

كتلميذٍ تحت الاختبار، كان دوغلاس قد استلّ دفتر ملاحظاته وقلمه.

سأل مستعلماً:

- هل كان هناك اقتحامٌ أو سطو مسلّح؟

أجاب مات:

- ليس تماماً. هذه قصّة أكثر تعقيداً...

قال المحقّق الشاب بشيءٍ من الانزعاج:

- إن لم تقدّم شكوى، لا يمكننا فعل أيّ شيء من أجلك!

قال مالدين:

- تَحلّ بالهدوء، يا دوغلاس!

بدأ إليوت يُدرك أنّه سوف يلاقي صعوبة في شرح الموقف. بذريعة إعداد القهوة، أدخل المحقّق العجوز إلى المطبخ لكي يتكلّم معه على انفراد.

قال مالدين وهو يُشعل سيجاراً صغيراً:

- والآن يا إليوت، اشرَحْ لي ما حدث.

لأنّ الطبيب الشاب ظلّ صامتاً، تذكّر مالدين لقاءهما الأوّل. كان ذلك اللقاء يعود إلى قرابة عشرين عاماً خَلَت، وكان يتذكّره كما لو كان في الأمس.

ذات مساءٍ ماطر، استُدعي للتحقّيق في حادثة انتحار امرأة ألقت بنفسها من أعلى مبنى في داون تاون. وقد عثر على أوراقها الثبوتية على جثّتها -كانت تُدعى روز كوبر- ومن ثمّ تكفّل بإبلاغ زوجها وابنها بالخبر الرهيب.

عندما انتحرت والدته، لم يكُنْ عمر إليوت يزيد عن اثني عشر عاماً. كان مالدين يتذكّره كطفلٍ محبوب وذكي وحسّاس. وكان قد التقى والد الصبي: رجل أعمالٍ بدا أنّه لم ينزعج لسماع خبر وفاة زوجته. وتذكّر مالدين على نحوٍ خاص علاماتٍ وبقعاً زرقاء لاحظ وجودها على ذراعَي الطفل.

وفي الحقيقة كان قد خمّن وجود تلك الوصمات أكثر من أن يُلاحظها. وربّما هذا الحدس الذي يتميّز به هو ما جعل منه شرطياً ناجحاً: كان «يشعر» بالأشياء. وفي هذه الحالة المحدّدة، كان يشعر بالأشياء على نحوٍ أفضل لكونه هو أيضاً كان لديه أبٌ يضربه بانتظام بحزامٍ مدبوغ، [illegible] أن ينتهي دوامه في المصنع.

بالطبع، كان بوسعه أن يُغمض عينيه: في تلك الآونة، لم تكن تُولَى أهمية حقيقية لهذه الأمور. ولكنّه جاء لمقابلة إليوت في اليوم التالي والذي بعده. وقد استفاد من ذلك لكي يُلقي بعض الجُمَل على مسامع الأب لكي يُظهر له بأنّه «كان يعرف» وأنّه من الآن فصاعداً، سيكون تحت المراقبة. وهكذا، تدريجياً، واصل مالدين متابعة شؤون إليوت والاهتمام بتعليمه المدرسي. كان ذلك نابعاً من مفهومه الطوباوي بعض الشي للمهنة: شرطيٌّ قريبٌ من الناس، لا يقتصر عمله على توقيف المجرمين.

أمسك الشرطي بفنجان القهوة الذي قدّمه الطبيب له وفرك عينيه لكي يطرد الذكريات التي طفت على السطح. كان عليه أن يركّز تفكيره على اللحظة الراهنة.

ألحّ مالدين على إليوت:

- إذا لم تقُل لي شيئاً، لن أستطيع مساعدتك.

قال إليوت موافقاً:

- أدرك ذلك جيّداً، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- حينما ماتت والدتي، طلبت مني أن أثق بك ووعدتني بأنّه إذا ما احتجتُ لمساعدتك، ستكون جاهزاً لتقديمها لي...

- وأنا ما زلتُ عند وعدي، يا بُنيّ.

- حسناً، وأنا اليوم بحاجة إليك. أحتاج ليس فقط إلى الشرطي وإنّما أيضاً الصديق: الشرطي لكي يقوم بهذا البحث عن البصمات والصديق لكي يثق بي حتى وإن لم أستطِعْ أن أشرح له أيّ شيء في الوقت الراهن.

تنهّد مالدين:

- انظُر، أنت تقول كلاماً جميلاً ولكنني لا أستطيع أن أرفع البصمات بهذه الطريقة! أحتاج إلى إذنٍ قانوني، هذه مسألة خاضعة للمساءلة. علينا أن نستقدم فريقاً من المختبر العلمي. علاوة على ذلك، قد تستغرق المسألة بضعة أيام، بل وربّما بضعة أسابيع. . .

- ولكنني أحتاج إلى نتيجة سريعة جداً!

فكّر مالدين لدقيقة كاملة وهو يحكّ رأسه. منذ فترة، كان نجمُه قد أفَل في المفوضية. رسمياً، كان يُؤخذ عليه كونه لا يأخذ في الاعتبار التراتبية الوظيفية ويستخدم وسائل ليست دائماً قانونية للوصول إلى أهدافه وغاياته. لكنّ ما لم يُسامَح عليه هو ذهابه بعيداً في تحقيقٍ في ملفٍّ للفساد طالَ العديد من الشخصيات في البلدية. كان مالدين يعرف بأنّه تحت المراقبة وأنّ مساعِدَه الجديد يُرافقه لكي يُراقبه بانتظار أن يخطو خطوة خاطئة. هناك الكثير من الأسباب التي ينبغي أن تحثّه على الحذر واليقظة، ولكنّه كان قد قطع وعداً على نفسه وينبغي الوفاء به. وعدٌ قطعه على نفسه، قبل ما يقارب عشرين عاماً، أمام طفلٍ فَقَدَ لتوّه والدته.

قال فجأة:

- ربّما تكون لديّ فكرة لرفع البصمات من دون الإجراءات الاعتيادية المتّبعة.

- كيف ذلك؟

أجاب محافظاً على غموضه:

- سترى. الأمر ليس قانونياً تماماً، لكن هذا قد ينجح.

لدى العودة إلى الصالون، أرسل دوغلاس ليشتري عبوة من المادة اللاصقة الجديدة التي تُسمى سوبر غلو والتي ظهرت حديثاً في الأسواق.

قال دوغلاس متذمّراً:

- وأين سأعثر عليها وقد أصبحَت الساعة الثانية فجراً؟

دلّ مالدين مساعده على متجرٍ لآلات التصوير يبقى مفتوح الأبواب ليلاً ويبيع هذه المادة اللاصقة لأنّها مصنوعة من قبل شركة كوداك.

في حين انطلق دوغلاس في مهمّته، جثا الشرطي بدوره لكي يُعاين من كثب العبارة الغريبة المحفورة على الولّاعة.

سأل وهو يلتفت إلى مات:

- *Millenium Edition*؟ ماذا تعني هذه العبارة؟

قال مات وهو يفتح علبة كوكا كولا:

- لا نعرف عنها أكثر ممّا تعرفه أنت.

- ألم تلمساه، على الأقلّ؟ وإلا ستكون البصمات قد أُزيلت...

فصاح به مات:

- هل تعتبرنا ريفيين سذّج أم ماذا! نحن أيضاً نشاهد ستارسكي وهاتش.

رمق مالدين الرجل الشاب بنظرة ثم التفت نحو إليوت:

- أحتاج إلى علبة من الورق المقوّى.

- بأيّ حجم؟

- علبة أحذية ستفي بالغرض.

ذهب إليوت يبحث في خزانة غرفته وعثر على علبة كرتونية لزوجٍ من الأحذية من ماركة ستان سميث.

في هذه الأثناء، كان مالدين قد استولى على المصباح الصغير الموضوع على الطاولة الخفيضة في الشرفة. أزاح عنه الشبكة

المحيطة به ووضع يده على المصباح الذي كان لا يزال مضاءً لكي يشعر بحرارته.

بعد انقضاء بضع دقائق، كان دوغلاس قد عاد وهو يحمل متفاخراً عبوة المادة اللاصقة من ماركة سوبر غلو. اعتبر في البداية مالدين نجماً سابقاً ومتخلّفاً عن ركب التطوّر، ولكن اضطرّ لأن يعترف بأنّ براعة الشرطيّ العجوز تُدهشه كلّ يوم أكثر وبأنّه تعلّم منه في غضون بضعة أسابيع أكثر مما تعلّمه في ثلاث سنوات من التدريب.

أعلن مالدين:

- كلّ شيء جاهز، يمكن للعرض أن يبدأ.

سأل مات مرتاباً:

- سترفع البصمات بعلبة من الورق المقوّى وعبوة من المادة اللاصقة؟

- بالضبط. وهذا، يا ولدي، لم يسبق لك أبداً أن شاهدته، حتى في برنامج ستارسكي وهاتش.

طلب مالدين من مات أن يُعطيه علبة الكوكا التي انتهى لتوّه من شرب محتواها. أخرج الشرطي سكيناً صغيراً من جيبه لكي يستخدمه في قطع قاعدة العلبة المصنوعة من الألمنيوم. وقد وضع في هذا الكوب المصنوع من العلبة محتوى عبوة المادة اللاصقة قبل أن يضعها بجانب الولّاعة.

ومن ثمّ أخذ مصباح طاولة السرير واستخدم الحرارة المنبعثة منها لتسخين المادة اللاصقة. تصاعدت سريعاً أبخرة ذات رائحة كريهة في الغرفة. قام مالدين بتغطية كامل العلبة الورقية قبل أن يستدير، راضياً، نحو جمهوره.

قال وقد علت ابتسامة شفتيه:

- نحتاج إلى بضع دقائق إضافية قبل أن نتذوّقه.

سأل مات غير مقتنعٍ:

- ماذا تفعل تحديداً؟

مع إبقائه عيناً على العلبة، أخذ مالدين يشرح لهم بلهجة الأستاذ الشارح لتلاميذه:

- الاسم الكيميائي لمادة سوبر غلو هو سيانوأكريلات...

قال مات برعونة:

- سُررتُ بمعرفة ذلك.

رمقه مالدين بنظرة حادّة، الأمر الذي يعني بأنّه لن يعود يسمح له بأن يُقاطعه في شروحاته وتلقى مات الرسالة وفهمها تماماً.

- تحت تأثير الحرارة، سوف تُمتصّ أبخرة السيانوأكريلات من قبل الأحماض الأمينية والدهون وهي المركّبات الأساسية للعرق البشري الذي تفرزه البصمات.

قال إليوت الذي بدأ يفهم ما يجري:

- وسوف تحدُث عملية البلمرة.

سأل دوغلاس الذي أحسّ بأنّه يُهمَل تماماً:

- عملية البل - ماذا؟

قال مالدين موضحاً:

- عملية البلمرة. هذا يعني أنّ أبخرة السوبر غلو سوف تتموضع على بصمات الأصابع التي لا تُرى بالعين المجرّدة لكي تُشكّل نوعاً من القناع الواقي الذي سوف يُتيح إظهار البصمة وحفظها.

نظر مات ودوغلاس إلى الشرطي العجوز بشكٍّ وعدم تصديق.

ومع ذلك كانا يحضران تجربة رائدة سوف تُحدِث، خلال بضع سنوات، ثورة في عمل المحقّقين في العالم أجمع.

أمّا إليوت، فلم يكن يشيح ببصره عن العلبة الورقية، قلقاً على معرفة ما سيُكشَف له.

بعد انقضاء لحظة، قرّر مالدين أنّ اللعبة قد استغرقت ما يكفي من الوقت ورفَع العلبة: كان راسبٌ أبيض وصلب قد تشكلّ على ثلاثة أماكن من الولّاعة، مشيراً على نحوٍ واضح إلى ثلاثة آثارٍ للبصمات.

قال مالدين وهو ينحني نحو الولّاعة:

- هذا هو العمل. من النظرة الأولى، لدينا بصمة رائعة للإبهام على أحد وجهي الولّاعة وعلى الوجه الآخر أعتقد. . . طرف السبابة والوسطى.

غلّف بحذرٍ شديد القطعة التي تشكّل دليلاً في منديلٍ ودسّها في جيب معطفه.

قال وهو يلتفت نحو إليوت:

- كما فهمت، تُريدُ أن أُقارن هذه البصمات مع البصمات الموجودة في سجلّاتنا.

صوّب الطبيب له:

- ليس تماماً: أريدُ أن تقارنها مع بصماتي.

أخرج إليوت، وهو يُضيف الحركات للكلام، قلم حبرٍ من جيب سترته وأسال قليلاً من الحبر على الطاولة قبل أن يغمس كلّ إصبع من أصابعه فيه ويطبع بصماته على ورقة بيضاء من دفتر الملاحظات خاصّته.

أخذ مالدين الورقة ونظر إلى إليوت مباشرة في عينيه.

- مع أنّني لا أفهم مغزى كلّ هذا، ولكنني مع ذلك سأفعل ما طلبته لأنني، أنا أيضاً، أثق بك.

هزّ الطبيب رأسه في صمت، وهي طريقة للتعبير عن شكره للشرطي. أمّا مات، فقد تجرّأ أخيراً على أن يطرح سؤالاً جديداً:

- هل المقارنة بين هاتين السلسلتين من البصمات ستستغرق وقتاً طويلاً؟

أكّد مالدين:

- سوف أباشر العمل على ذلك في الحال. وبما أنّ العيّنات جيّدة، آمل الحصول على نتائج بسرعة.

رافق إليوت الشرطيين حتى عتبة الدار. بينما ذهب دوغلاس ليُحضر السيارة، وَعَدَ مالدين إليوت:

- سوف أتّصل بك ما أن أنتهي من المقارنة بين البصمات.

ثمّ، وبعد لحظة من التردّد، سأل:

- بالمناسبة، هل ما زلت مع صديقتك البرازيلية، إيلينا الناعمة؟

أجاب إليوت، وقد فوجئ بعض الشيء بهذا السؤال:

- نعم ما زلت. ما بيني وبينها هو...

منعته الحشمة من أن يُنهي جملته، لكنّ مالدين أدرك ما هو جوهري في ردّه.

قال وهو يخفض رأسه:

- لقد فهمت، حينما يدخل شخصٌ إلى قلبك، يبقى فيه إلى الأبد...

نظر إليوت بحنانٍ إلى الشرطي العجوز الذي كان يبتعد عن المكان، فهو يعلم أنّه يقف منذ بضع سنوات إلى جانب زوجته في

معركة خاسرة مسبقاً ضدّ مرض الزهايمر وأنّ ساعة الجولة الأخيرة ستحين قريباً.

* * *

كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً، لكنّ إليوت لم يشعر بالنعاس، فرافقَ مات إلى بيته وأعاد سيارته الخنفساء. توقّف في محطّة للتزوّد بالوقود في ماركت ستريت. كان غارقاً في أفكاره المتدافعة ويملأ خزان الوقود في سيارته، حينما استجوبته امرأة درداء. كانت تدفع أمامها عربة مليئة بالخردة والخرق، وكانت تبدو متعاطية للمخدّرات أو ثملة. كالت له سيلاً من الشتائم، لكنّه لم يُعِرْها اهتماماً ولم يردّ عليها. كان يعمل، ليومين في الشهر، كطبيبٍ متطوّع في مركز علاج مجاني، وهو مركز بلدي لمعالجة المحتاجين وكان يعلم أنّ المدينة تُغيّر وجهها في الليل. في الدليل السياحي وفي الأفلام، تمّ تقديم سان فرانسيسكو على الدوام بطريقة تجعلها جذّابة بأحيائها البديعة وكثرة سكانها وفسحاتها الخضراء العديدة. كما يجري التذكير باستمرار بأنّ المدينة هي رمز التحرّر الهيبي. وصحيحٌ أنّ «فريسكو» قد عرفت عصرها الذهبي قبل عشر سنوات حينما جاء المئات من «أطفال الزهور»[*]، في أعقاب جانيس جوبلين وجيمي هندريكس، وأقاموا في البيوت الفيكتورية في حي هايت-آشبوري.

(*) Flower children: أي أطفال الزهور، وهو مصطلح مرادف للهيبيز، ظهر خاصة بين الشباب المثاليين الذين تجمعوا في سان فرانسيسكو والمنطقة المحيطة بها خلال صيف الحب في عام 1967. كان من عادة «أطفال الزهور» ارتداء وتوزيع الزهور أو الزهور الأوسمة لترمز إلى المثل العليا للانتماء العالمي والسلام والمحبّة. (المترجم)

لكنّ صيف الحبّ (Summer of Love) كان قد تراجع والحركة الهيبية خَفَتت تدريجياً، وتقوّضت بسبب تجاوزاتها. وكان جوبلين وهندريكس قد ماتا، وهما بالكاد قد بلغا السابعة والعشرين من عمرهما. توفي جيمي متخماً بالحبوب المنوّمة ومختنقاً بقيئه؛ أمّا بيرل[1] فقد توفّت جرّاء جرعة زائدة من الهيروين.

في نهاية سنة 1976 تلك، الكثير من الناس لم يعودوا يهتمون بالحبّ الحرّ والحياة الجماعية. وكانت المخدّرات على نحوٍ خاصّ تسبّب أضراراً جسيمة. كانت الـ LSD والميتيدرين والهيروين، والتي يُفترض أنّها تفتح الأذهان وتحرّر الناس من كبتهم وخمولهم، على العكس من ذلك، تجعلهم يتخبّطون في الإدمان قبل أن تقتلهم ببطء. في العيادة، كان إليوت شاهداً على أضرارهم الرهيبة: جرعات زائدة، التهابات كبدية بسبب الإبر الملوّثة، التهابات رئوية، حالات هذيان تنتهي برمي النفس من النوافذ.

تُضاف إلى كلّ هذه الحالات مشكلة المحاربين القدماء في فيتنام الذين انضمّ بعضهم إلى المشرّدين الذين يتزايد عددهم، حيث انسحبت القوات الأميركية من سايغون قبل عام، وعانى الكثير من المحاربين القدماء صدمة ما عاشوه «هناك» وباتوا يتراوحون منذ ذلك الوقت بين الاستقرار في المنطقة والتشرّد.

دفع إليوت ثمن الوقود الذي عبّأ به سيارته وعَبَرَ المدينة، وقد أنزل زجاج نوافذ السيارة، وهو يُعيد التفكير في ذلك اللقاء الثنائي الغريب الذي حدث في تلك السهرة. منذ أن غادر منزل مات، شعر من جديد بأنّه وحيدٌ وأعزل. لأنّه كان عليه أن يقبل بهذه الحقيقة:

---

(1) Pearl: أي اللؤلؤة، وكان لقب جانيس جوبلين.

كلّ ما رواه هذا الرجل كان صحيحاً، بدءاً من الركلات التي كان يوجّهها له والده وصولاً إلى الإحساس بالذنب الذي كان يشعر به منذ انتحار والدته.

لماذا لم يتحدّث أبداً في كلّ هذه الأمور ويتناقش فيها مع إيلينا؟ لماذا لم يفكّر قط في أن يُظهر نقاط ضعفه أمام المرأة التي أحبّها؟

وماذا عن مات؟ لم يروِ له أيضاً أيّ شيء عن هذه الأمور. تُرى هل هذا فقط بسبب الحياء والكبرياء الذكوريين؟ الحقيقة هي أيسر من ذلك. مع مات، كان كلّ شيء خفيفاً وطائشاً. كانت صحبتهم وسيلة مريحة للاحتماء من الحقائق والوقائع القاسية للعالم وأن يستعيد راحته بسهولة حينما تصبح مسؤوليات مهنته أكثر ثقلاً وعبئاً عليه.

في النهاية، حتى إذا لم يكن هناك على الدوام ما هو أفضل من الحبّ والصداقة لجعل الحياة قابلة للتحمّل، لا شكّ أنّ هناك بعض الأوضاع التي لا يمكن للمرء أن يتخلّص منها إلّا بمفرده.

* * *

على بُعد بضعة كيلومترات من المكان، كان المحقّق مالدين ينشَط في مكتبه في المفوضية المركزية.

قبل بضع دقائق، تجادَل مع معاونه الذي عاتبه على كونه قد عمل في أثناء ساعات عمله في الخدمة من أجل قضية خاصّة. كان مالدين يعلم بأنّ دوغلاس لم يكن نزيهاً وبأنّه يتمنّى على نحوٍ واضح بأن يُطرد هو من الوظيفة على أمل أن يستفيد من ترقية سريعة.

حينما هدّده هذا الأبله الصغير بكتابة تقريرٍ ضدّه، أخبره مالدين بحقائقه الأربع قبل أن يُقصيه إلى مكتبٍ أبعد من مكتبه. إنّه أمرٌ مؤسف: كان بوسع دوغلاس أن يكون شرطياً ناجحاً، ولديه كلّ

المزايا التي تؤهله لذلك، لكنّه لم يختَرْ الوسيلة المناسبة لبلوغ ذلك. في عهد مالدين، لم يكُن المرء يسعى إلى النجاح عبر إقصاء الآخرين من طريقه. ولكن ربّما لأنّ مالدين قد أصبح عجوزاً. ربّما لدى الجيل الجديد قيم جديدة: جيلٌ أكثر طموحاً، أكثر مبادرة فردية، مثلما يوصي أحياناً الحاكم ريغان في التلفاز.

أنهى مالدين كوبه من القهوة. هذه المرّة، لم يكُن يساوره الشكّ بأنّ الشرطي الآخر سوف يضع تهديداته موضع التنفيذ. وأأسفاه. إذا كان الأمر سينتهي برجال الشرطة إلى التحكّم به، سوف يغادر وظيفته ليقضي وقتاً أطول في المستشفى بالقرب من ليزا. على أيّ حال، اقترب من بلوغه سنّ التقاعد. وفي انتظار ذلك، سوف يساعد إليوت للمرّة الأخيرة من خلال القيام بالعمل الذي طلبه منه.

بدأ بتلوين البصمات التي رفعها عن الولّاعة بلونٍ مشعّ. ثمّ استخدم آلة التصوير خاصّته ليلتقط سلسلة من الصور التي ينبغي أن يُظهرها ومن ثمّ يكبّرها. وفقط بعد ذلك، سيبدأ التحليل الحقيقي. نظر إلى ساعة يده بقلق. كان عملٌ مرهِقٌ بانتظاره. سوف لن يكفيه الليل لإنجازه.

* * *

قبل العودة إلى المارينا، توقّف إليوت في متجرٍ من مجموعة فان نيس مفتوحٍ على مدار 24 ساعة. اشترى سجائر وكذلك علبة من مأكولات خاصّة للكلب.

هتف وهو يدفع باب منزله:

- مرحباً يا راستاكوير.

ما كاد أن يعبُر عتبة الباب حتى جرى اللابرادور نحوه لكي يلعَق أطراف أصابعه مثلما فعل قبل ساعتين مع زائره الغريب.

نبّهه وهو يُفرغ طعامه في صحنٍ:

- لا داعي للتملّق.

ظلّ ينظر للحظة إلى الكلب، مندهشاً للاستمتاع بصحبته. ثمّ قام بكَنْس حطام الزجاج ودخّن بضع سجائر، وهو سارحٌ في الفراغ وروحه هائمة من ناحية طفولته. كان ينظر، كلّ خمس دقائق، بقلقٍ ونفاد صبر إلى هاتفه بانتظار الحُكم الذي يُرسله له تحليل البصمات. حتى وإن كانت كلّ هذه الحكاية واضحة للغاية، لم يكن بوسعه أن يمنع نفسه من التوتّر والقلق كما لو أنّه ينتظر نتيجة تحليلٍ طبيٍّ قد يكشف عن مرضٍ مميت.

* * *

مزّق المحقّق دوغلاس التقرير الذي كان قد نقره للتوّ على آلته الكاتبة. نهض من مكتبه ونزل إلى الطابق الأرضي ودخل إلى الغرفة الصغيرة التي تُستخدم لاستراحة رجال الشرطة. في ذلك المساء، كانت مفوضية الشرطة هادئة بشكلٍ مدهش. أعدّ دوغلاس فنجانين من القهوة قبل أن يصعد إلى الطابق الثالث ويقرع باب مكتب مالدين.

وردّاً على طَرق الباب، أصدر مالدين همهمة قرّر دوغلاس أن يُفسّرها على أنّها دعوة للدخول.

سأل وهو يطلّ برأسه من المدخل:

- هل تحتاج إلى مساعدة؟

ردّ الشرطيّ العجوز بنبرة فظّة:

- من المحتمل أن...

قدّم دوغلاس لزميله أحد فنجاني القهوة ونظر حوله بانتباه.

كان ما يُقلِّب عشر صور مكبّرة بعشرة أضعاف توفّر غوصاً في

متاهة بصمات الأصابع. رجال الشرطة يحبّون البصمات، فقد اعتاد أصحاب المهنة أن يقولوا: «المخبرون الوحيدون الذين لا يخدعون ولا يكذبون أبداً». كانت الصور مجتمعة تشكّل نسيجاً غريباً يشبه خارطة طبوغرافية واسعة: خطوط لطيفة وجميلة، منعطفات وتشعبات، حواف ونتوءات، جُزر صغيرة يمكنها أن تؤدّي إلى احتمالات لامتناهية. بصمة إصبع هي عملٌ فنيّ فريد لكلّ فرد والتي تأخذ شكلاً طيلة حياة الجنين داخل الرحم. في بطن الأمّ، يخضع الجنين لجملة من الأحداث الصغيرة الضاغطة والتي، من خلال تعاقبها بطريقة عشوائية، سوف تشكّل أطراف الأصابع. وتجري كلّ هذه العملية قبل الشهر السادس من الحمل. بعد ذلك، تَثبت هذه الأشكال الصغيرة على الأصابع ولا تتغيّر مدى الحياة.

في مدرسة الشرطة، كان دوغلاس قد تعلّم أنّ كلّ إصبع تحتوي على حوالي مئة وخمسين نقطة مميزة. وللتحقّق إن كانت بصمتان متطابقتين، يكفي تحديد نقاط التطابق بين هذه العلامات الصغيرة المميّزة.

ولكي يكون لأيّ إثبات قيمة قانونية، من الضروري أن تكون هناك قرابة عشر نقاط مشتركة.

اقترح دوغلاس على رئيسه:

- فلنباشر بالعمل.

كان دوغلاس يتمتّع بقوّة النظر ومالدين يتمتّع بقوّة الصبر، ويشكّلان معاً فريقاً جيّداً.

* * *

حينما أشرقت الشمس، قرّر إليوت أن يستحمّ. ارتدى ثياباً نظيفة وغادر البيت لكي يلتحق بخدمته في المستشفى.

على الطريق، اضطرّ لأن يُضيء أنوار السيارة وأن يشغّل ماسحات الزجاج. خلال بضع ساعات، انقلب الجوّ رأساً على عقب. السماء التي كانت صافية جدّاً مساء اليوم السابق، باتت الآن مكفهرّة بالغيوم وتشير إلى احتمال أن نصادف أحد الصباحات الماطرة التي تشير إلى الدخول في فصل الشتاء.

أدار المذياع لكي يستمع إلى الأخبار. كانت كلّ الأخبار مقلقة ومزعجة: زلزالٌ قاتل في الصين، قمعٌ عسكري في الأرجنتين، تسرّب نفطي في فرنسا، مجزرة في سويتو في جنوب أفريقيا الأبارتيد في حين كان شخصٌ مجنون متحصّن في منزله، في هيوستن، يُحاول إطلاق النار على المارّة.

في هذه الأثناء، في أميركا فضيحة ووتر غيت، كانت الحملة الانتخابية الرئاسية تبلغ ذروتها لمعرفة أيّ من الرجلين كارتر أم فورد سيتولّى مقاليد البلاد.

ملّ إليوت من سماع الأخبار، فغيّر المحطّة وأكمل طريقه بالاستماع إلى فرقة البيتلز وأغنيتهم *Let It Be*.

كان يهمّ بالدخول إلى بهو المستشفى، حينما استوقفه الحارس:

- مكالمة لك، يا دكتور!

أمسكَ إليوت بالسماعة التي أُعطيت له.

أخبره ماتيو:

- لقد حصلتُ على نتائجك.

تنفّس الطبيب بعمق قبل أن يسأل:

- وإلى ماذا تشير النتائج؟

- البصمات متطابقة.

احتاج إليوت إلى بضع ثوانٍ قبل أن يستوعب المعلومة.

- هل أنت متأكّد من نتائجك؟

- النتائج مؤكّدة وموثوقة. لقد تحققنا منها عدّة مرّات.

مع ذلك، لم يكن إليوت مستعداً بعد للقبول بالدليل.

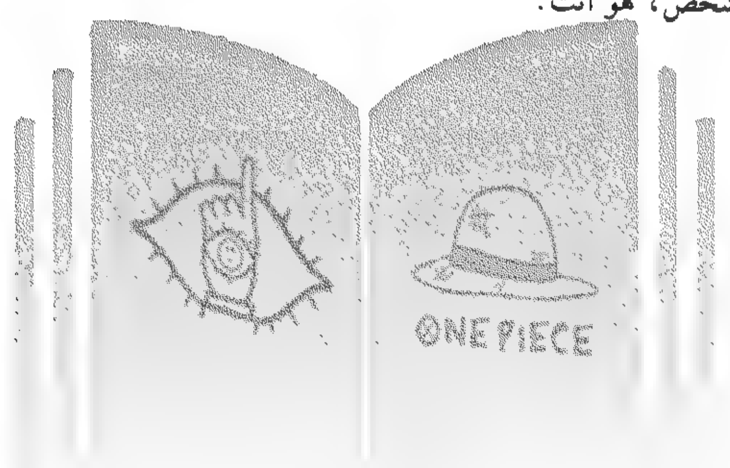
سأل:

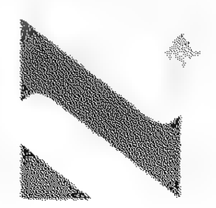
- في المطلق، ما هي نسبة احتمال أن تتطابق بصمات شخصين مختلفين؟

- واحد من أصل عدّة مليارات. حتى التوائم لديهم بصمات مختلفة.

ولأنّ مالدين لاحظ أنّ الطبيب لم يعلّق على كلامه، أعاد التأكيد على النتيجة التي خلص إليها على نحوٍ أوضح:

- لا أدري ما هي مشكلتك، يا إليوت، لكنّ البصمات هي للشخص نفسه. ليس هناك أيّ شكّ محتملٍ في ذلك. وهذا الشخص، هو أنت.





7

لقد قهرتُ الموت بقوّة الحياة، والألم وخداع الذات والمخاطرة والعطاء والخسران.

أنابيس نين

سبتمبر 2006

إليوت في سنّ الستّين

كانت الحواجز الزجاجية تقود الضوء إلى داخل المنزل، تاركة الشمس تغمر الجدران قبل أن تتناثر على الأرضية المغطاة بخشب الجوز الكاليفورني.

نزل إليوت السلّم المعدني المؤدي إلى المطبخ وهو يرتدي سروال جينز قديم من ماركة ليفايس وبلوزة مهذبة. كان يوم استراحته وأراد أن يتناول فطوره من دون استعجال. كان قد استحمّ وحلق ذقنه حديثاً، فأحسّ بأنّه نشيط ومرتاح نفسياً. هذا الصباح، لم يكن يتألّم بسبب مرضه كما لو أنّ شبح الموت قد ابتعد عنه من بعد الحادثة الغريبة التي جرت معه في الليلة السابقة.

أعدّ لنفسه عصير البرتقال وزبدية من رقائق الشوفان وراح يتناولها في الحديقة. بدأ نهاره مشرقاً. كانت بعض الصور الشاردة

من رحلته الليلية لا تزال تتدافع في رأسه. شَعَرَ بالإثارة أكثر منها بالحيرة. لا يزال لا يعلم ما هي المادة التي تحتوي عليها الأقراص، لكنّ ذلك لم يمنع من أن تُحقّق نجاحاً باهراً! خاصّة هذه «الرحلة» الثانية التي أتاحت توضيح عدّة نقاط. بدا له الآن أنّه يفهم على نحوٍ أفضل آليات عودته نحو الماضي.

في البداية، كانت قفزته في الزمن هي نفسها في كلّ مرّة: ثلاثين عاماً بالتمام والكمال. في المساء الأوّل، شاهد التاريخ على لوحة طرقية مضاءة في المطار وفي اليوم السابق، زوّدته الصحيفة الموضوعة على طاولة الشرفة بالمعلومة.

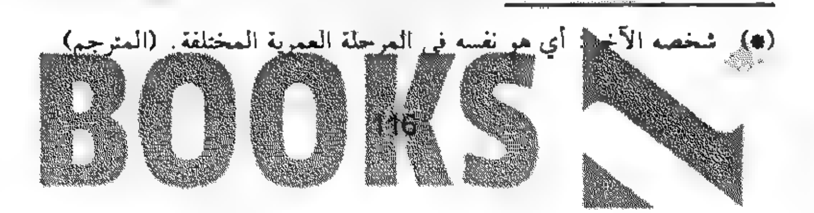
ومن ثمّ، استطاع بوضوح أن ينقل الأشياء في الماضي بما أنّ ثيابه كانت تلحق به في كلّ رحلة من رحلاته. هذا فضلاً على أنّه كان يستطيع أن يستعيد أشياءَ إلى عصره: وكان المنديل الملطّخ بالدم خيرُ دليلٍ على ذلك.

كان هناك بالمقابل ما يجعله يتطلّع لفهم المزيد: قصر مدّة إقامته في الماضي. حوالي عشرين دقيقة في كلّ مرّة، وهذا قليل. إنّه فقط الزمن الذي يستغرقه تبادل بعض الكلمات مع «شخصه الآخر»(*) وقد استبدّت به الارتعاشات المُنذِرة بعودته نحو المستقبل.

ولكن ربّما كان لا يزال من المبكّر ليجد منطقاً حقيقياً لحالات الانتظام الزمني هذه. على أيّ حال، هناك أمرٌ واحدٌ مؤكّد: كان يستطيع عبور الزمن بواسطة الأحلام.

عند العودة إلى البيت، جلس أمام حاسوبه. إنّه جرّاح، ولكن

(*) شخصه الآخر: أي هو نفسه في المرحلة العمرية المختلفة. (المترجم)



ما الذي يعرفه حقّاً عن النوم والأحلام؟ في الحقيقة لم يكن يعرف الشيء الكثير عن ذلك. لقد التهم أطناناً من المعارف في أثناء دراسته، لكنّه نسي الكثير منها. ولتنشيط وإنعاش ذاكرته، اتّصل بالشبكة وأمضى الساعة التالية في مراجعة موسوعة طبية على الإنترنت.

النوم عبارة عن أطوار مختلفة تتعاقب وتتكرّر طيلة الليل.

حسناً، لقد تذكّر هذه المعلومة. وماذا أيضاً؟

النوم الخفيف يتّصل بأطوار النوم بأمواج بطيئة والنوم العميق يتّصل بأطوار النوم المُفارق.

النوم المفارق؟ عنت له هذه العبارة شيئاً ما...

هذه العبارة تشير إلى طور النوم الذي يكون فيه النشاط الدماغي في كثافته القصوى في حين يكون الجسم في حالة وهن كلّي مع ارتخاء كلّ الجهاز العضلي من الرقبة وحتى القدمين.

حسناً، وما علاقة الأحلام بكلّ هذا؟

خلال حياتنا، نمضي وسطياً خمسة وعشرين عاماً في النوم وما يقارب عشرة أعوام في الحلم. وهذا يُعادل ما بين 100000 و500000 حلم.

ظلّ إليوت مطرقاً في التفكير أمام هذا الرقم الأخير. بهذه

الطريقة، تكون حياتنا البشرية قد مرّت بمئات آلاف الأحلام! هذا أمرٌ مذهل ومقلق في آنٍ واحد. وإذ أحسّ بأنّه على الطريق الصحيح، سمح لنفسه بأن يُشعل سيجارة ويواصل القراءة لكي يعرف أنّ:

> **فترة النوم المُفارق تحدث كل حوالي تسعين دقيقة لتستغرق ربع ساعة كاملة. وخلال هذا الطور تظهر الأحلام الأكثر كثافة.**

هذا الاكتشاف الأخير جعله يتزحزح على كرسيه. كان كلّ شيء متطابقاً: في اليوم السابق، نام لمدّة 22 ساعة لكي «يُظهر ثانية» 30 عاماً سابقة في حوالي 23 ساعة وثلاثين دقيقة. كانت مدّة رحلته إذاً 90 دقيقة: وهي مدّة الزمن نفسها اللازمة للوصول إلى الطور الأوّل من النوم المُفارق!

هذه هي إذاً الطريقة التي سارت فيها الأمور: في أثناء هذه الفترة من النشاط الدماغي، تُحدث لديه المادة الموجودة في القُرص (الذي قدّمه له المسنّ الآسيوي) عودة إلى الماضي. قد يبدو كلّ هذا ضرباً من الجنون، ولكنّه كان قد حدث في مرحلة من حياته بالغ فيها بعدم إيمانه بأيّ شيء بحيث أصبح مستعداً للإيمان بكلّ شيء.

بيضع نقرات على الحاسوب، واصل اكتشاف هذه القارة الغامضة لكي يرى بأنّه إذا كان العلم قد اكتشف الكثير من الأشياء حول كيف يحلم البشر، فإنّه لم يقُل الكثير عن لماذا يحلمون. في جوانب عديدة، ظلّ الحلم أمراً ملغزاً. ككلّ نشاطٍ مبرمجٍ للجسم أو للمخّ، لا بدّ أن يكون للحلم وظيفةٌ، هدفٌ...

ولكن ما هو؟



حتى الآن لم يقدّم أحدٌ جواباً علمياً عن هذا السؤال.

بالتأكيد، كان هناك الكثير من الأوهام الباطنية التي تعود إلى مصر القديمة والتي ترى في الأحلام إشارات مرسَلَة من الآلهة أو من عالمٍ غير مرئي. ولكن أيّ مصداقية لهذا الهراء؟

كان إليوت يفكّر في هذه الفرضيات المتنوّعة حينما قطعت مكالمة هاتفية تفكيره. رفع السماعة وتعرّف على صوت صامويل بيلو، مسؤول مَخْبَر المستشفى الذي كان قد أودعه البقايا التي عثر عليها في قاع علبة الأقراص.

قال بيلو:

- لدي نتائج تحاليلك.

* * *

1976

إليوت في سنّ الثلاثين

في الساعة نفسها، قبل ثلاثين عاماً، كان إليوت يُنهي فنجانه من القهوة في صالة الاستراحة في مستشفى لينوكس.

أعاد الطبيب الشاب، للمرّة الثانية في فترة الصباح، معاينة صور البصمات التي كان ماتيو قد أرسلها إليه عبر البريد. كان الآن مرغماً على أن يُصدّق ما لا يُصدّق: في مكانٍ ما في المستقبل، كان «شخصٌ آخر هو نفسه» قد وجد إمكانية السفر عبر الزمن وزيارته في لقاءات قصيرة.

أمّا معرفة كيفية نجاحه في ذلك... فهذه حكاية أخرى!

لم يكن إليوت أبداً من كبار قرّاء الخيال العلمي، ولكنّه كان قد درس في الكلية أينشتاين ونظريته عن النسبة. وماذا يقول العم ألبرت

بشأن السفر عبر الزمن؟ كان يقول بأنّه غير ممكن تماماً. . . إلّا بشرطٍ وحيد وهو أن يستطيع المرء أن يتجاوز سرعة الضوء. والحال أنّه كان من الصعب أن يتخيّل أنّ زائره الغريب يجول حول الكرة الأرضية، بسرعة 300000 كيلومتر في الثانية، مثل سوبرمانٍ عجوز.

كان عليه إذاً أن يبحث عن الجواب في مكانٍ آخر.

ربّما من جانب الثقوب السوداء(*) كان قد شاهد تقريراً في التلفاز حول هذه النجوم الهالكة، التي تمتلك حقلاً للجاذبية قادراً على لوي الزَمكان. من الناحية النظرية، لا شيء يمنع التخيّل بأنّ جسماً، ابتلعه واحدٌ من هذه الثقوب السوداء، يستطيع أن يخرج في عصرٍ آخر أو في كونٍ آخر.

أمرٌ منطقي. . . باستثناء أنّه لم يُشاهد أيّ من هذه الثقوب حتى يومنا هذا وأنّه من المستبعد أن يجتاز جسمٌ بشري هكذا منطقة من دون أن يتمزّق ويتناثر كالغبار.

فضلاً عن ذلك، كان ذلك من دون الاعتماد على المفارقات الزمنية العديدة التي تصنع متعة الأفلام والكتب من هذا النوع. وماذا لو مُنِعتُم، من خلال العودة إلى الماضي، الالتقاء مع والدكم المستقبلي ووالدتكم المستقبلية؟ وماذا لو قتلتم والديكم قبل أن تحبل أمّكم بكم؟ ندخل إذاً في حلقة مفرغة عن الوجود وعدم الوجود:

(*) الثقب الأسود: هو تجمّع كوني ذو جاذبية هائلة، والتي تقوم بسحب كلّ شيء من حولها حتى الضوء، ويتشكّل الثقب الأسود عند موت نجم ضخم. وعلى الرغم من أنّه لا يمكن رؤية الثقوب السوداء، إلّا أنّها تمثل حوالي 90% من محتوى الكون، ويذكر أنّ الفيزيائي الأميركي جون ويلر قد أطلق هذا الاسم عليها في عام 1969م. (المترجم)

قتلتُ سَلَفي.

إذاً، لم أولَد.

إذاً، لم أقتل سَلَفي.

إذاً، وُلِدتُ.

إذاً، قتلتُ سَلَفي.

إذاً...

تنهّد إليوت: ممّا لا شكّ فيه أنّ القبول بإمكانية هكذا رحلة يعني انتهاك ما يقارب عشرة قوانين فيزيائية وإنكار كلّ مبادئ السببية والترابط المنطقي.

ومع ذلك...

ومع ذلك، كانت الصور التي بين يديه دليلاً على أنّ كلّ هذه الحكاية حقيقية. قال في نفسه وهو يرجع إلى فرادة بصمات كلّ فرد: الدليل العلمي الأكبر.

شارد الذهن في مكانٍ آخر، قدح حجر الولّاعة التي أعادها إليه مالدين فصدرت شرارة صغيرة عنها. ثمّ أغلق صمّام ولّاعة زيبو ونهض فجأةً من كرسيه. من المستحيل البقاء في المكان! في الساعات الأخيرة هذه، كان لا بدّ أن يعبّ ما يقارب عشرة فناجين من القهوة. الخوف الذي عانى منه هذه الليلة لم يكن قد تلاشى بعد، ولكنّه امتزج بالإثارة الناجمة عن كونه قد عاش شيئاً ما كان يتجاوزه. كان رجلاً عادياً حصل له ما هو غير عاديّ. إلى أين يقوده كلّ هذا؟ لم تكن لديه فكرة عن ذلك. بدءاً من الآن، دخل إلى المجهول ولم يكن متأكّداً من أنّه سيُحسن مواجهة ما كان ينتظره.

أعدّ فنجاناً من القهوة وفتح النافذة المطلّة على الشارع. وبما

أنّه كان لوحده في الغرفة، أشعل بعصبية سيجارة دخّنها بهدوء بأطراف شفتيه لكي لا يتسبّب في إطلاق جرس الإنذار بوجود دخان. كان سؤالٌ يدور في ذهنه من دون توقّف منذ بضع دقائق، هل كان بوسعه التواصل مع شخصه الآخر هذا الذي يعيش في المستقبل؟ لمَ لا؟ ولكن كيف سيقوم بذلك وما الرسالة التي سيبعثها؟

فكّر لبضع دقائق في هذه المشكلة من دون إيجاد حلّ واضح. عبرت فكرة مجنونة ذهنه مثل مذنّبٍ آتٍ من العدم، لكنّه رفضها. كلا، لم يكن عليه أن يفعل أيّ شيءٍ، كان عليه أن يهدّئ نفسه ويضع هذه الحكاية جانباً للحظة ويعود إلى عمله.

جلس مزوّداً بقرارات جيّدة إلى طاولة أمام كدسٍ من الأضابير لكي يُنهي جردة عملياته الجراحية. ومع ذلك، لم تكد تمضي دقيقتان حتّى كفّ عن العمل. كيف له أن يركّز بعد ما عاناه لتوّه! نظر إلى ساعة يده: لم تكن لديه أيّ عملية جراحية قبل ساعتين كاملتين، وبقليلٍ من الحظّ، قد يجد طبيباً آخر ليحلّ محلّه في المناوبة. خلع بلوزته والتقط سترته وغادر المكان.

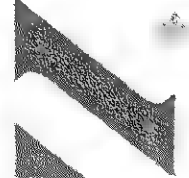
غادر المستشفى بعد ذلك بخمس دقائق. صادف عند خروجه من المرأب شاحنة نموذجية جدّاً تابعة لشركة فيديرال إكسبرس لخدمات توصيل البريد السريع.

هزّ كتفيه في هيئة التحدّي منتشياً بما كان يوشك أن يشهده.

على فيديكس ويو بي إس أن يعرفا حجمهما!

هو، إليوت كوبر، فسوف يرسل رسالة لثلاثين سنة في المستقبل...

***



2006

إليوت في سنّ الستين

قال بيلو:

- لدي نتائج تحاليلك.

- وإلى ماذا تشير النتائج؟

- الواقع، مادتك غريبة: خليطٌ قوامه الأساسي نباتات، وبشكلٍ رئيس ورق التوت والزعرور الجرماني.

لم يُصدّق إليوت أذنيه.

- لا شيء آخر؟

- كلا. إن أردتَ رأيي، هذا الدواء لا يمكنه أن يُشفي شيئاً. إنّه علاجٌ بديل بسيط.

أغلق الطبيب السماعة، مذهولاً. لم يكن هناك إذاً محتوى سحري في الأقراص. العجوز الكمبودي وحكاية تمنّي أمنية والأمل في لقاء إيلينا... كل ذلك كان عبارة عن وصفة شعبية. لا بدّ أنّ مركز المرض قد انتقل إلى دماغه. لا شكّ أنّ مقابلة شخصه الآخر والثلاثين عاماً المبكّرة لم تحدث سوى في خياله، أيّ أنّها مجرّد تخاريف رجلٍ وصل إلى نهاية حياته ويخشى الموت.

هنا تكمن وظيفة الأحلام! لا ينبغي البحث عنها في العلم وإنّما في التحليل النفسي. الأحلام ليست سوى تمثّلٍ للرغبات المكبوتة. إنّها نوعٌ من صمّام الأمان الذي يُتيح للعقل الباطن أن يُعبّر عن نفسه من دون أن يخلّ بتوازنه النفسي. لقد دقّ إليوت باب ألبرت أينشتاين ولكن سيغموند فرويد هو مَن فتح له الباب!

ها قد وضعت مكالمة هاتفية بسيطة قدميه على الأرض. لقد سقط السحر تماماً، وفي ضوء النهار الساطع، ما كان يبدو له واقعياً

جدّاً هذه الليلة لم يعُد سوى وهمٍ مجنونٍ. لقد رغب أشدّ الرغبة في أن يصدّق ذلك، لكن لا . . . هذه المغامرة الجميلة، هذا العبور القصير للزمن لم يكن سوى إخراجٍ من ذهنه. كان المرض وقرب موعد موته قد دفعاه إلى توهّم إمكانية العودة نحو الفترة المفصلية في ماضيه.

الحقيقة هي أنّه كان يتلوّى خوفاً وذعراً من الموت. يرفض الإقرار بأنّ حياته قد انتهت. لقد مرّ كلّ شيء سريعاً: الطفولة والمراهقة والشباب وسنّ النضج. . . ثمّ، في غمضة عين، عليه أن يرحل؟ اللعنة، ستون سنة، من المبكّر جدّاً! لم يشعر بأنّه قد شاخ. قبل أن يُشخّص له هذا السرطان، كان لا يزال في كامل لياقته وصحّته. يمشي خلال مهمّاته الإنسانية عبر الجبال الوعرة مخلّفاً وراءه غالباً مَن هم في سنّ الثلاثين أو الأربعين. وكانت شاريكا، مساعدته المتدرّبة، الجميلة مثل القمر، تريد أن تخرج في سهرةٍ معه هو وليس مع شابٍّ بدأ حديثاً بممارسة مهنة الطبّ!

لكنّ كلّ هذا انتهى وولّى. ليس أمامه الآن سوى الموت وانتظاره بخوف.

الخوف من رؤية جسده وهو يضعف ويهزل.

الخوف من الألم ومن فقدانه لاستقلاليته.

الخوف من الموت وحيداً في الغرفة الشاحبة في أحد المشافي.

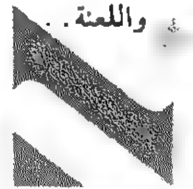
الخوف من ترك ابنته في هذا العالم غير الآمن.

الخوف من ألّا تكون حياته في النهاية ذات معنى.

والخوف ممّا ينتظره بعد ذلك. ما أن يسلم الروح ويصبح في الجانب الآخر.

واللعنة. . .





مَسَحَ دمعة غضبٍ سالت على طول خدّه.

بدأ ألمٌ فظيع ينهش أحشاءه. ذهب إلى الحمّام ونبش في درج الصيدلية المنزلية ليأخذ مسكّناً للألم وصبّ بعض الماء على وجهه. في المرآة، كان للرجل الذي ينظر إليه عينان لامعتان ومحتقنتان بالدم.

كم من الوقت بقي لديه؟ بضعة أيام؟ بضعة أسابيع؟ أحسّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى بالحاجة الملحّة إلى العيش والجري والتنفّس وتبادل الحديث مع الآخرين والحبّ...

لا يُمكن القول بأنّه قد أهدر حياته عبثاً: كان بجانب فتاةٍ عشقَها وكان نافعاً وقد سافر كثيراً وعاش الكثير من مباهج الحياة وأمضى وقتاً جميلاً مع مات.

لكن على الدوام كان ثمّة ما ينقصه.

إيلينا...

منذ موتها، قبل ثلاثين عاماً، أصبح كما لو أنّه يعيش على فتراتٍ متقطّعة. كان مشاهداً أكثر منه ممثّلاً حقيقياً في حياته. وفي هذه الأيام الأخيرة حبّذ فعلاً أن يؤمن بفكرة السفر عبر الزمن هذه.

وذلك فقط من أجل هذا الأمل المجنون في أن يلتقي مع إيلينا قبل أن يموت.

ولكن الوهم قد تلاشى الآن وهو يعاني من كونه قد استسلم لخداع ذاته.

تقول الحكمة الشعبية: سوف تكفّ عن الألم، حينما تكفّ عن الأمل.

وإليوت لم يعُد يرغب في أن يتألّم. ولكي يُطفئ إلى الأبد آخر

بريق أمل لا يزال يومض في قلبه، ألقى بعلبة الأقراص في حوض الحمام.

تردّد للحظة. . .

. . . ثمّ سحب مقبض طرّادة الماء في كرسي الحمام لتجرف المياه العلبة معها.

* * *

1976

إليوت في سنّ الثلاثين

أوقف إليوت سيارته الخنفساء في حي ميشن ديستركت على طول فالنسيا ستريت. كان الحيّ الإسباني في سان فرانسيسكو يضجّ في هذه الساعة من النهار بالحيوية والنشاط مثل خلية نحل. بفضل محلّاته الرخيصة ومطاعمه المكسيكية «تاكيرياس» وأكشاك فاكهته، كان حيّ ميشن يعد أحد أبهى الأماكن في المدينة.

مشى الطبيب في الجادة وسط حشود صاخبة بأزياء ملوّنة وجميلة. في كلّ مكانٍ من الشارع، كانت لوحات جدارية بألوان زاهية تزيّن واجهات العمارات. توقّف إليوت لبضع ثوانٍ أمام هذه الرسومات الساحرة والمبهرة التي كانت تحت تأثير ظلّ دييغو ريفيرا[1]. لكنّه لم يكُن هنا ليقوم بدور السائح. استأنف سيره مسرعاً الخطى. كان المكان يبرز جوّاً من البساطة الفطرية ولكنّ كانت له جوانب سلبية أيضاً مثل العصابات المكسيكية التي كانت، من خلال تخويف المارة، تُفسد الجو المتسامح للحيّ.

---

(1) دييغو ريفيرا: رسّامٌ مكسيكي، زوج فُريدا كاهلو، مؤسّس الحركة الجدارية ذات الطابع الاجتماعي.

عند مفرق دولوريس ستريت، بعد سلسلة من نوادي رقص السالسا ومتاجر المستلزمات الدينية، رأى أخيراً اللافتة التي يبحث عنها:

بلو مون: حليّ ووشوم

دفع باب المتجر ليقع وجهاً لوجه على بوسترٍ مخيفٍ بعض الشيء للمغني فريدي ميركوري. كان مغنّي فرقة كوين، وهو يرتدي ثياب فتاة، يُقلِّدُ الفعل الجنسي بطريقة فاضحة جدّاً. على مشغّل الموسيقى، بالقرب من صندوق المحاسبة، كانت أسطوانة تبثّ بأعلى صوتٍ إيقاعات الريغيه لبوب مارلي والتي بدأت تنال الإعجاب منذ أن أدّاها إريك كلابتون في السنة السابقة بعنوان: *I shot the sheriff*.

تنهّد إليوت. لم يكن بالفعل في بيئته هنا، ولكنه مع ذلك لم يرتبك.

نادى وهو يتوجّه نحو مؤخّرة المتجر:

- كريستينا؟

- دكتور كوبر! يا لها من مفاجأة!

بدت المرأة التي تقف أمامه مثيرة بقامتها الطويلة وشعرها الأشقر: كانت تنتعل حذاءً طويل الساق كالذي ينتعله الدرّاجون وسروالاً قصيراً جدّاً من الجلد وقد وشَمت أسفل ظهرها بوشومٍ مثيرة جنسياً.

كان إليوت قد التقى بها في المستشفى، قبل ستّة أشهر، حينما أجرى عملية جراحية لابنها الذي كان يعاني تشوّهاً في الكليتين. منذ ذلك الحين، تابع الطبيب بانتظام حالة الطفل الرضيع الذي كان صينيّاً

تربّيه كريستينا مع رفيقتها ليلى، وهي ممرّضة تعمل في قسمه نفسه. منذ لقائهما الأوّل، افتُتِن إليوت بحرية هذه الفتاة، المُجازة من جامعة بيركيلي والمتخصّصة بالحضارات الآسيوية، ولكنّها فضّلت أن تفتتح محلاً للوشم بدل أن تدرّس في إحدى الجامعات. كانت كريستينا تعيش حياتها كما تُريد هي وكانت تُجاهر علناً بمثليّتها الجنسية. لم تكن هذه المسألة تثير المشاكل في سان فرانسيسكو: قبل بضع سنوات خلت، كان المثليون جنسياً قد حلّوا محلّ الهيبيين كمجموعة بارزة في المدينة. منجذبين بتسامح هذه المدينة، أقام عشرات الألوف من المثليين على نحوٍ واسعٍ في حيَّي كاسترو ونوي فالي.

قالت وهي تشير إلى كرسيّ:

- سأعود إليك بعد دقيقتين.

أخذ الطبيب مكانه في أريكة، إلى جانب متنكّر في ثياب امرأة من أميركا الجنوبية كان قد انتهى من ثقب أذنيه. مرتبكاً بعض الشيء، سأل إن كان يستطيع استخدام الهاتف واتّصل مع مات ليُخبره الأخبار الجديدة. حينما أخبره إليوت بنتائج تحليل البصمات، لم يبدُ صديقه قلقاً كثيراً.

قال:

- هذا الرجل لم يلمحه أحدٌ سواك. إذا أردتَ رأيي، هذه الحكاية لم تحدث إلّا في ذهنك.

ردّ إليوت غاضباً:

- ماذا تعني بـ«في ذهني»؟ وهذه الولّاعة المنقوشة عليها عبارة *Millenium Edition*، وعليها بصمات أصابعي، هي الأخرى في ذهني؟

- اسمع يا عزيزي، هذه الولّاعة، لا شكّ أنّك أنتَ مَن اشتريتها، ولكنّك لم تعُد تتذكّر ذلك، هذا كلّ ما في الأمر.

ردّ إليوت مُندهشاً:

- إذاً، أنت لا تُصدّقني؟

أجاب مات معترفاً:

- كلّا، ولو رويتُ لك حكاية شبيهة بهذه لما صدّقتني وكنتَ ستحاول بدلاً من ذلك أن تُعيدني إلى جادة الصواب.

علّق صديقه:

- شكراً لمساندتك!

وأغلق السمّاعة، وهو في غاية الضيق.

سألت كريستينا وهي تدعوه للجلوس:

- إذاً يا دكتور، ماذا أفعل لك؟ هل تُريدني أن أرسم لك وشماً لنادي هيلز أنجيلز أم تنيناً كبيراً على ظهرك؟

قال وهو يرفع كمّ قميصه:

- لا هذا ولا ذاك. في الحقيقة، أريد فقط عبارة صغيرة، هنا، في أعلى كتفي.

قالت وهي تجهّز إبرتها:

- ألا تفضّل شيئاً أكثر جماليةً؟ انظر إلى ذاك الوشم.

فتحت كريستينا ساقيها قليلاً، كاشفةً عمّا يشبه شيطاناً يابانياً يبدأ من حواشي جواربها ويمتدّ نحو أعلى فخذها قبل أن يختفي عند أعضائها التناسلية.

قال إليوت مستسلماً:

- هذه تحفة فنية حقيقية، ولكن ليس هذا هو بالضبط النمط الذي يستهويني.

- للأسف. أنت رجلٌ وسيم، وليس هناك ما هو أكثر إثارة لدى امرأة من وجود وشمٍ على جسم حبيبها!

- لا أعتقد أنّ صديقتي ستشاطركِ هذا الرأي.

- غالباً ما تحتفظ النساء بمفاجآت.

- في المقابل، أنا أودّ فعلاً أن أصدّق هذا.

استلّ قلماً من الجيب الداخلي لسترته واستخدمه لكي يخربش بضع كلمات على غلاف مجلّة.

قال وهو يمدّ المجلة نحو كريستينا:

- هذا ما أُريده.

قطّبت المرأة الشابّة حاجبيها وقالت:

- عبارتك هذه مكتوبة بلغةٍ مشفّرة!

- لنقل إنّها رسالة شخصية، موجّهة إلى صديقٍ قديم.

تحقّقت فنّانة الوشم من إبرها الخاصّة بالرسم على الجلد.

- ستؤلمك العملية قليلاً في البداية، ثم سيخفّ الألم. ألا تتراجع في قرارك؟

أغمض إليوت عينيه لبُرهة. هل يُمكن للمرء أن يتنقّل حقّاً بين الحاضر والمستقبل؟ بدا أنّ الأمر عبثيّ، ولكن لا بدّ من خوض التجربة. لكي يتشجّع، تخيّل العبوس الذي سيبديه شخصه الآخر، بعد ثلاثين سنة في المستقبل، إذا ما تلقّى رسالته.

قال إليوت جازماً:

- لن أتراجع.

بينما كان الضجيج المرعب للجهاز يغزو الغرفة، أكّدت كريستينا على ما يشبه عقيدة:

- الجسد هو أحد آخر فضاءات حريتنا.

* * *

2006

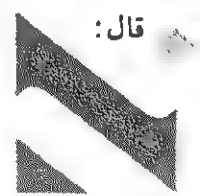
إليوت في سنّ الستين

بعد أن سحب مقبض طرّادة الماء على عبوة الأقراص. استلقى إليوت، وهو لا يزال تحت صدمة خيبة الأمل، على الأريكة الموجودة في زاوية الصالون. كان لديه موعد مع أنجي عند الظهيرة ولم يشأ أن يُقابل ابنته بوجهٍ يشبه وجوه الموتى الأحياء. كان يُصغي مغمض العينين إلى تنفّسه الذي لا بدّ أنّه قد أراده أن يكون صافياً ومنتظماً ولكنّه كان مضطرباً ولاهثاً، ويشعر بالاختناق، غير قادرٍ على استعادة أنفاسه. كان المرض الذي يفعل فعله داخل أعضاء جسده يتناقض مع عذوبة النور المنسلّ عبر المشابك الخشبية. كان يسمع عبر النافذة صخب البحر وزقزقة العصافير. في الخارج، كانت الحياة مستمرّة، ولكنّه لم يعُد جزءاً منها. رغم سطوع الشمس، اجتاحت الرعشات جسمه ولا شكّ أنّ ذلك كان بداية حمّى. في الوقت نفسه، كان يشعر بانزعاجٍ في أعلى الذراع عند بداية الكتف. لم يكن ذلك ألماً بالمعنى الدقيق للكلمة وإنّما شعور بالتنمّل. فرك بيده العضلة المخدّرة ولكن لم يكن لذلك أيّ تأثير. نهض واقفاً ونزع بلوزته ورفع كمّ قميصه.

في البداية، لم يميّز شيئاً مهمّاً: بقعة غامضة يميل لونها نحو الأخضر، بدت مثبّتة على كتفه. أقلقه ذلك فوقف أمام المرآة الكبيرة في الحمّام. في الصورة المنعكسة في المرآة، أدرك أنّ هذه البُقع الشاحبة هي في الحقيقة أحرف تتشكلّ بعضها بعد أخرى!

ظلّ مشوّشاً ومندهشاً للحظة، متسائلاً عمّا حدث له. ثم أدركَ أخيراً...

قال:



- آه، أيها اللعين الصغير!

كان قلبه المنهك يخفق، ولكنّه كان مرتاحاً. كلا. لم يكن مجنوناً. لم يحدث كلّ هذا في ذهنه فقط. قبل ثلاثين عاماً، كان الصبي الصغير يحاول أن يُرسل إليه رسالة من خلال رسم وشمٍ على جلده.

قال في نفسه وهو يقترب من المرآة: **لم يكن الصبي غبيّاً...**

هنا، حدّق في عينيه ورآها تلمع. كان ذلك حماقة، ولكنّه بكى فرحاً. لا شكّ أنّه سيموت قريباً، ولكنّه بانتظار ذلك، لم يكن قد خَرِف بعد!

كانت جملة قصيرة تمتدّ على كتفه بحروفٍ من الرصاص:

WAITING FOR

YOUR NEXT VISIT[1]

نعم، بكل تأكيد، سوف تكون هناك زيارة قادمة، إلاّ إذا...

كان غبيّاً بما فيه الكفاية لكي يتخلّص من الأقراص!

جثا فزعاً أمام المرحاض وغطس يده في أعماق حوضه، على أمل ألاّ تكون العلبة قد جُرفت من دون أن يؤمن بذلك.

كلا، ما كان عليه أن يحلم.

نهض منزعجاً، ولكنّه حاول أن يفكّر بهدوء. من أين تجري المياه؟ لم يكن يعلم تماماً: لم تكن التمديدات الصحيّة وتصليحاتها من ضمن مهاراته أبداً. فركض نحو مرآب سيارته ورفع عينيه نحو السقف ليكتشف فيه شبكة من الأنابيب. تابع الأنبوب الرئيس إلى أن

---

(1) أنتظر زيارتك القادمة.

وصل إلى صفيحة معدنية: صفيحة إزالة الدهون. بقليلٍ من الحظّ، ربّما تكون علبة الأقراص قد توقّفت عند هذا المستوى. رفع الغطاء المعدني ونبش بيديه العاريتين في الخليط الأسود من دون أن يجد فيه شيئاً.

كانت هذه نهاية المغامرة. لا بدّ أنّ علبة الأقراص قد واصلت طريقها إلى أن وصلت إلى محطّة تنقية ولن يجدها أبداً.

اللعنة، لقد أفسدَ كلّ شيء في حركة مزاجية!

أيّ محاولة أخرى كان بوسعه أن يُجريها؟ خرج إلى الشارع يائساً وراح يقرع جرس منزل أقرب جيرانه، زوجان مسنّان من متعاطي مواد دي إتش إي إيه-فياغرا، مشدودَين الوجه ومهووسَين بالحفاظ على جسدهما وغذائهما.

حيّا جارته من العتبة:

- طاب نهارك نينا.

أجابت وهي تتفحّصه من أخمص قدميه حتى قمّة رأسه، ومندهشة لرؤيته وهو يدخل بيدين مغطّاتين بطينٍ كريه الرائحة:

- طاب نهارك إليوت، ما الذي أتى بك؟

قال في نفسه: أصلاً هي لا تحبّني، أنا المجرم الذي يدخّن ويشرب قهوة ويتناول لحماً مشبعاً بالكوليسترول!.

- هل يمكن لبول أن يُعيرني بعض الأدوات؟

- ذهب بول ليسبح، ولكن تعالَ وابحَثْ في المستودع إن وجدتَ شيئاً.

لحق بها إليوت إلى المستودع المذكور الذي وجد فيه بالفعل ضالته على شكل فأس.

قالت وهي تراه يُمسكُ بالسلاح الأبيض:

- أوه. . . هل أنت متأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يُرام، يا إليوت؟

أكّد لها وهو يبتسم ابتسامة شبيهة بابتسامة جاك نيكلسون في فيلم الرعب شاينينغ:

- على أحسن ما يُرام، يا نينا.

غادر المكان لكي يعود إلى مرأبه. هناك، باشر بالتهديم المنهجي لكلّ ما يشبه، من قريبٍ أو بعيد، أنبوباً للصرف الصحي.

استغرقت العملية نصف ساعة كاملة، محدثةً فيضاناً كبيراً في المكان. كلّما حطّم أنبوباً تأكّد إن كانت علبة الأقراص قد انحصرت في زاوية منه أم لا.

لا تدع شيئاً للصدفة. اصمُدْ جيّداً طالما هناك فرصة.

هذا ما فعله على الدوام في مهنته، وخلال فترة عمله المستمرّة لخمسة وثلاثين عاماً، حدث معه أحياناً أن أنقذ حياة بعض المرضى الذين كانوا في حالة ميؤوس منها.

إذاً، لماذا لا ينجح اليوم في ذلك؟

كان إليوت، وفي يده الفأس وتغمره المياه حتى ركبتيه، يبدو مجنوناً.

قال في نفسه، واضحاً، وهو يضرب بعنف أنبوباً جديداً: **إذا ما وصلت الشرطة الآن، سوف ألاقي صعوبة في الإفلات من الاحتجاز.**

وبالمناسبة، ربّما بالفعل كانت هذه هي حاله: رجلٌ مجنون، ولكنّ المجنون يعتقد نفسه حكيماً والحكيم يعترف بأنّه ليس إلّا مجنوناً. مَن قال هذا، قبل الآن؟ شكسبير؟ يسوع؟ بوذا؟ أيّاً يكن، لقد كان محقّاً.

حتى وإن كان مجنوناً، فعلى الأقلّ، كان يشعر بأنّه حيّ.

حيّ.

حيّ.

حطّمت ضربة أخيرة من المطرقة ما تبقّى من شبكة الأنابيب.

سقط إليوت، خائر القوى، على ركبتيه في المياه الباردة جدّاً.

ظلّ على هذه الحال لبعض الوقت، منهكاً ومنهاراً.

نعم، لقد انتهى الأمر. لقد اختفت الأقراص إلى الأبد.

ومن ثمّ، فجأةً...

لقد ظهرت: علبة زجاجية صغيرة، أسطوانية الشكل تطوف بهدوء على سطح المياه.

ارتمى إليوت على العبوة كما لو أنّه يرتمي على الكأس المقدّسة.

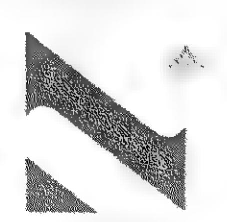
مسح يديه مرتجفاً بقميصه قبل أن يفتح العلبة المحكمة الإغلاق.

كانت الأقراص الثمانية لا تزال موجودة فيها ولم يُصِبْها البَلَل.

انهار إليوت قلقاً فوق الطين، مطبِقاً قبضته على الأسطوانة الصغيرة، وتنفّس الصعداء.

ربّما لم تكن لديه سوى بضعة أسابيع لحياته، ولكنّه استعادَ ما هو جوهري.

الأمل.



8

بوسعك أن تفعل ما تشاء، أن تفكر أو تعتقد بما تشاء، أن تمتلك كلّ علم العالم، لكن إن لم تكن عاشقاً، أنتَ لا شيء.

مارسيل سوفاجو

2006

إليوت في سنّ الستين

كان إليوت يترقّب من خلال النافذة سيارة الأجرة التي كان قد طلبها. بعد أن غاصَ في المياه الآسنة المتجمّعة في المرآب، اعتقد بأنّه سوف لن يستطيع أبداً أن يتخلّص من الرائحة الكريهة التي التصقت بجلده، لكنّ الاستحمام والثياب الجديدة التي ارتداها أعادت إليه مظهراً أكثر حضارياً. لإيقاف الفيضان، كان عليه أن يُغلق فاصل الماء الرئيس في بيته ووجد نفسه مرغماً على أن يستخدم حمّام جيرانه. لم يتبقّ عليه سوى أن يستدعي سبّاكاً لإصلاح ما أفسده ولكن هذا الأمر قد يستغرق بضع ساعات. كانت أولويته الأولى هي الذهاب إلى المدينة ليلتقي فيها بابنته القادمة مباشرةً من المطار.

نظر إلى نفسه في المرآة واكتشف أنّ مظهره لا يزال مخادِعاً من

الناحية الجسدية، ولكن «من الداخل» كان كلّ شيء يبدو منهاراً، فهو يعاني من آلام صدرية واضطرابات عضلية وحرقة في أسفل الظهر. . . كان السرطان يفعل فعله ببطء ولكن بفاعلية.

بحثاً عن حافزٍ ومنشّط، نبش في درج خزانة خشبية مطلية لكي يأخذ منها سيجارة سبق ودخّن نصفها والتي لا تحتوي سوى على التبغ. فتّش في جيبه، ولكنّه لم يعثر على ولّاعته: ولّاعة من ماركة زيبو كانت ابنته قد أهدتها له في ذكرى الألفية الجديدة. ذهب مستاءً حتى المطبخ حيث أشعل لفافته باستخدام عود ثقاب. لم يكن مدمناً على التدخين ولا مدافعاً عن الفضائل الطبية لنبات القنّب. ولكن هذا لم يمنعه من أن يسمح لنفسه اليوم باللجوء إلى هذا الإجراء الصغير في الاستطباب. سحب نفسين أو ثلاثة من السيجارة التي جعلته يشعر بأنّه قد أصبح أكثر شجاعةً. ثمّ أغمض عينيه لكي يُصفّي ذهنه، إلى أن أيقظه صوت منبّه سيارة الأجرة من تأمّله الذاتي.

* * *

كان لا يزال لديه متّسعٌ من بضع دقائق قبل موعده حينما وصل إلى لوريس داينر، المطعم المفضّل لدى ابنته. صعد إلى الطابق العلوي حيث أجلسته النادلة إلى طاولة صغيرة بجانب النافذة الزجاجية المطلّة على باول ستريت. كان إليوت، جالساً على كرسيّ عالٍ من دون مساند، يتلهّى بالنظر إلى الحركات الراقصة للطبّاخين الذين كانوا يشوون شرائح لحمٍ ويكسرون بيضاً ويمدّون شرائح من اللحم المقدّد على لوحٍ معدني كبير. كان مكاناً مميّزاً، مزيّناً بالكامل على طراز سنوات الخمسينيات، يقدّم أطباقاً كثيرة من الأطعمة الأميركية التقليدية: مأكولات ما قبل عصر الكوليسترول والأنظمة الغذائية. المأكولات التي بات من الشائع الاستهزاء بها، لكنّ

الجميع يُقدّرها ويتلذّذ بها سرّاً: البيرغر بأنواعها والبطاطا المقلية على الطريقة المنزلية والمثلّجات ومخفوقات الحليب. في وسط الصالة، كانت علبة موسيقية ملوّنة تبثّ أغاني ألفيس بريسلي، بينما في عمقها، على صفٍّ من زعانف السباحة، كانت دراجة هارلي ديفيدسون حقيقية معلّقة بالسقف بسلسلة من الحبال المعدنية.

كلّما يأتي إليوت إلى هذا المكان، يشعر بأنّه في فيلم **العودة إلى المستقبل** وكلّما يُفتَحُ الباب، يتخيّل دخول مارتي ماكفلاي مصحوباً بالمخترع دكتور براون وصديقه الوفي أينشتاين[1]. كان يفكّر في هذا الأمر حينما دخل زبونٌ جديد إلى الصالة. ولكنّه لم يكن مارتي...

كانت امرأة شابّة ذات شعرٍ أشقر مجعّد تنشر من حولها ضياءً حقيقياً.

امرأة شابّة في العشرين من عمرها.

فتاة.

ابنته.

أنجي.

شاهدها تأتي من بعيد ونظر إليها ليرهةٍ من دون أن تعلم بأنّها مُرَاقَبة.

كانت بلا شكّ ذات مظهر جميل ببلوزتها من الكشمير، الطويلة والمشمّعة وتنورتها المخملية -التي اعتبرَها قصيرة جدّاً- وجواربها الطويلة بلونٍ أسود لامع وحذائها الجلدي طويل الساق. لسوء الحظّ، لم يكن هو الوحيد الذي ينظر إليها: على الطاولة المجاورة،

---

(1) بطلا الفيلم المذكور وكلبهما.

كان شابٌّ متحاذق يهتاج أمام أصدقائه حول «القنبلة النووية» المقبلة نحوهم. ألقى عليه إليوت نظرة احتقار. بصفته أباً، كان يكره من دون استثناء هؤلاء الحاملين للتستوستيرون الذين لا يرون في ابنته سوى أداة جنسية.

أخيراً، لمحته أنجي ورفعت ذراعها بفرحٍ نحوه.

بينما تتقدّم نحوه، مشرقة وتكاد تطير فرحاً، أدرك تماماً أنّ ابنته من دون شكّ أفضل ما أنجزه في كلّ حياته. بالطبع، لم يكن الأب الأوّل الذي يشعر بهذا الشعور، لكنّ هذا الشعور كان يكتسي معنى مختلفاً الآن وقد مزّقه المرض وسوف يكسب الموت معركته الأخيرة ضدّه.

هذا فضلاً عن أنّه لوقتٍ طويلٍ لم يكن راغباً في إنجاب طفل!

كان قد ترعرع في جوّ عائليّ خانق، بين إدمان والده على الكحول والاضطراب الذهني لوالدته. لم تكن طفولته من النوع الذي تحثّه على أن يكون هو بدوره أباً.

اليوم أيضاً، الذكريات الحيّة التي لا يزال يحتفظ بها عن تلك الحقبة هي صور العنف والخوف وهو يعلم بأنّها قد أعاقت لوقتٍ طويلٍ بلوغه حالة الأبوّة.

كان من الصعب شرح هذا الأمر ولكنّ لا شكّ أنّها الخشية من ألّا ينجح في الحبّ وأن يتسبّب بالألم لأطفاله مثلما تسبّب والده بآلامه...

على أيّ حال، كان هناك أمرٌ واحدٌ مؤكّدٌ وهو أنّ فكرة أن يصبح أباً تذكّره بآلام طفولته كثيراً ولذلك رفض أن يُنجبَ طفلاً من المرأة الوحيدة التي أحبّها في حياته وظلّ التفكير في ذلك يعصر قلبه بطريقة لا تُطاق.

ثمّ ماتت إيلينا، والسنوات العشر التي تلت وفاتها كانت كابوساً لا نهاية له بالنسبة إليه. دخل في نفقٍ من اليأس ولم يعُد له متنفّسٌ سوى مات وعمله الذي تشبّث به مثلما يتشبّث بقارب نجاة.

ممّا لا شكّ فيه أنّه التقى بنساء أخريات، لكنّهنّ عبرن حياته من دون أن يتوقّفن فيها وقد حرص هو أيضاً على ألّا يستبقيهنّ. ولكن، ذات يوم، خلال مؤتمرٍ طبّي في إيطاليا، صادف طبيبة متخصّصة بأمراض القلب من مدينة ميلانو. لم يكن ذلك اللقاء سوى مغامرةٍ وجيزةٍ خلال عطلة نهاية الأسبوع، ولم يظلّا على اتصالٍ بعد ذلك. إلّا أنّها اتّصلت به بعد تسعة أشهر لتُخبره بأنّها ستضع في هذا العالم طفلة وأنّ هذه الوليدة ابنته هو. هذه المرّة، وُضِعَ أمام الأمر الواقع الذي لا مهرب منه. لا وسيلة للتملّص والتهرّب، لا سيما وأنّ الأمّ لم تكن تصلح فعلاً كأمّ ولم تحسب على الإطلاق بأنّها ستقوم بتربية الطفلة بمفردها. بعد ثلاثة أشهر من الولادة، ذهب إليوت ليجلب أنجي من إيطاليا وبموجبٍ «اتفاقٍ مشترك» لم تعُد الطفلة ترى أمّها إلّا خلال أيام العطلة.

لقد أصبح أباً من دون أن يستعدّ ويتهيّأ لذلك، وتغيّرت حياته جذرياً. بعد أن مرّ بمرحلة من الظلمات، استعادت حياته أخيراً معنى. منذ ذلك الحين، كلّ مساء، قبل أن يذهب إلى النوم، كانت حركته الأخيرة هي التأكّد من أنّ نوم ابنته طبيعي. منذ ذلك الحين، أصبحت كلمة «مستقبل» من جديد جزءاً من مفرداته، في مكانها المناسب إلى جانب «الرضّاعة» و«الحفاضات» و«حليب الأطفال».

بالتأكيد كان هناك المزيد من التلوّث والمزيد من التآكل في طبقة الأوزون والعالم الذي يجري ببطء نحو خسارته والمجتمع الاستهلاكي الذي يتناقص تحمّله وعمله الذي لا يترك له لحظة من

الفراغ. لكنّ كلّ هذه الذرائع تناقصت وزناً على نحوٍ مفاجئ أمام طفلة تزن بضعة كيلوغرامات، بعينيها البراقتين وابتسامتها الساذجة.

اليوم، بينما يشاهدها تتقدّم نحوه في هذا المطعم، تذكّر السنوات الأولى، حينما كان يقوم بتربيتها لوحده، حتى من دون أن تكون هناك امرأة تساعده في ذلك. في البداية، اعتقد جازماً بأنّه سوف لن ينجح في ذلك وقد استبدّ به الهلع لفترة وجيزة. ما الذي يفعله المرء ليكون أباً؟ لم تكن لديه أيّ فكرة عن ذلك ولم يتمّ شرح ذلك في أيّ مكان. بالتأكيد، كان جرّاحاً متخصّصاً بالأطفال، لكن ذلك لم يكُن ذا فائدة كبيرة في الحياة اليومية. لو أنّها كانت بحاجة إلى خياطة في البُطين الأيسر أو إجراء عملية في الشريان التاجي، لكان مفيداً لها، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك.

ثمّ فهم السرّ الكبير: لا يولَدُ المرء أباً، بل يُصبح كذلك. وذلك من خلال ارتجال القرارات التي يعتقد المرء أنّها صحيحة بالنسبة إلى طفله.

لقد انتظر أربعين عاماً لكي يُدرك بأنّه ليس هناك جوابٌ آخر، ولا حلّ آخر سوى الحبّ.

أي تماماً ما لم تكفّ إيلينا عن تكراره عليه منذ البداية، لكنّه كان قد اعتاد أن يُجيبها: «ليت الأمر بهذه السهولة».

ومع ذلك، كان الأمر بهذه السهولة.

* * *

قالت أنجي وهي تنحني لكي تقبّله:

- مرحباً، بابا.

أجاب وهو يلمّح إلى تنورتها القصيرة وحذائها عالي الساق:

- مرحباً، وندر ومان(*). كيف مرّت رحلتك؟

- سريعة جدّاً: نمتُ طيلة الوقت!

جلست أنجي على الكرسي أمامه ووضعت على الطاولة سلسلة كبيرة من المفاتيح وهاتفاً محمولاً صغيراً جدّاً وملبّساً بمعدن الكروم.

قالت وهي تمسك بقائمة الطعام لتتأكّد من أنّ الهمبرغر المفضّل لديها لا يزال موجوداً ضمن القائمة:

- أتضوّر جوعاً!

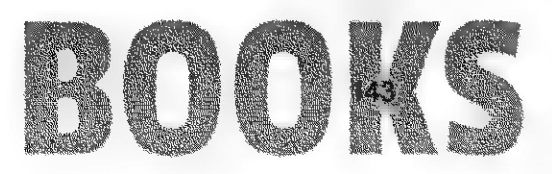
بعد أن اطمأنت لهذا الأمر، انخرطت في حديثٍ حماسيٍّ وهي تروي ألف نكتة عن دراستها للطبّ وحياتها في نيويورك.

كانت فتاة ذكيّة وكريمة، مثالية جدّاً وحريصة دائماً على أن تُتقن كلّ ما تفعله. لم يكن إليوت هو مَن دفعها إلى اختيار العمل الطبّي، وإنّما هي مَن التفتت إلى المهن الأخرى وأكّدت بأنّ هذه المهنة هي التي تُناسبها.

لقد وجدها مرتاحة ومشرقة ورائعة. مفتوناً بضحكاتها المجلجلة المتعاقبة، تساءل في نفسه كيف سيكون بوسعه أن يُخبرها بمرضه. ليس من السهل على فتاة في العشرين من عمرها أن تعلم فجأةً أنّ والدها مصابٌ بالسرطان في مراحله الأخيرة وبأنّه لم يعُد لديه سوى شهرين أو ثلاثة في هذه الحياة...

كان إليوت يعرف ابنته جيّداً. حتى في أثناء سفرها إلى نيويورك والعيش فيها، ظلّا قريبين إلى بعضهما، على الرغم من مظهرها وجسدها اللذين يوحيان بأنّها قد أصبحت امرأة ناضجة، إلّا أنّها

(*) المرأة الخارقة أو المعجزة، وهي إحدى شخصيات دي سي كومكس. (المترجم)



كانت لا تزال طفلة عاطفية وكان يشكّ كثيراً في أنّها سوف تُحسن التصرّف حيال ما سيكشفه لها.

كان في مهنته يضطرّ لمرّات عديدة في كلّ أسبوع أن يُخبر أناساً يتملّكهم الحزن بأنّ طفلهم أو شريكهم أو أحد والديهم لم ينجُ من العملية الجراحية. لطالما كانت هذه اللحظة عصيبة عليه، ولكن بمرور الزمن، تعلّم كيف يستوعب هذا البُعد في مهنته.

نعم، بصفته طبيباً، كان الموت قريباً منه كلّ يوم، لكنّه موت الآخرين لا موته هو...

بالطبع كان يساوره بعض الخوف ممّا سيحصل له. لم يكن يؤمن بالحياة الأبدية ولا بتناسخ الأرواح. كان يعلم بأنّ ما ينتظره ليس مجرّد نهاية حياته الدنيوية، بل وأيضاً نهاية حياته القصيرة جدّاً. سوف يُحرَق جسده في محرقةٍ وَيَنْثُر مات رماده بلا شكّ في مكانٍ لطيف وكفى! انتهت اللعبة!

هذا ما أراد أن يشرحه بهدوء لابنته: عليها ألّا تقلق بشأنه لأنّه سوف يعرف كيف يواجه الموقف. من جهة أخرى، إذا ما جرى التفكير موضوعياً بالأمر، لم يكن موته خسارة مطلَقَة: لا بأس لو أنّه عاش لبضعة عقودٍ إضافية، لكنّه حظي بالوقت لكي يتذوّق طعم ملذات الحياة وأن يجرّب أفراحها وأتراحها ومفاجآتها...

سألته أنجي فجأة:

- وأنت، هل أنت بخير؟

نظر إليها بحنان وهي ترفع الخصلة المتمرّدة من شعرها والتي نزلت فوق عينيها الزرقاوين الشبيهين بعيني كلب الهاسكي.

أحسّ آنذاك بغصّة في حلقه واجتاحه التأثّر والانفعال.

اللعنة، هذا ليس أوان الضعف!

- عليّ أن أُخبركِ بأمر، يا عزيزتي. . .

احتجبَت ابتسامة أنجي خفيةً كما لو أنّها استشعرت خبراً سيّئاً.

- ماذا هناك؟

- لديّ ورمٌ في الرئة.

قالت بذهول:

- ماذا؟

- أنا مصابٌ بالسرطان، يا أنجي.

تشوّش ذهنها، فصمتت لبضع ثوانٍ ثمّ سألت بصوتٍ مخنوق:

- سوف، سوف. . . تنجو منه؟

- كلّا، يا عزيزتي، لقد انتشر في كلّ أنحاء جسمي.

- تبّاً. . .

تحت تأثير الصدمة، أمسكت برأسها بين يديها للحظة قبل أن ترفعه. سالت دمعةٌ على طول خدّها، ولكنها لم تتخلّ تماماً عن الأمل.

- ولكن. . . هل راجعت أطبّاء اختصاصيين؟ توجد اليوم تقنيات جديدة لمعالجة السرطانات في الخلايا الصغيرة. ربّما أنّ. . .

قاطعها بنبرة جازمة:

- لقد فات الأوان.

مسحت عينيها بكمّ بلوزتها، لكن بلا جدوى، فقد انهمرت دموعها من تلقائها دون أن تستطيع إيقافها.

- ومنذ متى تعلم ذلك؟

- منذ شهرين.

- ولكن. . . لماذا لم تُخبرني بأيّ شيء؟

- لكي أحميكِ، لكي لا أتسبّب لكِ بالألم والعذاب...

قالت محتدّة:

- إذاً، منذ شهرين، كلّما نتحدّث عبر الهاتف مع بعضنا، تدعني أطرح عليك مشاكلي الصغيرة من دون أن ترى بأنّه من المناسب أن تخبرني بأنّك مصابٌ بسرطان؟

- كنتِ تدخلين في سنتك الأخيرة في كليّة الطب، يا أنجي، وهذه مرحلة تشكّل ضغطاً نفسياً عليك و...

فصاحت به وهي تقوم عن الطاولة:

- أنا أكرهك!

حاوَلَ أن يستبقيها، ولكنّها دفعته وغادرت المطعم وهي تجري.

* * *

كان المطر ينهمر مدراراً حينما خرج إليوت بدوره من المطعم والسماء مكفهرّة بغيوم سوداء والرعد يدوّي قويّاً. تحسّر الطبيب على كونه لا يحمل معه لا مظلّة ولا رداءً واقياً من المطر، لأنّ سترته الكتانية ابتلّت في أقلّ من ثانيتين. أدرك سريعاً جدّاً بأنّه سيواجه مشقّة في العثور على أنجي. كانت الشوارع مزدحمة وسيارات الأجرة والحافلات تهجُم لتظفر بالركاب.

كانت نيّته الأولى هي الذهاب إلى محطّة عربات النقل بالكابلات، عند تقاطع شارعَي باول وماركيت، لكنّه سرعان ما تخلّى عن هذه الفكرة: فالمطر لم يثنِ السيّاح عن العَدْوِ جماعياً نحو هذا المكان لكي يروا عمّال الطوارئ وهم يُخرجون السيارات المعطّلة عن المسار بقوة العضلات.

تحسّب للانتظار الطويل وتوجّه بدل ذلك نحو يونيون سكوير على أمل أن يصل «مشياً على القدمين» إلى أحد القطارات المعلّقة.

كان الازدحام في أوّل قطارين شديداً لدرجة أنّه لم يفكّر حتى بتجريب حظّه. بالمقابل، نجح في التشبّث بالثالث في اللحظة اقترب فيها من الجزء الأكثر انحرافاً من طريقه.

ظلّ في القطار الكهربائي حتى آخر محطّة وهي مرسى الصيادين، الميناء القديم للصيد في سان فرانسيسكو، والذي غزته الآن المطاعم السياحية ومتاجر التذكارات. مرتعشاً من البرد، تجاوز إليوت المساند العارضة لثمار البحر حيث كان بائعو أسماك ثرثارون يقومون بتقشير سرطانات حيّة قبل أن يغطسوها في قدور كبيرة منصوبة على طول الأرصفة. تضاعفت شدّة هطول المطر حينما وصل إلى ساحة غيرارديلي سكوير، فتجاوز متجر الشوكولاتة القديم ليصل إلى فورت ماسون.

واصل طريقه بهمّة على الرغم من أنّه كان مبتلّاً حتى العظم ويرتجف بأكمله. امتزجت الرياح التي تهبّ بصخبٍ شديد مع المطر ولسعت وجهه. استعرّت الحرقة في رئتيه وفي أسفل ظهره نتيجة الجهد الجسدي الذي بذله، ولكنّها لم تمنعه من العثور على ابنته. كان يعلم إلى أين تذهب عادة في لحظات حزنها.

انتهى به المطاف بالنزول على الشاطئ الرملي بين حديقة مارينا غرين والميدان العسكري القديم في كريسي فيلد. كان البحر هائجاً والأمواج الهائلة تُلقي بزبدها على امتداد عشرات الأمتار. ضيّق إليوت حدقة عينيه: كان جسر غولدن غيت قد اختفى تقريباً، مبتَلَعاً من قبل الضباب والغيوم المنخفضة. كان الشاطئ مقفراً خالياً من الناس، وقد تغطّى بأكمله بستارٍ سميكٍ من المطر. تقدم أكثر إلى الأمام، وصرخ بأعلى صوته:

- أنجي! أنجي!

في البداية، وحدها الريح أجابته. غَشَتْ عيناه وشعر بالوهن والضعف، على وشك أن تنهار قواه.

ثمّ بدأ بالتخمينات من دون أن يعرف تماماً أين تكون، إلى أن سمع:

- بابا!

ركضت أنجي نحوه مخترقة الحواجز المرتفعة المتشكّلة من المطر الغزير.

قالت وهي تترجاه:

- لا تمُت! لا تمُت!

ضمّها إليوت بقوّة إليه وظلّا متعانقين لوقتٍ طويل، مبلّلين، منهكين ومحطّمين من جرّاء الحزن والتأثّر.

بينما كان يواسي ابنته، أقسم إليوت على أن يصارع الموت بكلّ قواه لكي يجعله يتراجع إلى أقصى حدوده.

ثمّ، حينما تحين اللحظة المشؤومة، سوف يرحل، مرتاح البال، لأنّه يعلم أنّ بضعةً منه سوف تبقى ما وراء العدم.

وأدرك أنّه ربّما لهذا السبب يُنجب البشر أطفالاً.

9

ليكُنْ لديك القليل من الأصدقاء والكتب
ولكن أحسِن الاختيار.

حكمة شعبية

1976

إليوت في سنّ الثلاثين

كان إليوت قد أنهى لتوّه ليلة مناويته حينما غادر المستشفى في برودة الصباح الباكر. غارقاً في أفكاره ومعذّباً بالهموم، لم يُلاحظ في الحال تجمهُر الناس المجتمعين في المرأب. هناك، وسط سيارات الإسعاف وشاحنة رجال الإطفاء، كان مات يستعرض جسده أمام مجموعة صغيرة من الممرّضات. نظر إليه إليوت، بمزيجٍ من التسلية والانزعاج: بزّته المخملية السكرية اللون وقميصه المقزّز ذي الياقة الشبيهة بكعكة، كان منظر مات مضحكاً. كان يتمايل مثل ترافولتا سابقٌ عهده على إيقاعات الديسكو المنبعثة من مذياع سيارته. كان الليل قد حلّ، لكنّ نور أضواء سيارته الكورفيت يوفّر إضاءة عرضه الارتجالي.

وعلى طريقة أحد أعضاء فرقة بي جيز، هتف بصوتٍ عالٍ:

- *You Should Be Dancing!*

منحته ابتسامة واسعة على أسنانه المتفرقة هيئة طفولية ومحبّبة، وبطريقة ما، لم يستطِعْ إليوت أن يمتنع عن الإعجاب بهذا الجانب من شخصيته القوية والخالية من التعقيد.

سأل وهو يقترب من السيارة:

- ماذا تفعل هنا؟

ردّد الفرنسي وهو يُمسك بكتف شريكه:

- *You Should Be Danciiiiiiing!*

حاول أن يجرّه إلى حلقة رقصه، لكنّ الطبيب رفض أن يلعب اللعبة. قال بلهجة قلقة وهو يشمّ أنفاسه الفائحة برائحة الكحول الكريهة:

- هل شربتَ أم ماذا؟

- امنحني دقيقة واحدة لكي أحيّي جمهوري ومن ثمّ سأشرح لك كلّ شيء.

قطّب إليوت حاجبيه وجلس في سيارة الكورفيت في حين كان مات يخطو آخر خطواته في الرقص. متأثراتٌ بلطف الشخصية وظرافتها، صفّقت الممرّضات لأدائه بمرح قبل أن ينصرفن إلى عملهنّ.

قال وهو يُنهي أداءه بانحناءة امتنان:

- سيّداتي، لقد كان هذا شرفاً لي!

ومن ثمّ، مبتهجاً بنجاحه الصغير، قفز من فوق باب السيارة ليستقرّ بأعجوبة على مقعده.

ثمّ قال وهو يلتفت إلى زميله:

- والآن، اربط حزام الأمان!

قال إليوت غاضباً:

- ما الذي تفعله، هنا؟

من دون أن يُجيب عن السؤال، أقلَعَ مات بالسيارة إلى الوراء واستدارَ نصف استدارة على الإسفلت.

قال له موضّحاً وهو يُشير إلى حقيبة محصورة خلف المقاعد:

- لقد مررتُ على بيتك وجلبتُ أمتعتك. أمّا بخصوص قارورة الويسكي خاصّتك، فهي فارغة الآن...

- كيف ذلك، أمتعتي؟

- نعم، طائرتك تُقلع في الساعة التاسعة.

- أيّ طائرة؟

أقلع مات بالسيارة بسرعة مُحدِثاً صريراً في عجلاتها وخرج من المرأب. نزل إلى فان نيس حيث أطلقت دعسة جديدة على دعاسة الوقود قوّة 300 حصان لمحرّك V8 وأتاحت للسيارة أن تتجاوز سرعة 100 كم في الساعة.

قال إليوت قلقاً وهو يتشبّث بمقعده:

- أوه... هل سبق لك وأن سمعتَ عن شيء اسمه تحديد السرعة؟

- آسف، ولكننا فعلاً متأخرين...

- هل يُمكنني أن اعرف على الأقلّ إلى أين نذهب؟

أجاب مات بهدوء:

- أنا، سوف لن أذهب إلى أيّ مكان. أنت، سوف تذهب لمقابلة إيلينا في فلوريدا.

- ماذا؟

- سوف تتصالح معها وتطلبها للزواج وتنجبان طفلين أو ثلاثة أطفال جميلين...

- أنت مجنون أم ماذا؟

- في هذه اللحظة، أعتقد أنّك أنت مَن فقدت عقلك، يا إليوت. اعترف بذلك، هذه الحكاية المزعومة عن السفر عبر الزمن أثّرت فيك وشوّشت ذهنك.

- لقد أثّرت فيّ وشوشّت ذهني لأنّها حصلت معي فعلاً!

رفض مات أن يُعيد فتح هذا النقاش وأراد أن يبقى مطمئناً:

- تحدّث مع إيلينا، وأعِدْ علاقتكما إلى نصابها وسوف ترى أنّ كلّ الأمور تسير سيراً حسناً.

- ولكن لا يمكنني أن أتغيّب عن عملي بهذه الطريقة! لدي الكثير من العمليات الجراحية المبرمجة لهذا الأسبوع و...

أوقَفَه مات على الفور:

- أنت طبيبٌ جرّاح، أنت لستَ الله! سوف يجد المستشفى منْ يَحلّ محلّك.

أُغري إليوت فجأة باحتمال أن يلتقي المرأة التي أحبّها. أحسّ بالحاجة إلى ذلك وضرورته، ولكنّه لم يكُن مهيّأً بعد لترك ميول ورغبات قلبه تتغلّب على ضميره المهني. لا سيما وأنّه كان يمرّ في فترة سيئة: كان رئيس قسمه، المخيف والمفزع الدكتور أميدورا، يحكُم بقسوة على عمله ويستلذّ بمجادلته طيلة النهار.

- اسمع يا مات، أشكرك على مساعدتك، ولكن لا أعتقد أنّ هذه فكرة حسنة. لا أعمل في هذا المستشفى إلّا منذ بضعة أشهر ويجب أن أنجح في إثبات نفسي فيه، خصوصاً وأنّ لديّ رئيس قسمٍ يعتبرني مخبولاً غير جدير بالثقة، وبالتالي، إذا ما تغيّبتُ لبضعة أيام، سوف يُدفعني ثمن ذلك ولن يكون بوسعي أبداً أن أحصل على منصبٍ في المستشفى.

هزّ مات كتفيه.

- لقد تكلّمتُ مع صاحبك أميندوزا ووافق على أن يُحرّرك حتى يوم الاثنين القادم.

- هل تمازحني؟ تكلّمتَ مع الدكتور أميندوزا؟!

- طبعاً.

- طبعاً «أنت تمازحني» أم طبعاً «تكلّمتَ مع الدكتور أميندوزا»؟

هزّ مات رأسه:

- رأى طبيبك الشهير بوضوح أنّك لستَ على ما يُرام في الأيام الأخيرة هذه. ولعلمك، هو معجبٌ بك كثيراً.

- أنت تمزح...

- أخبرتني الممرّضات بذلك. في المستشفى، أميندوزا يروي للجميع أنّك جرّاحٌ ممتاز.

قال إليوت، محتجّاً:

- للجميع ما عداي أنا...

- نعم، ولذلك أنا هنا: لكي أضع أفكارك في نصابها حينما تحتاج إلى ذلك.

كانت الغيوم تنقشع في الأفق بهدوء، تاركة نوراً وردياً يتسرّب من بينها، مبشّرة بنهارٍ جميل. نبش مات في الجيب الداخلي لسترته وأخرج منه بطاقة طائرة:

- ثِقْ بي، أنا أعرف ما هو خيرٌ لك.

أحسّ إليوت أنّ دفاعاته تنهار، لكنّه حاول للمرّة الأخيرة أن يُقاوم.

- وماذا عن راستاكوير؟

- لا تقلق بشأن كلبك الصغير. سوف أقوم بإطعامه كلّ يوم.

وإذ لم تبقَ هناك أيّة أعذار، وافق الطبيب في النهاية على أخذ البطاقة بامتنان، وهو يتأكّد تماماً من حظّه في أن يكون لديه هكذا صديق.

خلال لحظة خاطفة، تذكّر الظروف الغريبة للقائهما الأوّل، قبل عشرة أعوام، خلال حادثٍ مأساوي لا يتذكراه أبداً. هذا الصباح، ربّما أراد أن يقول شيئاً ما لمات لكي يعبّر له عن امتنانه، ولكن، مثل كلّ مرّة، لم يجد الكلمات المناسبة، فكسر الفتى الفرنسي حاجز الصمت.

- لو لم ألتقِ بك، هل تعلم لكنتُ في أيّ مكانٍ الآن؟

ولأنّ إليوت هزّ كتفيه ولم يُجب بأيّ شيء، قال مات ببساطة:

- لكنتُ ميّتاً.

- هلّا توقفت عن ترّهاتك؟

- ومع ذلك، هذه هي الحقيقة وأنت تعلم ذلك.

نظر إليوت إلى شريكه خلسةً. كانت الثياب المجعّدة لمات وعيناه المحمرّتان من قلّة النوم تشي بأنّه قد قضى ليلة ساهرة. ولم تكن هذه العلامة هي الوحيدة التي تثير قلق الطبيب الشاب، بل والسلوك الخطير لصديقه وسُكره وتلميحاته المتكرّرة إلى الموت وإلى أشباح الماضي...

أصبحت الحقيقة ماثلة أمام عينيه الآن وأدرك أنّ مات هو الآخر يمرّ بمرحلة من الاكتئاب! كان هذا المرح الذي يُظهره في كلّ الظروف يُخفي جانبه المظلم والمؤلم وكان ابتهاجه الطبيعي يترك مكانه أحياناً للأفكار السوداء وللإحباط.

قال الشابّ الفرنسي معترفاً:

- هل تُريد أن أخبرك بأمر؟ كلّ صباح، حينما أستيقظ، أنظر

إلى السماء والبحر وأقول لنفسي إذا كنتُ لا أزال هنا وأستمتع بهما فأنا مدينٌ لك بذلك.

- أنت ثملٌ، يا مات!

اعترف مات:

- هذا صحيح، أنا ثملٌ. أنت تُنقذ الأرواح وأنا أثمل. أنا غير قادرٍ على فعل الكثير سوى معاكسة الفتيات والتظاهر بأنني...

صمت لبضع ثوانٍ قبل أن يُضيف:

- ولكن هل تعرف؟ ربّما هذه هي مهمّتي على الأرض: أن أعتني بك وأساعدك كما أفعل.

تكلّم برزانة في محاولة لإخفاء تأثّره ولكي لا يدع مجالاً ليسود صمت ثقيل. وجّه إليوت النقاش نحو موضوعٍ أكثر خفّةً. صفّر بإعجابٍ وهو يتفحّص مشغّل أشرطة الكاسيت من آخر طراز والذي تمّ تركيبه حديثاً:

- جهازك لا بأس به!

علّق مات موضّحاً، وهو الآخر غير ممتعضٍ من الحديث حول أمرٍ آخر:

- نعم، مكبّر الصوت باستطاعة 5 × 2 واط.

- هل اشتريت آخر كاسيت لبوب ديلن؟

ردّ مات ساخراً:

- لقد ولّى زمن ديلن، يا عزيزي!

ثمّ نبش في الصندوق الأمامي بجانب لوحة المفاتيح في السيارة ليُخرج منه شريط كاسيت مع غلاف رائع باللونين الأسود والأبيض، وقال:

- المستقبل هذا هو.

سأل إليوت وهو لم يسمع قط به:

- بروس سبرينغستين؟

فروى له مات كلّ ما يعرفه عن مغني الراب الشابّ غير النمطي الذي كان يلقى نجاحاً متنامياً من خلال غنائه عن حياة الطبقات الشعبية في نيو جيرسي.

خمّن وهو يُدرج الكاسيت في الجهاز:

- سوف ترى، يا رجل، هذا شيءٌ خارق.

رنّت أنغام أغنية *Born to run* بينما كانت الشمس تُرسل أولى أشعّتها. استسلم الصديقان حتى آخر الطريق للموسيقى، كلٌّ منهما غارقٌ في أفكاره في مكانٍ آخر، ولكنّهما كانا معاً...

وأخيراً لاح المطار في الأفق. سلك إليوت الاتجاه الصحيح على الطريق الفرعي المؤدي إلى محطّات النقل وبوصفه من أتباع قيادة السيارات الرياضية، قام بحركة انزلاقٍ صغيرة بالسيارة أمام صالة المغادرة.

- هيا، أسرع.

أمسك إليوت بحقيبته وتوجّه جرياً نحو الأبواب الزجاجية. كان قد قطع ما يُقارب عشرة أمتار حينما التفت إلى مات وصاح به:

- إذا ما تحطّمت طائرتي ووصلتُ أوّلاً إلى السماء، هل أحجز لك مكاناً؟

أجاب مات موافقاً:

- نعم، مكانٌ دافئ، بجانب مارلين مونرو... وليس بعيداً جدّاً عنك.

10

«ليس الحبّ هو الرباط الأقوى بين مخلوقين،
إنّه الجنس».
تارون ج. تيجبال، بعيداً عن شانديغار، ص 11.

«ليس الجنس هو الرباط الأقوى بين مخلوقين،
إنّه الحبّ».
تارون ج. تيجبال، بعيداً عن شانديغار، ص 670.

1976

إليوت في سن الثلاثين

«أيها السيّدات والسادة، ستهبط طائرتنا قريباً في أورلاندو. تفضّلوا بالالتزام بأماكنكم، وارفعوا المساند الظهرية لمقاعدكم وتأكّدوا من أنّ أحزمتكم مربوطة».

ترك إليوت نافذته التي كان ينظر منها إلى الخارج لكي يلتفت إلى صفّ المقاعد في وسط الطائرة. كان نصف عدد مقاعد الطائرة فارغاً. لم تفلح جهود مات في إزالة شكوك إليوت، فالطبيب الشابّ لم يعد يشكّ فيما عاشه من تجربة، وظلّ طيلة الرحلة يتفرّس في وجوه الركّاب ليتأكّد من أنّ «شخصه الآخر» البالغ ستين عاماً ليس

بينهم. منذ أن أكّدت بصمات الأصابع هويّة زائره الغريب، كان ينتظر زيارته المقبلة بمزيجٍ من القلق ونفاد الصبر.

حطّت الطائرة بسلاسة. ومن دون أن يضيّع وقتاً، استلم إليوت حقيبته واستأجر سيارة قاصداً أوشن وورلد. بعد ليلة من المناوبة ورحلة من ستّ ساعات لم يستطِعْ خلالها أن ينام، كانت كلّ أعضاء جسده مخدّرة ويتهاوى من شدّة التعب. أنزل زجاج نافذة السيارة من طراز فورد موستانغ لكي يستنشق بعضاً من الهواء البحري. هنا، الطقس أجمل وألطف بكثير مما هو عليه في سان فرانسيسكو. لم يكن الخريف قد حلّ بعد على فلوريدا التي تحظى بطول مدّة فصل الصيف. وصل إلى إنترناشيونال درايف المُحاط بمروجٍ خضراء جميلة وفنادق فاخرة جديدة، ليرى أنّ جوّاً من الاحتفال والأعياد الدائمة يخيّم على المدينة. بدا له كلّ ذلك زائفاً ولكنه استسلم للعبة.

ما إن ركن سيارته في المرأب الكبير لحديقة أوشن وورلد، تردّد في الاتصال من مقصورة هاتف لكي يُعلِم إيلينا بوصوله. في النهاية، فضّل أن يُعدّ لها مفاجأة وأن يدفع ثمن بطاقة دخوله مثل أيّ سائحٍ آخر.

كانت الحديقة المائية وحدها مدينة صغيرة تمتدّ على مساحة ستين هكتاراً ويعمل فيها بضع مئات من الموظفين. وكعارفٍ بالمكان، خمّن إليوت المكان الذي قد يجد فيه إيلينا. ولكي يصل إلى ذلك المكان، اجتاز الحديقة الجبلية، المأهولة بطيور النحام الوردية اللون، والتي تحيطُ بالحوض الاستوائي، ثمّ تُفضي إلى الساحل الاصطناعي الصغير الذي يُستخدَم كنقطة تجمّع السلاحف العملاقة. من هناك، سار بجانب حظيرة حيث يطوف رهطٌ من

التماسيح الكسولة بين سطح المياه وقاعها ليصل في النهاية إلى حوض الحيتان.

كان المكان مثيراً للإعجاب: كانت الحيتان الستّة لحديقة أوشن وورلد تعيش في حوضٍ بعمق اثني عشر متراً يحتوي على خمسة وأربعين مليون لتر من مياه البحر. كان وقت الاستراحة بين عرضين والمدرجات شبه خالية. دون أن يُلفت الانتباه، أخذ إليوت مكانه على أحد المقاعد المكشوفة ليُراقب المدرّبين وهم يتحركون بنشاط حول الحيتان. لم يستغرق وقتاً طويلاً للعثور على إيلينا، فقد كانت المرأة الوحيدة ضمن الفريق. متحزّمة في بذّة غطس، كانت تقوم بدور طبيبة أسنان وهي تُصلح بواسطة مثقبٍ سنّاً لأحد الحيتان العملاقة والذي كان ينظر إليها فاتحاً فكّه. ارتعش إليوت وفكّر في مدربي السيرك الذين يضعون رأسهم في فمِ أسدٍ وهو يعلم تماماً أن هذه المقارنة سوف لن تروق لإيلينا...

كانت إيلينا، بقامتها الممشوقة وأطرافها الطويلة وقد ابتلّت بالماء تماماً، جميلة مثل حورية بحر، ومتألّقة مثل الماسةٍ وسط مصنوعاتٍ زجاجية. أحياناً، حينما كانا يذهبان معاً إلى المطعم أو إلى متجرٍ، كان يدعها تدخل أوّلاً وخلال ثانيةٍ، كان الناس يتساءلون أيّ رجلٍ قد يرافق هكذا فتاة رائعة ومذهلة. حينما كانت الأنظار تتّجه أخيراً نحوه، كان يعتقد على الدوام أنّه يقرأ في تلك النظرات قليلاً من خيبة الأمل.

حول الحوض المائي، كان مدرّبان يدوران حول إيلينا، كما لو أنّهما ينجذبان إليها بفعل جمالها الأخّاذ. كانت كزميلة لطيفة تضحك لنكاتهما وهي تُبقيهما مع ذلك على مسافة منها.

هل كان بمستوى امرأة كهذه؟ هل نجح في جعلها سعيدة؟

تهرّب لوقتٍ طويل من هذه الأسئلة وتجنّب طرحها على نفسه، مكتفياً بأن يعيش اللحظة الراهنة، ولكنّه ارتضى اليوم أن يطرحها.

كانا بكلّ تأكيد لا يزالان يحبّان بعضهما، لكن الحياة والعمل فصلهما قليلاً عن بعضهما. بسبب بُعد المسافة ومهنة كلٍّ منهما تتطلّب الكثير من الالتزام، كانا يعيشان علاقتهما منذ فترة على نحوٍ متقطّع.

غالباً ما كان يتساءل عن مصير حياته، ما لم يلتقِ بها قبل عشرة سنوات. بلا شكّ، كانت قد جعلته أفضل حالاً: لم تكن غريبة عن مهنته كطبيب، وقد منحته الطمأنينة وفتحت عينيه على حقائق العالم. ولكن ماذا بشأنه هو؟ ماذا فعل من أجلها؟ ماذا قدّم لها؟ ربّما ستستيقظ ذات صباح وتتبيّن بأنّها قد أهدرت وقتها معه.

إذاً، كان عليه أن يُقرّر أن يخسرها.

أخسرك... همسَ بهذه الكلمة من بعيد كما لو أنّها تستطيع أن تسمعه.

على أيّ حال، كان متأكّداً من أمرٍ واحد: سوف يفعل كلّ ما بوسعه لكي لا يأتي ذلك اليوم أبداً. أمّا بالنسبة إلى معرفة ما يستطيع أن يقدّمه لها... هل سيوافق على ترك عمله في المستشفى وحياته في سان فرانسيسكو لكي يأتي ويعيش معها في أورلاندو؟ لم يستطع أنّ يحسم الجواب عن هذا السؤال ومع ذلك أحسّ بأنّه قادرٌ على أن يَهَبَ حياته من أجلها، الأمر الذي لم يكن في النهاية سيئاً للغاية.

منعشاً بهذه الحقيقة الواضحة، نهض من مكانه في المدرّجات، مقرّراً بأنّ الوقت قد حان ليقطع الاستعراض الغرامي للفتيين الوسيمين اللذين كانا يدوران حول إيلينا ويحاولان إغراءها.

نادى في صوتٍ مراهق كان يبيع بالونات منفوخة بالهيليوم:

- يا فتى!
- نعم يا سيّد.
- كم ثمن بالوناتك؟
- دولاران مقابل بالونين.

أعطاه إليوت عشرين دولاراً، وهو ما يكفي لشراء كلّ ما لديه. متخفّياً تحت رايته الجديدة، اقترب من الحوض من دون إثارة صخبٍ.

قاطعه أحد المدرّبين:

- هذه المنطقة ممنوعة على الجمهور.

كان إليوت يعرف بعض الموظّفين، لكنّه لم يكُن قد التقى قطّ بهذا الموظّف من قبل. تفرّس فيه ولاحظَ نزعة عدائية في نظرته.

قال في نفسه وهو يواصل طريقه على الرغم من التحذير: هذا الشخص من النوع الذي يشارك في مسابقة من يتبوّل لأطول مسافة.

مهما يكن، هذا المغفّل لن يُفسد عليّ مفاجأتي.

لكنّ الآخر كان له رأي آخر. صاحبه وهو يدفعه:

- هل أنت أصمّ أم ماذا؟

كاد إليوت أن يسقط أرضاً واضطرّ أن يترك حزمة البالونات لكي يحافظ على توازنه.

هتف بالمعتدي بانزعاج:

- أيّها المجنون!

وقف المدرّب الشاب أمامه بثبات ويده مكوّرة بقبضة قوية.

سألت إيلينا وهي تتقدّم نحوهما:

- ماذا يحدث هنا؟

قال الموظّف مُوضحاً وهو يشير إلى إليوت:

- هذا الرجل يتصوّر أنّه في بيته!

بينما كانت البالونات المنفوخة بغاز الهيليوم تتطاير في السماء، اكتشفت إيلينا بذهول وجه الرجل الذي أحبّته وظلّت للحظة مذهولة.

قالت وهي تلتقط أنفاسها:

- حسناً يا جيمي، أنا سأتكفّل بأمره.

استدار المدرّب عن إليوت بحسرة.

غمغم وهو يقصده:

- أبله وضيع!

أجابه إليوت بالنبرة نفسها:

- أحمقٌ لعين!

بينما كان الموظّف يعود إلى موقعه متردّداً، نظر إليوت وإيلينا إلى بعضهما بصمت، وجهاً لوجه، يبعد كلٌّ منهما عن الآخر لمسافة مترين.

- كنتُ قريباً من هنا، ولذلك...

- هذا هو، اعترِفْ أنّكَ لا تستطيع أن تعيش من دوني.

- وأنتِ، هل تستطيعين؟

- أنا مُحاطة بالرجال هنا... عليك أن تقلق...

- أنا أقلق، ولذلك أنا هنا.

نظرت إليه بتحدٍّ.

- في الحقيقة، لم يكن عرضك الصغير سيئاً...

- آسف على مشاجرتي مع «جيمي» هذا.

- لا تتأسّف: أحبّ كثيراً أن تُقاتِل من أجلي...

رفع إصبعه في الهواء:

- لقد اشتريتُ لكِ هذه.

رفعت عينيها نحو السماء: كانت البالونات، مدفوعة بقوّة الرياح، تنساب نحو جهة مجهولة.

- إذا كان هذا حبّك، فقد تطاير.

هزّ رأسه نافياً:

- الحبّ لا يتطاير هكذا.

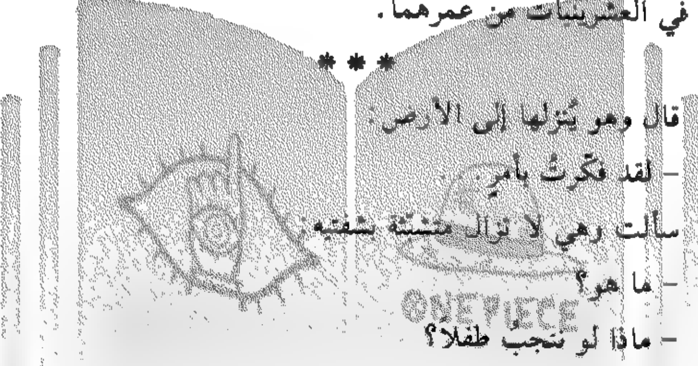
- مع ذلك يجب الارتياب في الأمر، ليس مضموناً أبداً.

بينما كانت الشمس تميل خلف أشجار النخيل، اقترب إليوت من إيلينا.

قال ببساطة:

- أحبّكِ.

ارتمت بين ذراعيه ودار بها حول نفسه كما كانا يفعلان حينما كانا في العشرينيات من عمرهما.



* * *

قال وهو يُنزلها إلى الأرض:

- لقد فكّرتُ بأمرٍ.

سألت وهي لا تزال متشبّثة بشفتيه:

- ما هو؟

- ماذا لو نُنجب طفلاً؟

أجابت وهي تتذكّر جواب إليوت قبل بضعة أيامٍ في المطار:

- هنا، في الحال؟ أمام الحيتان والدلافين؟

- ولِمَ لا؟

* * *

أوقفت إيلينا سيارتها المكشوفة من طراز فورد ثندربيرد في نهاية ممرٍّ مفروشٍ بالحصى مطلٍّ على بيتٍ جميلٍ من القرميد الورديّ اللون محاطٍ بأعمدة بيضاء اللون ومتوّجٍ بشرفة مغطّاة. منذ بضعة أشهر، كانت قد استأجرت الطابق الأوّل من السيّدة آبوت، وهي امرأة مسنّة مشاكسة وسليطة، ووريثة عائلة ثرية من بوسطن، ولكنها تمضي معظم وقتها في فلوريدا، حيث يبدو أنّ مناخها يناسب أكثر أمراض الروماتيزم التي تعاني منها. كانت السيّدة آبوت، التي لم تكُن تقدّمية بالفعل، تحرص على أن يسكن منزلها «أعضاء من المجتمع الصالح». لمرّات عديدة، كانت قد حذّرت إيلينا حول المنع المطلق لاصطحاب «رجالٍ» إلى البيت لأنّه «ليس فندقاً للدعارة».

وضعت إيلينا سبابتها على فمها لتشير إلى إليوت بألّا يثير ضجيجاً. بدا أنّ مَن في البيت نائمٌ وكان سمع السيّدة آبوت ثقيلاً بعض الشيء، لكن كان عليها أن تكون حذرة. خرجا من السيارة دون أن يصفقا أبوابها وصعدا، أحدهما وراء الآخر، درجات سلّم النجاة الصغير الذي يسمح بالوصول إلى الطابق العلوي من دون المرور من المدخل الرئيس.

سار إليوت في المقدّمة وهو مبتهج بوضوح بدور المراهق الذي ينتهك وقت حظر التجوّل. وكانت إيلينا، من خلفه، تأخذ الموضوع كتسلية إلى اللحظة التي...

- أهذه أنتِ، يا إيلينا؟

كان باب المدخل قد انفتح ووقفت السيّدة آبوت على عتبته.

هتفت المرأة الشابّة بحيوية:

- طاب نهارك سيّدة آبوت، إنّها ظهيرة جميلة، أليس كذلك؟

سألت مستأجرتها وهي عابسة:

- ماذا تفعلين هنا يا إيلينا؟

ارتابت في أمر إيلينا فاشرأبّت برقبتها لكي تتفحّص كامل درجات السلّم، لكنّ إليوت كان قد حظي بالوقت الكافي لكي ينسلّ إلى داخل الشقّة.

قالت إيلينا موضّحةً:

- أنا... اعتقدتُ أنّكِ نائمة ولم أشأ أن أزعجكِ.

هزّت السيّدة العجوز كتفيها قبل أن تهدأ وتلين، ثمّ قالت:

- أتريدن أن تشربي معي كوباً من الشاي؟

- أوه... حسناً...

- لقد أعددتُ حلويات المادلين التي سوف تُعطيني رأيكِ بها. لقد خرجَت لتوّها من الفرن.

- هذا يعني أنّ...

- إنّها طريقة تحضيرٍ قديمة ورثتها عن جدّتي. سوف أكتبها لكِ على ورقة بريستول إذا كان هذا يهمّك.

- لا أريد أن أتطفّل عليكِ.

قالت وهي تسحبها إلى الصالون:

- كلا يا عزيزتي، هذا يُسعدني.

من خلال نبرة هذا التعليق الأخير، شكّت إيلينا بأنّ السيّدة آبوت ربّما لم تكن غافلة عن لعبتها.

* * *

وحيداً في الشقّة الصغيرة، بدأ إليوت يكظم غيظه وينتظر قدوم إيلينا على أحرّ من الجمر. بهدوء ومن دون أن يثير ضجيجاً، انسلّ إلى خارج الغرفة وحاول أن يُلقي نظرة على الطابق السفلي. بعد ذلك، شاهد إيلينا التي كانت قد احتُجزت عند مالكة البيت وهي

جالسة في كرسيٍّ هزاز وفي يدها كوبٌ من الشاي، تُصغي ساهية إلى العجوز آبوت التي كانت تشرح لها قائمة المواد والمقادير اللازمة لإعداد حلويات المادلين الشهيرة.

أدرك إليوت أنّها ستبقى محاصَرة في الطابق السفلي لوقتٍ لا بأس به، فعاد إلى الغرفة وداری نفاد صبره بالتطفّل على الغرفة الكبيرة التي تفوح منها الروائح الزكيّة للبخور والقرفة. كان المكان حميمياً بوجود الشموع في كلّ مكان، وبالوسائد الزاهية الألوان وبعض الحليّ الهندوسي. كان غيتارٌ معدني موضوعاً في ركنٍ من الغرفة برفقة آلة التامبورين ودفتر العلامات الموسيقية لأغاني جوان بيز وليونارد كوهين. وعلى الحائط الداخلي، عُلّق إعلانُ فيلم فرنسي -جول وجيم- والذي جلبه مات لها خلال زيارته الأخيرة إلى باريس. على طاولة السرير، وسط الكتب المتعلقة بعلم نفس الحيوان، وجد آخر أعمال أغاثا كريستي وكذلك رواية غلافها ملفت للانتباه لكاتبٍ لم يكن يعرفه: كاري للكاتب ستيفن كينغ. قرأ على عجلٍ موجزها على الغلاف.

قال في نفسه وهو يُعيد الكتاب إلى مكانه: عملٌ آخر سوف ينساه الجميع بعد خمسة أعوام...

وهو يتابع جردة الغرفة، وجد إليوت جهازاً غريباً: شيءٌ يشبه لوحة كهربائية موضوعة في صندوقٍ من خشب الزان وموصول إلى جهاز تلفاز. كانت إيلينا قد اشترته في الصيف الماضي من سوق بايت شوب في سان فرانسيسكو لقاء ستمئة دولار. كانت المرأة الشابّة ذات عقل علمي ومولعة بهذه الأجهزة الحديثة التي بدأ الناس يسمّونها حواسيب شخصية صغيرة. أمّا إليوت، فلم يكن يعلم الكثير عنها. كانت إيلينا قد أكّدت له بأنّه، في يوم ليس ببعيدٍ جداً، سوف

نجد حاسوباً في معظم البيوت مثله مثل الثلّاجة أو الغسّالة. وحينما فكّر في هذا الأمر لم يستطِعْ الامتناع عن هزّ كتفيه.

رغم كلّ شيء، تصفّح بدافع الفضول بضع صفحات من الوثائق الموضوعة على طاولة المكتب. رغم أنّ هذه الآلة كانت قد اكتسبت الشهرة بكونها بسيطة بما فيه الكفاية بفضل لوحة مفاتيحها وجهاز بثّ أشرطة الكاسيت فيها، إلّا أنّ إليوت لم يفهم شيئاً منها. في الواقع، ربّما لم يكن قادراً حتى على الحديث عن مجالات استخدام هذا الجهاز وفوائده الحقيقية. الشيء الوحيد الذي استوقفه هو الاسم الغريب الذي أطلقه صانعو هذه الآلة على شركتهم: **آبل كمبيوتر**.

قال في سرّه من دون أن يجرؤ حتى على تشغيل الجهاز: **لا تتأمّلوا أن تنجحوا مع هكذا اسم، يا صبيان!**

بدل ذلك، ألقى بنفسه على السرير وأمسك بكتاب ستيفن كينغ ويدأ بتصفّحه في انتظار إيلينا. بعد نصف ساعة، كان قد التهم قرابة مئة صفحة منه.

بينما كان أحدهم يدفع باب الغرفة، أقرّ على مضضٍ: **في النهاية، هذا الكتاب ليس سيئاً...**

كانت الأشجار في الخارج ترتدي ألوان الخريف وتغمر الغرفة عبر النافذة بضياءٍ بديع.

نظرت إليه إيلينا، المبتسمة والمرحة، بابتهاج. كانت ترتدي سروال جينز شاحب، يمتدّ حتى أسفل ساقيها وقميصاً قطنياً فاتح اللون وتنتعل حذاءً جلدياً وفي معصمها سوارٌ من خرزٍ فيروزي.

قال ممازحاً:

– أتمنّى لو أنّكِ على الأقلّ جلبتِ لي بعض حلويات المادلين.

بدأتُ أشعر بالجوع.

أجابت بالنبرة نفسها، وهي تحلّ زرّين من قميصها:

- وأنت، أتمنّى أن تكون قد استرحت جيّداً.

- ولماذا هذا؟

- لأنّك سوف تحتاج إلى قواك.

* * *

دفعت الباب بقدمها وتقدّمت نحو النافذة لتُسدِلَ الستائر، فأمسك بها وحاول أن يسحبها إلى السرير. في البداية، دفعته متمنّعة لكي تجذبه أكثر إليها قبل أن تُلصقه بالجدار.

في الخارج، هبّت الرياح قويّة، هزّت زوبعةٌ زجاج النافذة وانفتح أحد مصراعيها بعنف مصطدماً بمزهريةٍ تحطّمت على الأرض. من بعيد، نبح كلبٌ وصرخ أحدهم بشيءٍ ما. لكنّهما لم يهتمّا بما يجري في الخارج وبالناس وبالكلاب.

لم يعد هناك أيّ أهمية لأيّ شيء، سوى هذه الثمالة بالاندماج في الآخر والدوخة والشعور بالانزلاق إلى هوّة والخوف من انقطاع العلاقة.

الآن، تتشبّث إيلينا بكلّ ما بوسعها، بشعره ورائحة جلده ومذاق شفتيه. كان قلبها يدقّ سريعاً جداً إلى حدّ الألم تقريباً لكنّها لم ترغب في أن تتوقّف هذه اللحظة.

ثمّ كان هناك ما يشبه فراغاً، ما يشبه تجويفاً في معدتها وتحطّم شيءٌ ما في داخلها.

أحسّت آنذاك بأنّها خارج الزمن، وأنّها لم تعُد تُلامس الأرض وأنّها خالدة.

مع الإحساس بأنّها قد أُسقِطت بعيداً جدّاً.

في جهة أخرى.
في مكانٍ آخر...

* * *

ظلّا مستلقيين بصمت وسط عتمة الغرفة، يلتفّ كلٌّ منهما على الآخر، تتداخل ساقيهما وتتشابك أصابعهما. حلّ الليل وأصبح الطقس بارداً ومنعشاً، أمّا في الفقاعة التي ضمّتهما، فتحوّل كلّ شيء إلى حرارة وحماية.

كان النعاس قد بدأ يخيّم عليهما حين رنّ الهاتف فجأةً. قفزت إيلينا من سُباتها ولفّت خصرها بشرشفٍ ورفعت سمّاعة الهاتف المعلّق على الجدار.

بعد صمتٍ، قالت:

- حسناً، سأصل في الحال.

أغلقت السماعة ثمّ التفتت نحو إليوت:

- آسفة، حبيبي...

- لا تُخبريني بأنّ عليكِ أن تغادري.

- لديّ حالة طارئة.

- مَنْ كان المتّصل؟ دلفين؟ حوتٌ يحتاج إلى أن تغنّي له تهويدة لكي ينام؟

- ينقصنا في الحديقة مدرّب لكي يتابع العرض وليس هناك سواي لكي يحلّ محلّه.

انضمّت إليه في السرير ومسّدت كتفيه.

- أيّ عرضٍ هذا؟ إنّها الساعة السابعة مساءً.

- حتى نهاية الفصل، نقدّم أيضاً عرضاً ليلياً.

- لقد شارفنا على الدخول في شهر أكتوبر. لقد انتهى الفصل!

- لا تصدّق ذلك، يا حبيبي، هنا فلوريدا، لا يزال الطقس فيها جميلاً.

قبّلته قبلة أخيرة قبل أن تنهض من السرير.

- يمكنك البقاء هنا، إن أرَدت. لا تقلق بشأن السيّدة آبوت. إنّها تنام باكراً وإن أردتَ رأيي، هي تعرف بالتأكيد أنّك هنا...

ردّ بلا تردّد:

- أفضّل أن أرافقك.

- تخشى أن أُغازل أحداً؟

- كلا، لقد وجدتُ فقط بائعة جميلة في متجر بيع التذكارات. سوف أذهب لمرافقتها في أثناء قيامك بالعرض في الحديقة.

قالت محذّرة وهي ترمي عليه وسادة:

- إن فعلتَ ذلك، سأقتلك.

في غمضة عين، التقطت ثيابها وسرّحت شعرها في عجالةٍ.

قال إليوت وهو يرتدي قميصه:

- في الحال، الحلول الجذرية...

- هكذا هي الحال. ولا تتصوّر أنّ كلّ شيء يُنال بالحبّ! إذا لزم الأمر، ربّما ستكون هذه آخر مرّة ننام فيها مع بعضنا...

- على كلّ حال، كان هذا جيّداً.

- وهذا، كان سخيفاً.

- ماذا؟

- ما قلتَه للتوّ!

- أليس من حقّي أن أقول أنّ هذا كان جيّداً؟

- كلا.

- لماذا؟



- لأنّ ذلك يكسر السحر!

حقّاً، النساء...

أضاف وهو يرتدي سترته:

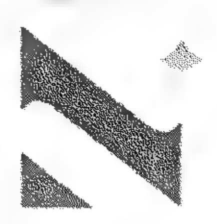
- كلّ هذه اللحظات التي أمضيناها معاً أحتفظ بها في ذهني مثل أفلامٍ قصيرة.

قالتْ وهي تُغلق الباب من ورائها:

- بالمقابل، هذا شيءٌ لطيف. للتحايل على العجوز آبوت، ذهب إليوت إلى السيارة عبر سلّم النجاة. ولمّا وجد أنّ إيلينا ليست في انتظاره، غمغم كما لو أنّه يتحدّث مع نفسه، وبلهجة ساخرة:

- أفلامٌ قصيرة سوف أستعيدها غالباً في ذهني، إذا ما أصبحتُ يوماً في دار التقاعد، عجوزاً وعاجزاً. فقط لأتذكّر كم كنّا سعيدين، نحن الاثنين. وبشأن هذه النقطة الأخيرة، لم يكن يشكّ كم كان محقّاً...





11

اللقاء الثالث

«البارحة، كان عمري عشرين عاماً، كنتُ أداعب الزمن...»

شارل أزنافور

«البارحة، كان الحبّ مثل لعبة سهلة»

جون لينون - بول مكارتني

1976

إليوت في سنّ الثلاثين

كانت الصالة البانورامية لمقهى أكواتيك كافيه تتيح لزوّار الحديقة أن يشربوا كأساً مع إطلالة حصرية على حوض الحيتان الممتدّ على مساحة أكثر انخفاضاً ببضع أمتار. في غضون أقلّ من ربع ساعة، سوف تبدأ الحيتان القاتلة مع مدرّبيها بعرضهم، وهو مزيج من فنّ الرقص ومهارات استعراضية مذهلة.

كان إليوت، جالساً إلى طاولة، يشاهد المدرّجات المتفرّقة تمتلئ تدريجياً لمشاهدة العرض الأخير في النهار. أحضر له نادلٌ قارورة جِعَة بدوايزر التي كان قد طلبها. شكره بحركة صغيرة من يده.

كان البار غارقاً في ظلامٍ لطيف. بجانب طاولة تقديم الطلبات، كان ثنائي مكوّن من عازف غيتار ومغنّية يؤدّيان في نسخة سماعية الأغاني الشعبية لكلٍّ من كارول كينغ ونيل يونغ وثنائي الروك الشعبي سايمون وغارفونكل...

مندمجاً مع أنغام الغيتار وكذلك تحت تأثير ذكرى عناقه مع إيلينا، لم يُلاحظ إليوت الرجل الذي جاء وجلس إلى الطاولة المجاورة.

رشف رشفةً من الجعّة ثمّ أشعل تلقائياً سيجارةً.

- إذاً، أنتَ من سرقتَ منّي ولّاعتي.

مثل مَنْ يُضبَط متلبّساً، التفت فجأة نحو الشخص الذي خاطبه لتوّه. جالساً على المقعد الجلدي المجاور لمقعده، كان الرجل - الذي يعرفه الآن على أنّه هو نفسه في سنّ أكبر- ينظر إليه وفي عينيه بريقٌ مرح.

لم يُفاجَأ إليوت بهذا الظهور الجديد الذي كان قد هيّأ نفسه له والذي بات يواجهه بفكرة أنّه لم يكن يحلم في ما كان يحدث.

قال بصوتٍ مرتعش:

- أعرف كلّ شيء.

سأل الآخر:

- وماذا تعرف؟

- أعرف أنّك أخبرتني بالحقيقة. أعرف أنّك... أنا.

نهض الرجل من المقعد وخلع سترته وجاء يجلس قبالته.

قال وهو يرفع كمّ قميصه حتى المكان الذي تمتدّ الأحرف عليه:

- فكرة الوشم، فكرة لا بأس بها.

- كنتُ أعرف أنّك ستُعجَب به.

تقدّم النادل منهما وتبيّن له بأنّ لديه زبونٌ جديد.

سأل الأكبر سنّاً من بين الرجلين:

- ماذا أقدّم لك، يا سيّدي؟

أجاب محدّثه وهو يُشير إلى قارورة الجعّة:

- الشيء نفسه. أنا وصديقي غالباً لنا الأذواق نفسها.

لم يستطِعْ الرجلان أن يمنعا ابتسامتهما وللمرّة الأولى، وسط الإضاءة الخافتة لذاك المقهى، بدا أنّ تفاهماً غريباً يقرّبهما من بعضهما.

مرّ وقتٌ لا بأس به من دون أن يتكلّم أيٌّ منهما. تلذّذ كلٌّ منهما بطريقته بالألفة التي سادت بينهما. إحساسٌ غريب كمن عثر على أحد أفراد عائلته حيث كان قد اختفى منذ سنوات.

أخيراً، لم يستطِعْ إليوت منع نفسه من أن يصرخ:

- تبّاً، كيف تقوم بهذا؟

- السفر عبر الزمن؟ إذا كان هذا يُريحك، فهو يُدهشني أكثر منك.

- هذا جنون!

أجاب الطبيب العجوز موافقاً:

- نعم، هذا جنون.

سحب إليوت نَفَساً من السيجارة التي أشعلها. ازدحم كلّ شيء في رأسه.

- وكيف الحال، هناك؟

- تقصد عام 2006؟

- نعم...



- ما الذي تُريد أن تعرفه؟

كان لديه عددٌ هائل من الأسئلة: عشرة أسئلة، عشرون، مئة، ألف... فبدأ بهذا السؤال:

- كيف حال العالم؟

- ليس أفضل حالاً ممّا هو عليه الآن.

- الحرب الباردة...

- لقد انتهت منذ زمنٍ طويل.

- من ربحها: الروس أم نحن؟

- ليت الأمر كان بهذه البساطة...

- ألم تحدث حربٌ عالمية ثالثة؟ ألم تقع حربٌ نووية؟

- كلّا، لكن لدينا مشاكل أخرى: البيئة والعولمة والإرهاب وكلّ نتائج الحادي عشر من سبتمبر...

- الحادي عشر من سبتمبر؟

- نعم، لقد حدث أمرٌ ما، في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، في مركز التجارة العالمي، في نيويورك.

- ماذا حدث؟

- اسمع، لا أدري إذا كان من المستحسن أن أروي لك كلّ هذه الأحداث.

شرهاً جدّاً لمعرفة المزيد من المعلومات، لم يدَع إليوت الصمت يسود:

- وأنا، كيف حالي؟

- تفعل ما بوسعك فعله.

- هل أصبح طبيباً ناجحاً؟

- أنت أصلاً طبيبٌ ناجح، يا إليوت.

- كلا، ما أريد قوله هو... هل أنا أكثر صلابة وتماسكاً؟ هل اعتدتُ على موت بعض مرضاي؟ هل عرفتُ كيف أحتفظ بمسافة بيني وبين مرضاي؟

- كلّا، لا نعتاد على موت مرضانا. وبالضبط لأنّك ارتضيت أن «لا تضع مسافة كبيرة» بينك وبين مرضاك، بقيتَ طبيباً ناجحاً.

توتّر إليوت للحظاتٍ إلى درجة أن اجتاحته القشعريرة.

لم يكُن قد نظر أبداً إلى الأمور من هذه الزاوية. ومن ثمّ شعر على نحوٍ غامض بأنّ الوقت قد مرّ وربّما لن تتوفّر له الفرصة لكي يطرح كلّ الأسئلة التي تُرهق تفكيره. ولذلك، ركّز على ما هو جوهري:

- هل لديّ أطفال؟

- ابنة واحدة.

قال من دون أن يدري إن كان ذلك سيُبهجه:

- آه... وهل أنا أبٌ ناجح؟

- أعتقد ذلك.

- وإيلينا، هل هي بخير؟

- أنت تطرح الكثير من الأسئلة.

- من السهل عليك أن تُجيب: لديك كلّ الأجوبة.

- ليت الأمور كانت كذلك...

رشف رشفةً من الجعة، وبدوره، أخرج سيجارة مالبورو من جيبه.

اقترح عليه إليوت وهو يُقرّب شعلة الولّاعة من ماركة زيبو من سيجارة الطبيب العجوز:

- هل أُعيد إليك ولّاعتك؟

- يُمكنك الاحتفاظ بها. في كلّ الأحوال، سوف تكون لك ذات يومٍ أو آخر...

في عمق الصالة، كان الموسيقيان قد باشرا بأغنية *Yesterday* لفرقة البيتلز. وكانت تلك فرصة لإليوت لكي يستفهم عن أمور أقلّ أهمية:

- هل نصغي إلى بعض الموسيقى في المستقبل؟

أكّد له محدّثه وهو يُجاري الإيقاع بقدمه:

- لا شيء أفضل من هذا.

- هل ظلّوا مع بعضهم؟

- أعضاء البيتلز؟ كلّا، أبداً، وليس هناك احتمال لحدوث ذلك: لقد اغتيل لينون ومات هاريسون منذ سنتين أو ثلاث.

- ومكارتني؟

- مكارتني، لا يزال يعمل بهمّة وحماس.

ساد الصمت فجأةً في الصالة كإشارة إلى بداية العرض المائي. بالحركة نفسها، التفت الرجلان إلى الحوض الكبير للحيتان القاتلة بينما كان المدرّبون يدخلون وسط تصفيق الجمهور الذي بات الآن أكثر عدداً.

سأل الرجل العجوز وهو يرمش بعينيه:

- هذه هي، أليس كذلك؟ هذه إيلينا؟

- نعم، لقد حلّت محلّ أحد المدرّبين.

- اسمع، لا أستطيع المكوث لوقتٍ طويل وبعد بضع دقائق، بالتأكيد سوف «أختفي» من جديد. وبالتالي، لا تُسئ الظنّ، لكنني، خلال الوقت المتبقي لديّ، سوف أنظر فقط إليها هي.

ومن دون أن يعرف في الحقيقة إلى ماذا كان يلتفت، نظر إليوت إلى شخصه الآخر وهو ينهض ويُغادر المقهى لكي يذهب إلى أعلى المدرّجات.

* * *

إليوت في سنّ الستين

نزل إليوت على طول الصفّ الوسطي من المقاعد لكي يصل إلى الصفوف الأولى. كان الحوض هو أكبر ما بُني في العالم على الإطلاق وينقسم إلى ثلاثة أقسام، يُلحق بالقسم الرئيس حوضان يصغران الأوّل حجماً: أحدهما مخصّص للمعالجة والآخر خاصّ بالتدريب. كان الحاجز الزجاجي العالي الممتدّ على طولٍ مقداره ستين متراً يتيح رؤية الحيتان الستّة وهي تسير تحت الماء.

كان العرض في حدّ ذاته مدهشاً. كانت الحيتان تحرّك، بأناقةٍ مدهشة، أجسامها الضخمة التي تزن عدّة أطنان، وهي تنوّع حركاتها بين القفز والغوص ورشّ المياه. ولكنّ إليوت لم يكن يرى بعينه سوى إيلينا التي كانت تُنسّق المشاهد تحت الماء، وهي تقود العمالقة على طول البوابات الزجاجية.

بعد كلّ هذه السنين، كانت صدمة اللقاء بها من جديد عنيفة. وجدها جميلة للغاية، تكاد تكون خيالية، مثل ملاكٍ في الأحلام. منذ ثلاثين عاماً، كان قد نظر لآلاف المرّات إلى صورها التي بحوزته. لكن الصور لم تكن تجسّد جمالها الأخّاذ هذا.

تحت تأثير العواطف والمشاعر، ظهر كلّ شيء فجأةً ودفعة واحدة: الندم على كونه لم يحبّها على نحوٍ أفضل ولم يفهمها على نحوٍ أفضل وعلى عدم إجادته حمايتها. ثمّ هذا الإحساس الدائم

بالعجز والحنق من واجب الانحناء أمام الزمن الذي يجري ويدمّر في طريقه كلّ شيء...

* * *

إليوت في سنّ الثلاثين

كان إليوت لا يزال مذهولاً بالمشهد الذي كان قد عاشه قبل قليل، فظلّ جالساً إلى طاولته ملتصقاً بكرسيّه، بينما كان شخصه الآخر الأكبر سنّاً يشاهد العرض، جالساً في المدرّجات.

بعيداً عن إرضاء فضوله، كلّ ما كان قد علمه مؤخّراً لم يؤدِّ إلّا إلى تفاقم اضطرابه وتوتره. ولأنّ الرجل العجوز ترك سترته معلّقة على مسند الكرسي، لم يستطِعْ إليوت أن يمنع نفسه عن النبش في جيوبه. وعلى نحوٍ غريب، لم يشعر لا بالخجل ولا بالذنب: في وضعٍ استثنائي، يجب اتّخاذ تدابير استثنائية.

أتاح له استكشافه أن يضع يده على محفظة وكذلك علبتين صغيرتين.

لم تكشف له المحفظة شيئاً جديداً ذي أهمية سوى أنّه وجد فيها صورة فتاةٍ جميلة في العشرين من عمرها.

تساءَل من دون أن يصل إلى حالة التأثر: ابنتي؟

بحث عن شبهٍ مع إيلينا، لكن لم يجد أيّ شبه بينهما. مشوّش الذهن جدّاً، أعاد الصورة إلى حيث كانت وركّز اهتمامه على العلبتين.

كانت العلبة الأولى صغيرة جدّاً سوداء اللون وفيها عروقٌ فضيّة، مع شاشة صغيرة وأزرار مرقّمة. قرأ كلمة NOKIA على الشاشة، لكن ذلك لم يعنِ له أيّ شيء. لا شكّ أنّه كان اسم الشركة

التي صنعت هذا الجهاز. قلب الجهاز في كلّ الجهات من دون أن يفهم ما الفائدة منه إلى أن بدأ الجهاز يرنّ. فوجئ بذلك، فوضع الجهاز أمامه من دون أن يعرف كيف يوقف رنينه. ومع تزايد صوت الرنين واستمراره، التفت كلّ الزبائن في المقهى باتجاهه مع نظرات تمزج بين الدهشة والاستهجان. فجأة وفي لحظة خاطفة، أدرك أنّ أمامه جهاز هاتف وحتّى إن لم تكن المكالمة الهاتفية تخصّه هو، فمن المنطقي أن يضغط على الزرّ الأخضر لكي يفتح السمّاعة.

قال وهو يضع سمّاعة الجهاز الصغير على أذنه:

- ألو؟

- أوه! لقد أطلتَ قبل أن تُجيب!

هذا الصوت الذي كان يصرخ فيه ويأتيه من بعيدٍ جدّاً، كان صوت...

- مات! هذا أنت يا مات؟

- نعم. نعم.

- ولكن، أين أنت الآن؟

- في المعمل، أين تريدني أن أكون؟ لا بدّ أن يعمل أحدنا لكي تستمرّ المنشأة.

- المنشأة؟ هل تقصد منشأتنا لصناعة النبيذ؟ هل اشتريناها؟

- أوه... لقد اشتريناها منذ ثلاثين عاماً يا صديقي العجوز. قل إذاً بأنّك لست على ما يُرام، أليس كذلك؟

- مات؟

- نعم؟

- كم عمرك، الآن؟

- لا بأس، أعلم أنني لم أعُد في العشرين من عمري. لا داعي لأن تردّد عليّ ذلك كلّ يوم!

- أخبرني كم عمرك، لنرى.

- عمرك نفسه، يا سيّدي: ستون عاماً...

صمت إليوت للحظة، للوقت الضروري لالتقاط أنفاسه.

- سوف لن تتخيّل قط ما يحدث معي...

- معك، أتوقّع كلّ شيء. أين أنت، الآن؟

- في عام 1976 و... أنا في الثلاثين من عمري.

همهم قبل أن يغلق السمّاعة:

- هذا هو... حسناً، سأدعك الآن. أنا، لديّ مشاكل في العمل. لعلمك، صناديق النبيذ التي ينبغي أن نرسلها إلى فرنسا، لا يمكن أن تنطلق من هنا في موعدها المحدّد. بسبب استمرار إضراباتهم اللعينة.

لم يستطِعْ إليوت أن يمنع نفسه عن الابتسام، وهو متأثّرٌ ومصعوقٌ في آنٍ واحدٍ بهذه المحادثة السريالية. ولكن هذه لم تكن مفاجأته الأولى. حينما أمسك بالجهاز الآخر، لاحظ بأنّه محاطٌ بشريطٍ بلاستيكي. حلّ الشريط البلاستيكي فرأى كبسولتين صغيرتين تتدلّيان من نهايته. جعله الموقّران يمين ويسار يعرف ماهية الجهاز: سمّاعة؟

وضع السمّاعتين في أذنيه قبل أن يتفحّص الجهاز بمزيدٍ من التفصيل. كان الجهاز الذي بالكاد تزيد سماكته على سماكة قطعة نقدية معدنية يتضمّن شاشة ملوّنة وكذلك بكرة صغيرة تشبه دولاب ولّاعة في الوسط، فأداره ليكتشف نوعه:

آيبود

صُمّم من قبل آبل في كاليفورنيا - صُنع في الصين

حرّك القرص بينما تعاقبت على الشاشة أسماء غريبة لم يكن قد سمع بها أبداً:

U2, R.E.M., Coldplay, Radiohead...

وأخيراً وجد شيئاً يعرفه: الرولينغ ستونز.

بدرت منه ابتسامة ارتياح، فهو هنا في ميدانٍ معروف، فرفع بثقةٍ مؤشّر الصوت إلى أقصاه قبل أن يضغط على زرّ تشغيل...

مزّقت أولى أنغام الغيتار لأغنية *Satisfaction* أذنيه، كما لو أنّ طائرة بوينغ عبرت دماغه.

أطلق صيحة وترك الجهاز ونزع السمّاعة الرأسية من أذنيه.

أعاد سريعاً المحفظة والهاتف ومشغّل الأغاني mp3 إلى جيب السترة التي ما كان عليه أن يُخرجها منه أبداً.

ممّا لا شكّ فيه أنّ المستقبل بدا له معقّداً...

* * *

إليوت في سنّ الستين

شارفَ العرض على نهايته. في وسط الحوض، كان حوتان ضخمان ينطلقان كصاروخين ويشقّان المياه بسرعة مذهلة. حينما وصلا إلى نهاية الحوض، انبدارا في حركة متناسقة نصف استدارة ثمّ قفزا معاً قبل أن يسقطا في تناغم في المياه ليُحدِثا (رشّة) ضخمة، أي انبجاس الماء والزبد الذي بلّل المشاهدين الجالسين في الصفوف الأمامية.

تلقّى إليوت القليل من ماء البحر على وجهه، ولكنّه لم يُعِرْ انتباهاً لذلك لأنّه كان لا يزال منبهراً بإيلينا.

ولتكون الخاتمة جميلة، صعدت المرأة الشابّة إلى قمّة الرّواق المطلّ على الحوض وحصرت سمكة بين أسنانها. خلال ثانيتين بدتا طويلتين جدّاً، حبس الجمهور أنفاسه إلى أن جاءت آنوشكا، الزامور (أنثى الحوت) القائدة في الحوض، ورفعت جسمها الضخم إلى خارج المياه لتستولي برفق على السمكة.

تحت وابلٍ من التصفيق، حيّت إيلينا الجمهور. بينما كانت تجول بين الحضور، التقت نظرتها على نحوٍ عابرٍ بنظرة الرجل العجوز وارتبكت.

يا لهذا الشبه...

بعفوية، انقادت لقلبها وابتسمت له ابتسامة مشرقة، مليئة بالثقة والدفء. خلال برهة، توقّف الزمن. تاه إليوت في تلك الابتسامة وعرف بأنّ هذه الذكرى هي التي سيحملها معه.

ها قد نال ما طلبه من العجوز الكمبودي: أن يلتقي مرّة أخرى بالمرأة التي أحبّها إلى الأبد قبل أن يموت. لقد تحقّقت أمنيته وكان عليه أن يبتهج لذلك. أحسّ أنّ دفقاً من الدم يتغرغر في حلقه ثمّ غزا مذاقٌ معدنيّ فمه. ضاق تنفّسه بشدّة واستبدّ به الرعاش الذي كان يُنبئ بعودته إلى زمانه. ومن دون تأخير، غادر المدرّجات ليعود إلى المقهى.

حينما وصل إلى أمام طاولة شخصه الآخر، كان له فقط الوقت اللازم لتحذيره.

- هذه المرّة، سوف أرحل إلى الأبد، يا إليوت. انسَ كلّ ما قلته لك وكلّ ما رأيتَه. استمرّ في حياتك، كما لو أنّك لم تلتقِ بي أبداً.

- ألن تعود مرّة أخرى؟

- كلّا، هذه آخر مرّة.

- لماذا؟

- لأنّه يجب أن تستعيد حياتك مسارها الطبيعي. ولأنّه لديّ ما جئتُ أبحث عنه.

ازداد ارتعاشاً، لكنّه كان يعي تماماً أنّه لن يكون بوسعه أن يتبخّر هكذا وسط الصالة. ساعده إليوت في ارتداء سترته وتبعه حتى وصل إلى المرحاض.

- ما الذي جئتَ تبحث عنه؟

- أردتُ أن أرى مرّة أخرى إيلينا، هذا كلّ ما في الأمر.

- لماذا؟

- أنت تزعجني بأسئلتك!

لكنّ الطبيب الشاب لم يكن راغباً في الاستسلام. أحاط بيديه رقبة الرجل العجوز كما لو أنّه يريد منعه من المغادرة باكراً.

صاح به وهو يُلصقه بجدار المرحاض:

- لماذا أردتَ أن ترى إيلينا مرّة أخرى؟

اعترف مُرغماً:

- لأنّها سوف تموت.

- كيف ذلك، سوف تموت؟ متى؟

- قريباً.

- إنّها في التاسعة والعشرين من عمرها. لا يموت المرء في التاسعة والعشرين من عمره!

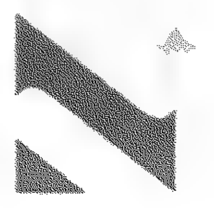
- كفّ عن هذه التُرّهات! أنت طبيب وتعرف جيّداً أنّ ذلك قد يحدث في أيّ وقت.

- ولكن لماذا تموت وهي في هذا السنّ الصغير؟

امتلأت عيناه بالدموع ولم يُجب بشيء. ثمّ وقبل أن يختفي، نطق بهذه الجملة الرهيبة:

- لأنّك قتلتها. . .





12

نبحث جميعاً عن الشخص الفريد الذي يمنحنا ما ينقصنا في حياتنا. وإذا لم نعثر عليه، لا يبقى لنا سوى الدعاء كي يعثر هو علينا...

مسلسل ربّات بيوت يائسات

فلوريدا، 1976

إليوت في سنّ الثلاثين

سلكا الطريق منذ طلوع الشمس والرياح تهبّ قوية في اتجاه الجنوب، فتجعل السماء صافية وتحمل معها أولى أوراق الخريف. خلف مقود سيارة ثندربيرد، كان إليوت يسير نحو ميامي، بينما تمضي إيلينا ليلتها على المقعد إلى جانبه. كانت المرأة الشابّة قد رتّبت أمورها للحصول على يومَي إجازة وقررت أن تقضي عطلة نهاية أسبوع طويلة في كي ويست حيث يعيش عمّها. كانت تلك مغامرة قرّرا القيام بها منذ سنوات، ولكن أجّلاها لمرّات عديدة. يعتقد المرء دائماً بأنّ لديه متّسع من الوقت...

للمرّة العاشرة في غضون دقيقة واحدة، أدار إليوت رأسه ليطمئنّ أنّ لا شيء يعكّر صفو نوم صديقته. نظر إليها كما لو أنّها

شيءٌ هشّ وثمين ينبغي أن يسهر عليه. كان تنفّسها المنتظم والهادئ يتناقض مع الاضطراب الصاخب في داخله هو.

ربّما كان عليه أن يستمتع تماماً بعطلته وبهذا التواطؤ مع المرأة التي أحبّها. مع ذلك، كان فكره سارحاً في مكان آخر، منشغلاً تماماً بما كشفه له شخصه الآخر. كانت بعض كلماته التي تحمل نبرة مهدّدة ترنّ في ذهنه: «إيلينا سوف تموت قريباً»... «لأنّك قتلتها». كان كلّ ذلك يبدو عبثياً، لكن الآن، لسوء الحظّ، عليه أن يقرّ بأنّ كلّ ما سبق وروى له الآخر تبيّن أنّه صحيحٌ في النهاية.

لقد فكّر في ذلك طيلة الليل وأثار أمرٌ فضوله وحيرته: إذا كان يجب أن تموت إيلينا، لماذا لم يقدّم صاحبه المسافر عبر الزمن المزيد من المعلومات التي تتيح له إنقاذها؟ وعلى نحوٍ خاصّ، لماذا أكّد أنّ هذه آخر مرّة يأتي فيها لرؤيتها؟

حذّرته إيلينا وهي تفتح عينيها وتتمطّى:

- يجب أن تنظر إلى الطريق لا إليّ أنا!

- المشكلة هي أنّكِ أجمل من الطريق...

بينما كانت تنحني نحوه لتقبّله، رغِب فجأة في أن يروي لها كلّ شيء: نعم، لقد قابلتُ شخصاً قادماً لتوّه من المستقبل وأخبرني بأنّكِ سوف تموتين قريباً. واسمعي جيّداً، هذا الشخص هو أنا بعد ثلاثين سنة من الآن!

فتح فمه ولكنّه لم يتفوّه بكلمة. لم يستطِعْ أن يروي لها هكذا أمر، لأنّه بكلّ بساطة لم يكُن لذلك من معنى. يمكننا أن نطلب من صديق أو من امرأة نحبّها أن يصدّق أو تصدّق ما لا يُصدّق، شريطة أن يبقى هذا الأمر الذي لا يُصدّق ضمن حدودٍ معيّنة. لكن في الحالة الراهنة، تمّ تجاوز كلّ الحدود. على غرار مات، سوف لن تستطيع

إيلينا أن تكون حليفته في المعركة التي ينبغي عليه أن يخوضها لوحده وهو لا يعتقد بأنّه قادرٌ على ذلك. أحسّ بأنّه محطّم ومسحوقٌ تحت وطأة ما حدث له وشكّ من جديد في صحّته الذهنية.

لكنّ مرحلة الإحباط هذه سوف لن تستمر طويلاً. بالتأكيد كان لديه حليفٌ: ... شخصه الآخر! كان عليه فقط أن يجد طريقة لإرغامه على العودة لكي يقدّم له مساعدة. في المرّة الأخيرة، راودته فكرة الوشم هذه، لكي يُرسل رسالة عبر الزمن. هذه المرّة، كان عليه أن يجد طريقة أخرى.

لكن ماذا؟

* * *

سان فرانسيسكو، 2006
إليوت في سنّ الستين

بعد يومين طويلين من هطول المطر، عاودت الشمس ظهورها في سماء سان فرانسيسكو وأرسلت بأشعّتها فوق المدينة.

كان إليوت وابنته قد قرّرا أن يمضيا النهار معاً. بعد أن استأجرا درّاجتين هوائيتين، عبرا جسر غولدن غيت وتسكّعا طيلة الفترة الصباحية في منتجع مقاطعة مارين. لم يذكرا أبداً المرض. كانا يعيشان الآن كلّ لحظة بشعورٍ استثنائي، عاقدين العزم على أن يستفيدا تماماً من الحياة الدنيا هذه والتي تجعلك تُدرك قيمتها تماماً في اللحظة التي ينبغي عليك مغادرتها.

عند الظهيرة، توقّفا في سوساليتو ومدّا غطاءً على الشاطئ ليقضيا نزهة قبالة البحر. كانا يتكلّمان قليلاً، ويكتفي كلّ منهما بحضور الآخر. لم يعُد هناك ما هو مهمّ، يكفي أنّهما معاً.

بعد تناول الوجبة، استأنفا طريقهما على طول الساحل ليصلا إلى مدينة تبورون الصغيرة حيث توقّفا أمام مسند عرضٍ لتأجير درّاجات التزلّج المائية. كانت أنجي ترغب بشدّة أن تجرّب التزلّج على المياه من دون أن تمتلك الشجاعة للإقدام على هذه الخطوة. وكما كانت في طفولتها، احتاجت المرأة الشابّة إلى تشجيع والدها لكي تنجح في التغلّب على خوفها.

بينما كان يُشاهد ابنته وهي تركب إحدى الدرّاجتين وتبتعد بحذر عن الشاطئ، فكّر إليوت من جديد بما عاشه في الليلة السابقة.

بفضل القرص الثالث الذي تناوله، استطاع أن يلتقي إيلينا مرّة أخرى، قبل أن تموت ببضعة أسابيع...

إلى هنا، كان كلّ شيء يبدو بسيطاً. عادَ إلى الماضي والتقى إيلينا وكان كلّ شيء على ما يُرام، لكنّ هذه الرحلة الجديدة عبر الزمن، عدا عن أنّها لم تريحه، أزعَجَته من خلال إثارة الجراح القديمة والإحساس بالذنب والندم. وقد لامَ نفسه خاصّة على إفراطه في الكلام وبات يخشى الآن نتائج أقواله. ما كان عليه قط أن يُخبر شخصه الآخر بموت إيلينا! ولم يكُن عليه أبداً أن يستسلم للرغبة في العودة إلى الوراء لكي يغيّر مجرى الأمور. ومع ذلك، كانت هذه الرغبة شديدة. لو أنّه تناول قرصاً إضافياً، لاستطاع أن ينقذ إيلينا من الموت. إلّا أننا لا نستطيع أن نغيّر الماضي من دون عقاب. كان متأكّداً من هذا الأمر. حتى الآن، استطاع أن يقلّل الأضرار من خلال تصرّفه كمشاهدٍ بسيط قادمٍ من المستقبل، لكنّه إذا ما بدأ بالرغبة في التدخّل في حياته الماضية، قد تتعقّد الأمور. اليوم، يعرف الجميع تأثير الفراشة ونظرية الفوضى: من خلال لعبة ردود الفعل المتسلسلة، يمكن لحدثٍ تافه أن يسبّب كارثة على نطاقٍ

واسع؛ رفّة بسيطة من جناحَي فراشة في طوكيو تسبّب عاصفة في فلوريدا. . .

بقيت لديه سبعة أقراص، لكنّه قطع على نفسه وعداً بألّا يستخدمها.

فلو لم تمت إيلينا لعاش إليوت عام 1976 حياته معها، ولاشتريا منزلاً وكان لهما بلا شكّ أطفالٌ، لكن إليوت ما كان ليلتقي أبداً أمّ أنجي، الأمر الذي يعني بكلّ بساطة التضحية بحياة ابنته.

عبثاً قلّب المشكلة في كلّ الاتجاهات، كان يتوصّل دائماً إلى النتيجة نفسها: إنقاذ إيلينا يعني إعدام أنجي. ولم يكن من الوارد أن يخوض هذه المجازفة.

* * *

فلوريدا، 1976

إليوت في سنّ الثلاثين

كانت الشمس في كبد السماء، حينما سلكا طريق أوفرسيز السريع، «الأوتوستراد الشهير الذي يمر فوق البحر» الممتدّ من الرأس الجنوبي لفلوريدا نحو كوبا.

كان المكان يُعطي الانطباع بالوصول إلى نهاية العالم. على طول أكثر من مئتي كيلومتر، تمتدّ سلسلة من الجزر والجُزر الصغيرة المتناثرة سابحةً في المياه الفيروزية التي تُذكّر بمياه البحيرات المرجانية البولينيزية. كان إليوت وإيلينا في غاية السعادة، مذهولين بطيور البجع التي تطير من حولهما ومنتشيين بإحساسهما بأنّهما يُبحران وسط البحر بسيارتهما.

كان الطريق، المستقيم مثل حرف «أ»، يعلو المياه الصافية مثل

الكريستال وهو يقفز من جزيرة إلى أخرى عبر العشرات من الجسور المشيّدة فوق دعائم متينة. كانا قد أنزلا سقف السيارة المفتوح ووجدا محطّة راديو تبثّ أغاني الروك القديمة، وسارا بهمّة ومرح، ثملين بالسرعة والمناظر الخلّابة التي يمرّان بها.

لمّا وصلا إلى كي لارغو، توقّفا في كشكٍ للصيادين محوّلٍ إلى مطعم، وأكلا، محاطَين بالشعب المرجانية، بلذّة بعض السرطان البحري والمحار والقريدس.

كانا على وشك أن يستأنفا السير في طريقهما حينما توقّف إليوت في مكتب بريد المنطقة.

- سوف أتّصل مع مات لكي أذكّره بأن يُطعِم كلبي.

- حسناً، يا وسيم، في انتظار ذلك، سأشتري المرهم الواقي من الشمس.

دخل إليوت إلى المبنى المزيّن بخرائط بحريّة وشِباك صيد ومجسّمات سفن. كان قد فكّر بالأمر طيلة الفترة الصباحية واعتقد أنّه قد عثر على وسيلة جديدة لإرسال رسالة في المستقبل! عند كوّة البريد، أفصح عن نيّته في إرسال برقيتين اثنتين إلى سان فرانسيسكو.

كانت الأولى تبدأ هكذا:

مات،

شكراً لك على كلّ شيء، لكنني ما زلت أحتاج إلى مساعدتك.

من فضلك، لا تسعى إلى فهم ما سأطلبه منك.

ذات يوم، سوف أشرح لك كلّ شيء. بانتظار تلك اليوم، ثِقْ بي.

...



سان فرانسيسكو، 1976

مات في سنّ الثلاثين

انسلّت أشعة شمسٍ ذهبية في نهاية النهار عبر الستائر الكتانية. أمسك مات الغيتار بين يديه وعزف لتيفاني أغنية راقصة من تأليفه: بعض الأنغام «المستعارة» من إلتون جون وكلمات قام بتعديلها عبر إدماج اسم غزوته الحالية لكي يُضفي الطابع الشخصي على الأغنية.

سألت تيفاني، غير غافلة عن سرقته الفنية:

- هل ما زالت هذه الأشياء تنجح؟

كانت تيفاني، مستلقية بلامبالاة على الأريكة، تنظر إليه بمرحٍ وهي تشرب كوباً من الكوكتيل.

وضع مات الغيتار وتقدّم نحوها مبتسماً:

- هذا ليس إنجازاً رائعاً، أعترف بذلك.

رشفت رشفةً من الكحول وبادلته ابتسامته.

قالت في نفسها وهي تجلس في الأريكة: **حتى في اعترافه بذنوبه، يُظهر هذا الرجل كامل سحره. والأنكى من ذلك... أنّه ينجح في ذلك.**

كانت قد وصلت إلى مرحلة من حياتها لم تعُد تنتظر فيها أيّ شيءٍ من الرجال، حتى وإن كان هذا لا يمنعها من الاستمرار في حبّها لهم.

جلس مات بجانبها، منبهراً بروعة ساقيها ومفرق نهديها الجذّاب.

هذه الفتاة لا تمتلك جسداً رائعاً ومثالياً فحسب، بل، فضلاً عن ذلك، وخلف ملامحها التي توحي بالبلاهة، لا تعدم العقل والروح.

طرد هذه الفكرة الأخيرة من ذهنه كما لو أنّ لهذا البُعد الذهني شيءٌ مرعبٌ. كان مات يخشى على الدوام من ألّا يكون بالمستوى المطلوب على هذا الصعيد. لم يكن قد درس التعليم العالي وكان يعاني من عقدة افتقاره للثقافة حتى وإن كان فخوراً للغاية باعترافه بذلك.

انحنى نحو تيفاني وقبّل شفتيها.

حسناً، عزيزي مات، لا تشتّت أفكارك. ركّز على شيءٍ واحدٍ فقط: هذه الفتاة.

كان قد جهد وأرهق نفسه لكي يُقنع تيفاني بأن تمنحه فرصة ثانية. لم يكن الأمر سهلاً، ولكنّه حقّق في النهاية هدفه. من دون استعجالٍ، أطال هذه اللحظة اللذيذة، واضعاً يده على فخذ المرأة الشابّة وصاعداً ببطءٍ وهدوء نحو...

- هل هناك أحدٌ ما؟

نهض مات في قفزة واحدة. ممّا لا شكّ فيه أنه لن ينجح أبداً في...

صاحَ أحدهم خلف الباب:

- أنا ساعي البريد! أحمل معي برقيتين لمات ديلوكا.

بينما كانت تيفاني تعدل وضع فستانها، فتح مات الباب متذمّراً وأخذ الرسالتين وأعطى إكرامية للموظّف.

قال الساعي:

- الرسالتان مرقّمتان. يجب قراءتهما بالترتيب.

فتح مات المغلّف الأوّل بعصبية واضطراب متوجّساً من أنّ البرقيتين تتضمنان أخباراً سيئة من قبيل وفاة أو مرض أو حادث...

فتح الورقة ليقرأ فيها بعض الأسطر المكتوبة بالآلة الكاتبة على شرائط ورقية صغيرة زرقاء.

كانت عبارة عن رسالة من إليوت، طويلة ومحيِّرة أثارت جملتان منها انتباهه: «**ثِقْ بي**»، ومن ثمّ جملة «**اذهب إلى بيتي بأسرع ما يُمكن**».

قال لتيفاني:

- أنا آسف، ولكن عليّ أن أغادر.

كما لو أنّها كانت تتوقّع هذا الاحتمال، نهضت المرأة الشابّة من الأريكة والتقطت خفّيها ووقفت أمام مات.

- إذا اجتزْتَ عتبة هذا الباب، اعلَمْ جيّداً أنّك لن تحظى برفقتي أبداً...

نظر إليها بتركيزٍ. شفّ ثوبها تحت أشعة الشمس قُبيل غروبها من دون أن يكشف كلّ منحنيات جسدها الساحر والمُغري.

قال إليوت موضِحاً:

- إنّها مسألةٌ مهمّة.

ردّت بالطريقة نفسها:

- وأنا، ألستُ مهمّة بالنسبة إليك؟

ثبّتت بدورها نظرتها على عينيه بحدّة وتبيّنت أنّ هذا الرجل، بالرغم من شبقه، أكثر عمقاً ممّا يبدو عليه. لا بدّ أنّها قد رغبت في استبقائه، ولكن لم يكن من الوارد بالنسبة إليها أن تتنازل مرّة ثانية.

قالت وهي تفكّ بإهمالٍ أحد أزرار ثوبها:

- سوف تندم على ذلك طيلة حياتك.

قال مات مؤيّداً:

- هذا الأمر، أنا متأكّدٌ منه.

- إذاً، واأسفاه عليك.

لملمت أغراضها قبل أن تغادر البيت.

هتفت وهي تدفع الباب:

- يا لك من رجلٍ مسكين!

* * *

فلوريدا، 1976

إليوت في سنّ الثلاثين

وصل إليوت وإيلينا إلى كي ويست في اللحظة التي عانقت فيها الشمس الأفق. وصلا إلى نهاية رحلتهما: أقصى نقطة في جنوب الولايات المتّحدة، هنا حيث تبدأ وتنتهي أميركا...

كان هناك شيءٌ من الأزلية في المكان وذلك بشوارعه الضيّقة وحدائقه الاستوائية وبيوته العائدة إلى الحقبة الاستعمارية. ركن السيارة من طراز ثندربيرد على حافة البحر وسار لبضع خطواتٍ على الشاطئ وسط طيور البلشون والبجع قبل أن يدخل إلى مقهى صغيرٍ اعتاد عجائز الجزيرة أن يجتمعوا فيه لإعادة بناء العالم وهم جالسون في الأفنية. كان لهما موعد مع روبرتو كروز، عمّ إيلينا، وهو أحد سكان الجزيرة القدماء والرجل الذي قدّم كلّ شيء لهمنغواي حينما أقام الكاتب الكبير في كي ويست، في الثلاثينيات من القرن العشرين. منذ ذلك الحين، اشترت البلدية المنزل لتجعله متحفاً وتعيّن روبرتو حارساً له. وكان هذا الأخير، وهو يرتدي قميصاً صيفياً ويُطلق لحية رمادية اللون، يبدو على شيءٍ من الشبه مع الكاتب الشهير. كان يسكن في ملحقٍ صغير بجانب بيت العمدة

تماماً وأصرّ على أن يُقيم إليوت وإيلينا في بيته لا في الفندق. وافق الشابّان على رغبته ولحقا به إلى مقصدهما.

قال وهو يفتح باباً شبكياً من الحديد المشغول يُفضي إلى فيلا جميلة من الطراز الإسباني:

- أهلاً وسهلاً بكما في بيت همنغواي!

لمّا ولج الحديقة، تساءل إليوت إن كان مات قد استلم برقيته.

* * *

سان فرانسيسكو
مات في سنّ الثلاثين

هتف مات وهو يفتح باب منزل إليوت:

- مرحباً يا راستاكويرو!

ركض اللابرادور الصغير نابحاً، مبتهجاً بهذه الصُحبة. حكّ مات رأسه وسحبه إلى الحديقة بعد أن ملأ وعاء طعامه. ظلّ لعدّة دقائق مستنداً إلى جذع شجرة، شارد الذهن في مكانٍ آخر، وهو يُعيد ويُكرّر قراءة البرقية المرسَلة من صديقه.

كان مات قلقاً. كانت تصرّفات وأحاديث إليوت تبدو له، منذ عدّة أيام، مفتَقِرَة إلى أيّ منطق وكان يلوم نفسه على عدم نجاحه في انتشاله من تخيّلاته. كان يعتقد أنّه يكفي أن يجعله يسافر على متن طائرة حتى يُعيده إلى الواقع، ولكن لم يكن ذلك كافياً. منذ البداية، لم تكن حكاية «المسافر عبر الزمن» هذه تَدَعَه يستبشر خيراً. كلّما مضت الأيام، دفعه إحساسٌ سيئ إلى الاعتقاد بأنّ أمراً خطيراً سيحدث لصديقه.

رغم شكوكه، نفّذ الشاب الفرنسي حرفياً التعليمات الواردة في

البرقية. ربّما كان إليوت على وشك أن يُصاب بالجنون، لكنّ مات قرّر أن يبقى وفيّاً لصديقه الذي كان بمثابة عائلته الوحيدة ونقطة توازنه الوحيدة. كان مات أحد أطفال مؤسسة رعاية الطفولة وقد عاش طفولته وفترة مراهقته في الضواحي الباريسية، متنقلاً من أسرة إلى أخرى. في سنّ الخامسة عشرة، غادر المدرسة من دونِ أمتعة، اشتغلَ في عدّة أعمال صغيرة لا أفق لها وارتكب جنحاً وأفعالاً غير محمودة. وجد نفسه لمرّاتٍ عديدة وسط المشاجرات التي تنتهي نهاية سيئة ويقضي ليلته في مفوضية الشرطة. وبينما بدأ يصبح «معروفاً من قبل أقسام الشرطة»، قرّر أن يغادر فرنسا لكي يجرّب حظّه في أميركا. وإذ لم يكن لديه ما يخسره، باع كلّ ما كان يملك ليشتري بطاقة ذهاب فقط إلى العالم الجديد. لو كان الكثيرون في مكانه ربّما استسلموا وتخلّوا عن أوهامهم منذ زمنٍ طويل، لكنّه كان محنكاً وموهوباً في إقامة العلاقات الإنسانية. في نيويورك أوّلاً ومن ثمّ في كاليفورنيا، شعر في الحال بالارتياح في هذا المجتمع المنفتح الذي لا يعير أهمية كبيرة للشهادات العلمية والمنبت الاجتماعي.

كما هو مذكورٌ في البرقية، وجد مات في المكتبة أطلساً ضخماً. كان عملاً قديماً ولكنّه لا يزال رائعاً بصوره التوضيحية البديعة والمحفوظة بورقٍ من الحرير. بين الصفحتين 66 و67، دسّ البرقية الثانية -من دون أن يفتحها- قبل أن يضع الكتاب في مكانه على الرفّ. ذهب بعد ذلك إلى المرأب ونبش في صندوق العدّة ليضع يده على كاوية لحام جلبها معه إلى البيت. أوصل الجهاز بالكهرباء في مكتب إليوت وتركه للحظة إلى أن أصبح حامياً فأمسك به بحذر وقرّب رأسه المحمرّ من طاولة العمل المصنوعة من الخشب الصلب.

* * *

سان فرانسيسكو، 2006
إليوت في سنّ الستين

كان الليل قد حلّ منذ وقتٍ طويل حينما عاد إليوت إلى المارينا. كان قد عاد لتوّه من المطار الذي غادرت منه أنجي على متن آخر رحلة إلى نيويورك. حينما دفع باب الفيلا خاصّته، أحسّ بالإرهاق والوحدة الشديدين.

تقدّم شارد الذهن في مكانٍ آخر ليقف أمام النافذة الزجاجية في مكتبه وهو ينظر إلى الأنوار المتلألئة وسط عتمة الليل من دون أن يراها. كان البيت مثله أيضاً: حزينٌ وبارد. ارتعش من البرد، فدلّك أعلى ذراعيه لكي يتدفّأ.

لمّا توجّه نحو جهاز التدفئة، توقف للحظة فلاحظ أنّ عبارة قد نُقِشَت بأحرفٍ كبيرة على طاولة مكتبه:

الأطلس الكبير
صفحة 66

اقترب، قلقاً. لم تكن هذه العبارة المنقوشة موجودة صباح اليوم. مع ذلك، بدا أنّ الزمن قد خدعه سابقاً.

ولكن مَن عبث بـ. . .؟

لم يستغرق وقتاً طويلاً في الإجابة عن هذا السؤال. بعد أن طبع الوشم على جسمه، ها هو المغفّل الصغير الآخر يحاول أن يُرسل إليه رسالة. بقي عليه أن يفهم معناها.

الأطلس الكبير؟ استغرق برهة من الوقت لكي يعثر على المرجع. الأطلس الوحيد الذي حصل عليه في حياته كان هدّية مقدّمة من أمّه قبل انتحارها ببضعة أيامٍ فقط. وقد حافظ بعناية

وتبجيل على هذا الكتاب في مكتبته ولكنّه لم يفتحه أبداً. تقدّم نحو رفوف المكتبة وصعد على كرسيٍّ لكي يضع يده على الكتاب المطلوب.

الصفحة 66؟

قلّب الصفحات باستعجالٍ.

هل يمكن بعد كلّ هذه السنوات أن. . . .

سقط مغلّف أزرق شاحب على أرضية المكتب.

برقية؟

لم يكن قد رأى مثلها منذ قرون.

التقطها وحتى من دون أن يتفحصّها مزّق بعصبية طرفَي المغلّف بحسب الخطّ المنقّط.

في داخل المغلّف، كانت بضعة أسطرٍ مكتوبة طباعةً تجاوزت الزمن وانتظرت ثلاثين عاماً لكي يلقي أحدهم نظرةً عليها:

إذاً، هل تفاجأت؟

تظنّ نفسك كليّ القدرة، أليس كذلك؟ لأنّك وجدت وسيلةً للذهاب والإياب في الماضي، تظنّ نفسك مخوّلاً بإشاعة القلق في حياة الآخرين وأن تُغادر من دون استئذان؟

لكن هذا لا يجوز، يا عزيزي...

فإذا ما فكّرنا جيّداً في الأمر، ربما أنت تعرف مستقبلي، لكنني أنا مَن أتحكّم بماضيك. لا يمكنك أن تفعل أيّ شيء ضدّي في حين أنّ نتائج أعمالي تؤثّر على حياتك.

الآن، قلبتُ الأدوار وأنا مَن أُدير اللعبة.

أريدُ تفسيرات وأريدها الآن.

أنتظرك.

هذا المساء.

مرعوباً بما قرأه، وضع إليوت البرقية على طاولة مكتبه. لقد فتح صندوق المفاجآت وتحقّقت أسوأ مخاوفه... استغرق بضع ثوانٍ للتفكير في الوضع ثمّ، مستسلماً، أمسك بعبوة الأقراص التي كان يحتفظ بها دائماً معه وأرغم نفسه على ابتلاعِ قرصٍ منها.

في الخارج، كان هناك ضياءُ وصوت الرعد. وبلعبة مرايا، عكس له زجاج الصالون نظرة الرجل الذي بات ألدّ أعدائه الآن: هو نفسه.

13

اللقاء الرابع

نجتازُ الحاضر بعيون معصوبة. (. . .) في ما بعد وفقط عندما تَزول العصابة ونتفحّص الماضي، ندرك ما عشناه ونفهم معناه.

ميلان كونديرا

كي ويست، فلوريدا، 1976

الساعة الثانية صباحاً

إليوت في سنّ الثلاثين

هبّت العاصفة قويّة على كي ويست وحرمت كلّ سكان الجزيرة من الكهرباء. لم يستطِعْ إليوت أن ينام. أمّا إيلينا فقد غطّت في نومٍ عميقٍ إلى جانبه من دون أن تستيقظ. أنار إليوت مصباحاً يعمل بالوقود وقرّر أن يستكشف منزل إرنست همنغواي. تحت وميض البرق، بدا البيت وكأنّه يهتزّ بفعل المطر والرياح مثل سفينة وسط عاصفة. بينما كان إليوت يسلك السلّم المركزي، هزّ رعدٌ عنيف كلّ الزجاج في البيت. اهتزّ الطبيب الشابّ وفكّر لجزءٍ من الثانية أن يعود أدراجه، ثمّ هزّ كتفيه.

هذا لا يغيّر حقيقة أنّه كان خائفاً. . .

لمّا أصبح في الطابق العلوي، تقدّم على الأرضية التي أصدرت صريراً حتى وصل إلى مكتب المعلّم. فتح الباب بهدوء حينما قفز شيءٌ ما في وجهه وأطلق صفيراً.

قطّة!

كان قد قرأ في مكانٍ ما أنّ همنغواي كان مولعاً بالقطط وأنّه كان يمتلك حوالي خمسين منها. رفع يده إلى وجهه: كان القطّ قد وجّه له ضربة قوية بمخالبه، مشوّهاً خدّه.

بالتأكيد، أنا والحيوانات...

خطا بضع خطوات في المكتب، مكتشفاً باندهاشٍ الأغراض الشخصية للكاتب الكبير مثل الآلة الكاتبة القديمة التي رافقته في أثناء الحرب الأهلية في إسبانيا ولوحة سيراميك كان بيكاسو قدّمها هديّة له ومجموعة أقلام حبر وقناع أفريقي وعشرات المقصوصات من الصحف وصور...

كان جوٌّ سحري يسود هذه الحجرة. لا بدّ من القول أنّ الأب همنغواي قد كتب، بين رحلات الصيد وشرب الكحول، بعض روائعه في كي ويست منها وداعاً للسلاح وثلوج كليمنجارو.

قال إليوت في نفسه: **ليس سيئاً لهذه الدرجة**، بينما عادت الإنارة أخيراً.

نفخ على لهب مصباحه واقترب من جهاز غرامافون قديم. بحذرٍ شديد، وضع أوّل أسطوانة وقعت تحت يده وبعد بضع ثوانٍ ارتفعت أنغام الكمان والغيتار في الغرفة: جانغو راينهارت وستيفان غرابيللي، أفضل ثنائي موسيقى الجاز في الثلاثينيات...

ولكن فجأةً، انحرفت الأسطوانة وتشوّشت المصابيح قبل أن تغرق الغرفة في الظلام الدامس.

قال إليوت في نفسه: يا لحظّي العاثر، لماذا أطفأتُ مصباحي؟

حاول أن يُشعله من جديد، لكنّه كان قد ترك ولّاعته في الغرفة.

في المكتب، لم يعُد من الممكن التمييز بين الأشياء سوى سيل المطر المنهمر على زجاج النوافذ. ظلّ الطبيب الشابّ لعدّة دقائق جامداً في مكانه وسط العتمة، على أمل أن يعود الضوء بين لحظة وأخرى.

فجأةً، أحسّ بحضور أحدهم تبعه صوت أنفاسٍ وضجيج معدنٍ.

سأل بصوتٍ مرتبك:

- من هناك؟

بدل الجواب، انبثق لهب ولّاعة على مبعدة عدّة أمتارٍ منه. تعرّف على العينين البرّاقتين لشخصه الآخر اللتين كانتا تنظران إليه وسط العتمة.

- تُريد تفسيرات أيّها الصبي الصغير؟ حسناً، سوف أقدّمها لك...

* * *

أشعل الطبيب العجوز فتيلة مصباح الكاز قبل أن يجلس في أريكة جلدية لونها كستنائي فاتح ويلتفت نحو إليوت.

صاح هذا الأخير بغضب وعنفوان الشباب:

- قل لي ماذا سيحدث لإيلينا!

- اجلس وكفّ عن الصراخ.

عِيْلَ صبر إليوت، فوافق على مضضٍ أن يأخذ كرسياً من الطرف الآخر لطاولة المكتب. نبش محدّثه في الجيب الداخلي لسترته ليمسك بصورة.

قال موضّحاً وهو يناوله الصورة:

- اسمها أنجي. عمرها عشرون عاماً وهي أكثر شخصٍ أتعلّق به في العالم.

نظر إليوت بتركيزٍ إلى الصورة.

- هل أمّها...

قاطعه الرجل العجوز مستبقاً السؤال:

- كلّا، أمّها ليست إيلينا.

- لماذا؟

- لأنّه عند ولادة ابنتي، كانت إيلينا قد ماتت منذ عشر سنوات.

تلقّى إليوت المعلومة دون أن يرفّ له جفن:

- ولماذا سأصدّقك؟

- لأنّه ليس لديّ أي سبب لأكذب عليك.

حينها طرح الطبيب الشاب السؤال الذي كان يؤرقه منذ الليلة السابقة:

- إذا قبلتُ أنّ هذا الكلام صحيح، لماذا تقول بأنّني أنا من قتلتُها؟

صمت الرجل الذي أمامه لبرهة كما لو أنّه يزن كلّ كلمة من كلماته قبل أن يؤكّد:

- أنت قتلتها لأنّك أسأت حبّها.

قال إليوت محتدّاً وهو ينهض:

- لقد سمعتُ الكثير من هذه الترّهات!

- أنت تحبّهما كما لو أنّ الحياة أمامك... ليس هكذا ينبغي للمرْء أن يحبّ.

باختصار، أخذ إليوت هذه الذريعة في الاعتبار قبل أن يرفضها. لكن المشكلة لا تكمن هنا. في تلك اللحظة، كان عليه أن يحصل على أكبر قدرٍ ممكن من المعلومات، لا أن يتفلسف حول الحبّ. كما أنّه ركّز الحديث حول الأمر الوحيد الذي يهمّه فعلاً:

- كيف يُفتَرَض أن تموت إيلينا؟

- سوف تتعرّض لحادث.

- حادث؟ أي حادث؟ ومتى؟

- هذا الأمر، لا تعتمد عليّ لأخبركَ به.

- ولماذا؟

- لأنني لا أريدُك أن تنقذها...

* * *

ظلّ إليوت صامتاً لبضع ثوانٍ جامداً بلا حراك أمام ستارة المطر التي كانت تغطّي زجاج النافذة. شعر أنّه لا يستوعب الحديث وأنّه لم يعُد يلتزم بالمنطق:

- ولكن في النهاية، هذه فرصتك الأخيرة... لقد وجدت وسيلة للسفر عبر الزمن وسوف تترك شريكة حياتك تموت؟

قال الرجل العجوز غاضباً وهو يضرب بقبضته على الطاولة:

- لا تُصدّق بأنني مسرورٌ بذلك! منذ ثلاثين عاماً وأنا لا أُفكِّر إلّا بهذا الأمر! **لو فقط** استطعتُ أن أعود إلى الوراء، **لو فقط** استطعتُ أن أنقذها، **لو فقط**...

- إذاً، كفّ عن التفكير في ذلك. افعَلْ ذلك!

- كلّا!

- لماذا لا؟

- لأنّه إذا أُنقِذَت إيلينا، ستعيش حياتك معها.

- وبالتالي؟

- وبالتالي، سوف لن تحافظ على أنجي أبداً. . .

لم يكن إليوت متأكّداً من أنّه قد فهم، فسأل وهو يهزّ كتفيه:

- أين المشكلة؟ سوف أُنجب أطفالاً آخرين. . .

- أطفالٌ آخرين؟ ولكنني لا أبالي بأطفالك الآخرين. أنا لا أريد أن أفقد ابنتي! لا أريد عالماً بلا أنجي!

أجاب إليوت جازماً:

- وأنا، سوف لن أدَعَ إيلينا تموت.

نهض الرجلان من مكانيهما تحت تأثير الانفعال والغضب ولم يعُد يفصلهما سوى بضع سنتيمترات وقد وقفا متقابلين ومستعدّين للتصادم النهائي:

- ربّما تعتقد أنّك تتحكّم بالأمور لأنّك أكثر شباباً منّي، ولكن من دوني، سوف لن تعرف قط كيف ستموت إيلينا ولن تستطيع أن تفعل أيّ شيءٍ لإنقاذها.

- على أيّ حال، إذا ماتت إيلينا، لا تعتمد عليّ لأكون والد أنجي خاصّتك!

- حينما تصبح أباً، سوف تفهم عليّ، يا إليوت: لا يتخلّى المرء عن طفله حتّى من أجل إنقاذ المرأة التي يحبّها. . .

ظلّا على هذه الحال لوقتٍ طويل، يحدّق كلّ واحدٍ منهما في عينَي الآخر، ويتمسّك كلّ منهما بمواقفه. حلّت المواجهة محلّ التفاهم الذي حصل بينهما في لقائهما الأخير. صراع رجلٍ ضدّ ذاته، في سنّين مختلفين من حياته، كلٌّ منهما مستعدٌّ لأنْ يُقاتل حتى النهاية: أحدهما من أجل إنقاذ زوجته، والآخر لكي لا يخسر ابنته.

بينما كان النقاش بينهما يواجه مأزقاً، طرح الأكبر سنّاً منهما مخرجاً:

- إلى أيّ حدٍّ أنت مستعدّ للذهاب لإنقاذ إيلينا؟

أجاب إليوت من دون أن يُظهر انزعاجاً:

- إلى أبعد ما يكون.

- وعن ماذا يمكنك أن تتخلّى لقاء ذلك؟

- عن كلّ شيء.

- إذاً، ربّما لديّ فكرة...

* * *

كان المطر لا يزال يهطل بغزارة.

انتهى الأمر بالرجلين إلى الجلوس بجانب بعضهما على مقعدٍ من خشب الجوز بجانب طاولة المكتب. لاحَ خلفهما عبر النافذة على نحوٍ متقطّع ومنتظم ضوء منارة كي ويست وهو يُسقِطُ ظلّهما على الجدار وأرضية المكتب.

- أنت تُريد أن تنقذ إيلينا وهذه رغبة مشروعة، ولكنّك لن تستطيع أن تفعل ذلك إلّا إذا التزمتَ باحترام ثلاثة شروط...

- ثلاثة شروط؟

- الشرط الأوّل، هو ألّا تتحدّث لأيّ شخصٍ عمّا يحدث لنا. ليس لإيلينا بالطبع، ولكن ليس لمات أيضاً.

احتجّ إليوت:

- أنا أثق في مات.

- المسألة ليست مسألة ثقة، المسألة مسألة خطر. اسمع، أنا على قناعة بأنّ المرء يرتكب خطأً، خطأً جسيماً بسعيه إلى معاكسة القدر وأنّه سيدفع ثمن ذلك غالياً جدّاً ذات يوم أو آخر. بالنسبة لي،

أنا مستعدٌّ لأن أُعرّض نفسي إلى هذا الخطر معك، شريطة ألّا تورِّط أيّ شخصٍ آخر.

- ما هو الشرط الثاني؟

- إذا نجحنا في إنقاذ إيلينا، سيكون عليك أن تنفصل عنها...

سأل إليوت وهو يزداد ارتياباً:

- أن أنفصل عنها؟

- أن تنفصل عنها وألّا تراها مجدّداً أبداً. سوف تبقى هي على قيد الحياة، ولكن في مسيرة حياتك، سيكون عليك أن تتصرّف كما لو أنّها ميّتة.

ظلّ إليوت مشدوهاً وهو يُدركُ فجأةً هَول ما يترتّب على ذلك. فتح فمه، ولكنّه لم يتفوّه بكلمة.

قال الطبيب العجوز معترفاً:

- أُدرك جيّداً أنني أطلب منك شيئاً فظيعاً.

استطاع إليوت أن ينطق بصوتٍ هامس:

- وما هو الشرط الثالث؟

- بعد تسعة أعوام، في 6 أبريل 1985، خلال مؤتمرٍ خاصٍّ بالجراحة في فيرون، سوف تلتقي امرأة ستُبدي اهتماماً بك. سوف تستجيب لمبادراتها وسوف تقضيان معاً عطلة نهاية أسبوعٍ ستكون ابنتنا ثمرتها. هذا ما عليكَ أن تفعله، لأنّ هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ إيلينا وأنجي في آنٍ واحد.

من جديد، دوّى الرعد والبرق بعنف في السماء.

ولأنّ إليوت لم يُجِبْ بأيّ شيء، أوضح شخصه الآخر:

- هذا هو الثمن الذي ينبغي دفعه لقاء تغيير مسار الأمور. ولكن أنتَ حرٌّ في رفض ذلك.

نهض الرجل العجوز وزرّر معطفه كما لو أنّه يتهيّأ للخروج تحت الأمطار الغزيرة.

أدرك إليوت حينها بأنّ ليس لديه أيّ خيار آخر سوى القبول بهذا الاتفاق. في جزءٍ من ثانية، مرّت السنوات السعيدة التي أمضاها مع إيلينا أمام عينيه. في الوقت نفسه، أدرك كذلك أنّ هذه السعادة سوف تنتهي قريباً وأنّ عليه أن يستعدّ لأن يعيش سنواتٍ عصيبة.

بينما كان شخصه الآخر يتهيّأ لمغادرة الغرفة، مدّ إليوت يده ليستبقيه.

فصاح:

- أنا موافق!

لم يلتفت الآخر إليه وأجاب فقط:

- سأعود قريباً.

. . . قبل أن يُغلق الباب من خلفه.

14

اللقاء الخامس

كلّ ما يجب أن يحدث سوف يحدث، أيّاً كانت الجهود التي تبذلها لتجنّبه.
كلّ ما لا يجب أن يحدث سوف لن يحدث، أيّاً كانت الجهود التي تبذلها للحصول عليه.
راما نا ماهارشي

لقد لاحظتُ حتى الناس الذين يدّعون أنّ كلّ شيء مقدّر، وأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لتغييره، أنّهم ينظرون قبل عبورهم الشارع.
ستيفن هوكينغ

سان فرانسيسكو
إليوت في سنّ الثلاثين

أكتوبر،

نوفمبر،

ديسمبر...

ثلاثة أشهر من دون أخبارٍ عن المستقبل!

ظاهرياً، كانت الحياة قد استعادت مسارها الطبيعي. كان إليوت يعالج مرضاه في المستشفى؛ بينما تعتني إيلينا بحيتانها في الحديقة المائية؛ ولم يلتقِ مات تيفاني مرّة أخرى، ولكنّه كان يعمل بحيوية في إطلاق مشروع معمل النبيذ الذي اشتراه بالشراكة مع إليوت.

حتى وإن كان يحاول أن يتظاهر بعكس ذلك، عاش الطبيب الشاب في خوفٍ وتوتّر، يقلق لأدنى تصرّفٍ لإيلينا ويترقّب دون توقّفٍ ظهوراً جديداً لشخصه الآخر.

لكنّ الآخر لم يعُد يظهر...

ولذلك، كان إليوت يأمل في بعض الأيام أن تكون كلّ هذه الحكاية مجرّد حلم. وماذا لو أنّ هذه اللقاءات لم تحدث إلّا في ذهنه؟ لم يكُن ذلك مستحيلاً في نهاية المطاف: بسبب الضغط النفسي، يزداد عدد الأشخاص الذين يقعون ضحايا الإنهاك، أي فترات الإجهاد المهني التي قد تؤدي إلى الاكتئاب، بل وإلى فقدان الوعي بالوقائع. ربّما كان ضحية هذا المرض. ربّما عادت الأمور الآن إلى نصابها وأنّ هذه الحادثة العرضية التي داهمته لم تعُد سوى مجرّد ذكرى.

لا بدّ أنّه رغِب كثيراً أن يُصدّق ذلك...

* * *

ساد فصل الشتاء في سان فرانسيسكو تاركاً المدينة جامدة وسط البرد والكآبة اللذين تزيّنهما فقط أضواء أعياد الميلاد.

في صباح يوم 24 ديسمبر ذاك، وصل إليوت إلى المستشفى في مزاجٍ جيّد. كانت تلك مناوبته الأخيرة قبل العطلة. كان من المفترض أن تلحق به إيلينا في السهرة ويسافرا معاً في اليوم التالي إلى هونولولو لقضاء أسبوعٍ من الاستجمام تحت أشجار جوز الهند.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد حينما وصلت سيارة إسعافٍ مُسرعةٍ إلى مرأب المستشفى وفيها حمّالة عليها امرأة مصابة بحروقٍ بليغة.

كان كلّ شيء قد بدأ قبل نصف ساعة، حينما تحرّك رجال الإطفاء لكي يقوموا بإطفاء حريقٍ شبّ في مبنى في حي هايت آشبوري. مبنى قديم ومتهالك ينام فيه أحياناً مدمنو المخدّرات. هناك، وفي الساعة الخامسة صباحاً، في أسوأ أوقات تعاطي الهيروين، صبّت امرأة شابّة صفيحة من البنزين على جسدها قبل أن تُشعِلَ عود ثقاب.

كان اسمها إيميلي دونكان وعمرها عشرون عاماً وبضعة أيام.

* * *

ولأنّ قسم الإسعاف كان بحاجة إلى طبيبٍ جرّاح، تمّ استدعاء إليوت على الفور لتقديم المساندة. حينما انحنى على المُصابة لفحصها، أحسّ بالصدمة أمام فظاعة الجروح.

كانت الإصابات تمتدّ على كامل جسمها: حروقٌ من الدرجة الثالثة شوّهت ساقيها وظهرها وقفصها الصدري... كان كلّ شعرها تقريباً قد احترق واختفى وجهها تحت الجروح والقروح مثلما كانت الحروق الواسعة قد التهمت جذعها وصدرها وضغطت على قفصها الصدري إلى حدّ اختناقها.

اختار إليوت أن يُجري لها عمليتَي فتح شقّين جانبيين ليجعلها تتنفّس على نحوٍ أفضل، ولكن لمّا قرّب المبضع من جذعها، أحسّ أن يده قد أبدت حركة تراجع. فأغمض عينيه لثانية، في محاولة منه لتصفية ذهنه لكي يستعيد تركيزه. وفي النهاية، تغلّبت المهنية على

حساسيته العاطفية واستطاع أن يباشر بالتدخّل الجراحي من دون أن ترتجف يداه.

خلال وقتٍ لا بأس به من الفترة الصباحية، اجتهد الفريق الطبّي في العمل على إيميلي، وهو يبذل كلّ ما بوسعه ليقدّم لها أفضل ما لديه من العناية والعلاج ويهدّئ من حدّة الألم الذي يعصف بها.

ومع ذلك، سُرعان ما أصبح من الواضح أنّه لا يُمكن إنقاذ المرأة الشابّة حيث كانت حروقها ممتدّة على نحوٍ واسعٍ من جسمها وضَعُفَت قدراتها التنفسية ولم تعُد كليتاها تعملان، فاكتفى الأطباء بالعمل على استقرار حالتها والانتظار...

* * *

في بداية فترة ما بعد الظهيرة، حينما دفع إليوت باب غرفة إيميلي، وجدها مغطّاة بالضمادات ويتمّ حقنها على نحوٍ متواصل. فوجِئ بالهدوء الغريب الذي يسود الغرفة، مثل صمت جنازة يعكّر هدوءها فقط صوت نبضات القلب المنبعثة من شاشة المراقبة.

اقترب إليوت من السرير ونظر إلى المرأة الشابّة. كان ضغطها لا يزال مقلقاً، على الرغم من أنّ آثار الهيروين كانت قد تلاشت وبدت أنّها قد استعادت وعيها ربّما بما يكفي لكي تُدرك بأنّ لا أمل في شفائها...

سحب كرسياً بلا مساند وجلس قرب هذه الفتاة التي لا يعرفها ولم يعُد بوسعه أن يفعل لها شيئاً. لم يُعرَف لها أيّ عائلة ولم يكن أحدٌ يُرافقها في معركتها الأخيرة. ربّما فضّل إليوت أن يكون في مكانٍ آخر، لكنّه لم يتجنّب تلك النظرة اليائسة المنصبّة عليه. قرأ فيها الرعب، ولكن أيضاً أسئلة لم يكن لديه جوابٌ عنها...

في لحظة، حاولت أن تهمس بشيءٍ ما، فانحنى نحوها، ورفع قناع الأوكسجين واعتقد أنّه قد سمع «**أنا أتألّم**»، فقرّر أن يزيد من جرعة المورفين لتهدئة الألم. كان على وشك أن يدوّن ذلك كتابةً حينما أدرك فجأةً أنّ إيميلي لم تقل: «**أنا أتألّم**»، وإنّما:

- أنا أخاف...

بماذا يمكنه أن يُجيب عن هذا؟ أن يُجيب بأنّه هو أيضاً يخاف وأنّه يتأسّف لأنّه غير قادرٍ على إنقاذها، وأنّ الحياة بدت له بلا معنى في يومٍ مثل هذا اليوم؟

أراد أن يأخذها بين ذراعيه وفي الوقت ذاته يصرخ بها ويُعبّر عن حنقه. لماذا هذه الحركة المجنونة؟ ما الظروف التي تجعل المرء يجد نفسه في كوخٍ حقير وهو مُخدّر بالهيروين إلى آخر درجة؟ أيّ ألَمٍ يبرّر أن يسكب المرء البنزين على جسده ليحرق نفسه وهو لم يبلغ من العمر سوى عشرين عاماً؟

أراد أن يصرخ فيها بكلّ هذا. لكن ليس هذا هو المفروض أن يفعله الأطبّاء في المستشفيات... فاكتفى بالبقاء معها، وأحاطها بكلّ ما أوتي من تعاطفٍ وشفقة لأنّه لم يكن هناك أيّ شخصٍ آخر ليفعل ذلك، حيث كانت ليلة عيد الميلاد وكان ثمّة نقصٌ في الكادر الطبي في المستشفى، رغم أنّ نظام المستشفى ينصّ على معالجة المرضى لا مرافقتهم.

كان تنفّس إيميلي يزداد سوءاً وترتعش من دون توقّف.

كان إليوت يعلم أنّها تتألّم ألماً فظيعاً على الرغم من المورفين، كما كان يعلم بأنّه سوف لن ينسى أبد الدهر عينيها اللتين كانتا تتشبّثان بيأس بعينيه.

يعتقد المرء أنّه قد رأى كلّ شيء في هذه المهنة، ولكن هذا غير صحيح. يعتقد المرء أنّه يعرف الأسوأ ولكن الأسوأ يأتي دائماً في المستقبل ونرى دائماً ما هو أسوأ من الأسوأ.

* * *

مرّت ساعة على هذه الحال، ثمّ مرّت ساعتان. لمّا أنهى إليوت دوامه رسميّاً عند الساعة الثالثة عصراً، نهض بهدوء وقال لإيميلي واعداً:

- سأعود.

خرج إلى الممرّ وطلب المصعد. كان عليه أن يُخبر إيلينا ويشرح لها بأنّه سوف لن يستطيع الذهاب إلى المطار لاستقبالها وبأنّه سيعود بالتأكيد ليلاً.

في البهو، وجد مقصورة هاتف وركّب رقم الحديقة المائية أوشن وورلد، على أمل ألّا تكون إيلينا قد غادرت بعد. ردّ عليه عامل المقسم، فطلب منه توصيله بمكتب الطبّ البيطري.

ردّ صوت إيلينا:

- مرحباً؟

بدأ بالقول: مرحباً... قبل أن يُدرك أنّه كان يتكلّم دون أن يُصغي إليه أحد.

أدار رأسه ليرى أنّ أحدهم قد ضغط على الفاصل وقطع المحادثة.

إنّه شخصه الآخر.

حذّره الرجل العجوز:

- إنّه اليوم...

- اليوم؟

- اليوم على إيلينا أن تموت.

* * *

صعد الرجلان باتفاقٍ مشترك إلى شرفة سطح المستشفى. جاءا، وهما في سنّين مختلفين، إلى هنا ليدخّنا سيجارتهما من دون أن يعانيا من نظرات زملائهما المستنكرة. هنا، على الأقلّ، كانا يعلمان بأنّهما سيكونان في هدوءٍ إلى حدٍّ كبير.

بينما كان إليوت يتحرّك هائجاً في كلّ اتجاه مستعجلاً معرفة المزيد، وضع شخصه الآخر يده الحازمة على كتفه.

- لا ينبغي أن تُجري هذه المكالمة الهاتفية.

- لماذا؟

- لأنّ إيلينا سوف لن تتفهّم؟

- لن تتفهّم ماذا؟

- لن تتفهّم أن تتخلّى عنها لكي تبقى مع مريضة في حين أنّك أنهيت دوامك. لم ترها منذ ثلاثة أسابيع ولذا تنتظر منك أن تذهب للقائها في المطار وأن تمضيا السهرة معاً.

حاول إليوت أن يبرّر موقفه:

- ما حدث لهذه المرأة الشابة أمرٌ رهيب. لم يعُد لديها أحد و. . .

قال الرجل العجوز بنبرة متعاطفة:

- أعلم ذلك. قبل ثلاثين عاماً، سهرتُ عليها طيلة الليل ولم أنسَها أبداً.

تغيّر صوته من جرّاء التأثّر. أردف قائلاً:

- ولكن في الصباح الباكر، بينما كنتُ أغادر المستشفى، كان خبرٌ رهيب ينتظرني: ماتت المرأة التي أحبّها.

باعد إليوت بين ذراعيه في إشارة إلى أنّه لم يفهم قصده.

- ما العلاقة بين هذه المريضة وموت إيلينا؟

قال له الرجل العجوز واعداً:

- سوف أروي لك كلّ شيء ولكن أريد فقط أن أتأكّد من أنّ اتّفاقنا لا يزال سارياً.

ردّ إليوت مؤكّداً:

- لا يزال سارياً.

- إذاً، إليك ما سوف يحدث فيما لو أجريت هذه المكالمة.

بدأ الطبيب العجوز بسرد حكايته. تكلّم لوقتٍ طويل بصوتٍ متهدّج يتقطّر حسرةً وندماً.

ولكي يُصغي إليه على نحوٍ أفضل، أغمض إليوت عينيه وتتالت الصور في ذهنه كما لو أنّها شريط فيلمٍ سينمائي...

* * *

إيلينا: مرحباً؟

إليوت: مرحباً، هذا أنا.

إيلينا: لا تعذّب نفسك بالإلحاح، سوف لن تعرف هديّتك قبل هذا المساء!

إليوت: اسمعي حبيبتي، لديّ مشكلة...

إيلينا: ما بكَ؟

إليوت: لن أستطيع المجيء لاستقبالكِ في المطار...

إيلينا: كنتُ أعتقد أنّكَ تُنهي دوامك في الساعة الثالثة.

إليوت: هذا صحيح، لقد أنهيتُ دوامي...

إيلينا: ولكن؟

إليوت: ولكن يجب أن أبقى مع مريضة. امرأة شابّة حاولت الانتحار هذا الصباح في كوخ...

إيلينا: مدمنة على المخدّرات؟

إليوت: وماذا يُغيّر هذا في الأمر؟

إيلينا: حسبما أفهم، تقول لي بأنّك تقضي سهرة عيد الميلاد في المستشفى مع متعاطية مخدّرات لا تعرفها سوى منذ بضع ساعات؟

إليوت: أنا أقوم فقط بعملي.

إيلينا: عملك! ولكن هل تعتقد أنّك الوحيد الذي لديه عمل؟

إليوت: اسمعي...

إيلينا: لقد تعبتُ من انتظارك، يا إليوت.

إليوت: لماذا تتصرّفين هكذا؟

إيلينا: لأنّني أنتظرك منذ عشر سنوات وأنت حتى لا تعرف ذلك.

إليوت: سوف نتكلّم في كلّ هذا غداً صباحاً...

إيلينا: كلّا، يا إليوت. لن آتي إلى سان فرانسيسكو. اتّصل بي حينما تكون متأكّداً من أنّك ترغب في أن تعيش حياتك معي.

ظلّ إليوت عدّة دقائق أمام مقصورة الهاتف. لثلاث مرّات، أمسك بسمّاعة الهاتف، متهيّأً للاتصال بإيلينا لكي يعتذر ويحاول ترتيب الأمور معها، إلّا أنّه لم يفعل ذلك لأنّه لم يكن قادراً على ترك المرأة الشابّة التي تُحتضر على ارتفاع طابقين منه.

انتظرت إيلينا نصف ساعة أمام الهاتف ثمّ، حينما أدركت أنّ

إليوت لن يتّصل، مزّقت بعصبية بطاقة الطائرة ورمتها في سلّة المهملات. ورمت في السلّة أيضاً الهدية التي كانت قد اشترتها له والتي سوف لن يرى أبداً لونها: ساعة يد نُقِشَت عليها الأحرف الأولى من اسمه.

خرجت من مكتبها محبطةً تماماً ولجأت إلى الحدائق الخاصّة بالمنتَجع حيث ذرفت كلّ دموعها أمام طيور النحام الوردية اللون والتماسيح التي سخرت من حزنها.

ثمّ قرّرت أن تُلغي إجازتها وأن تستأنف عملها. خصّصت فترة نهاية ما بعد الظهيرة من وقتها لجولتها الاعتيادية، كما لو أنّ شيئاً لم يكن. كان الليل قد حلّ حينما أنهت عمليات التفتيش بزيارة الزامور المفضّلة لديها.

- مرحباً آنوشكا. الأمور ليست على ما يُرام بالنسبة إليك أيضاً، أليس كذلك؟

منذ بضعة أيام، كانت عميدة الحيتان في أوشن وورلد مكتئبة، رافضة أن تتغذّى وأن تشارك في العروض. كانت زعنفتها مترهّلة ومرتخية وحلّت محلّ وداعتها وطاعتها نزعة عدوانية اتجاه مدرّبيها والحيتان الأخرى التي تتقاسم معها الحوض المائي. لم يكن سبب تصرّفها بهذه الطريقة صعب الاكتشاف: وهي بالكاد تبلغ ثمانية أعوام، أُنتُزِعَت ابنتها إيريكا منها لكي تُشارك في أوروبا في برنامجٍ لتكاثر الحوتيات. رحلة بالطائرة لعشرين ساعة وهي محبوسة في صندوقٍ معدني من دون حتى مدرّب لكي يُشعرها بالطمأنينة!

انحرافٌ عن السويّ...

كانت إيليزا قد فعلت كلّ ما بوسعها لتُعارض عملية النقل

هذه، مُظهِرَة العواقب الوخيمة لهكذا عملية انتزاع، وشارحةً بأنّ أعضاء جماعة الحيتان المسافرة معاً لا ينفصلون أبداً عن بعضهم في بيئتهم الطبيعية. ولكن لأسباب مالية، لم تتّبع الإدارة توصياتها.

كانت الحدائق المائية تتوقّع في الواقع منعاً مرتقباً لاحتجاز الحوتيات ساعية إلى تنمية عمليات الإنجاب بين الحيتان المحتجزة في الأحواض.

انحنت إيلينا على الحوض المائي لكي تحثّ أنثى الحوت على الاقتراب من حافّة الحوض، فخاطبتها باللغة الإنجليزية:

- تعالي، حبيبتي!

لكنّ آنوشكا لم تستجِبْ لنداءاتها. كانت الزامور تدور حول نفسها، يائسة، وتُطلق أنيناً شاكياً. كانت إيلينا تخشى من انهيار مناعتها: فهذه الحيتان العملاقة، على الرغم من مظهرها، ضعيفة أمام أصغر جرثومة. كانت التهابات الكلى والرئة من الحالات الشائعة بينها. كان جواكيم، الذكر المهيمن في الحوض، قد عانى الأمرّين قبل ستّة أشهر من جرّاء إصابته بتسمّم دمويّ حادّ. هكذا كان مصير هذه الحيوانات العملاقة: الهزيمة أمام أصغر الكائنات.

كانت إيلينا تزداد امتعاضاً وتشعر بمزيدٍ من عدم الارتياح لاحتجاز الحوتيات. مسجونة بين أربعة جدران، ومتخبّطة في مياهٍ معالَجَة بالمواد الكيميائية ومتغذية على الفيتامينات والمضادات الحيوية، لم تكن الدلافين والحيتان تعيش حياة مثالية مثلما يُراد أن توصف للزوّار. أمّا بالنسبة إلى العروض، فقد كانت بالتأكيد باهرة، لكن ألم تكن تشكّل نوعاً من الإهانة بحقّ هذا الجنس من

الكائنات التي لا تقلّ قدراتها الإدراكية عن قدرات الكائن البشري؟

فجأةً، ومن دون سببٍ ظاهر، هاجت آنوشكا وبدأت تنطح بعنف السياج المعدني للحوض.

قالت إيلينا آمرةً وهي تُغَطّس سريعاً فرخ سمكٍ في الحوض لتهدّئ الزامور:

- لا تفعلي هذا!

كانت قد شاهدت سابقاً حيتاناً لديها ميول انتحارية وكان واضحاً أنّ آنوشكا تحاول أن تجرح نفسها عمداً. استبدّ القلق بإيلينا، فألقت لها بعض الأسماك لتثنيها عن مشروعها المميت.

- اهدئي! اهدئي يا جميلتي!

فقدت قفزات آنوشكا قوتها تدريجياً وبدا أنّها تستعيد هدوءها.

قالت إيلينا وهي أكثر اطمئناناً:

- أحسنتِ يا آنوش.

... إلى أن رأت خيطاً طويلاً من الدم يلوّن سطح الماء.

- أوه كلّا!

من شدّة إيذاء نفسها بالضربات، أصيبت الزامور بجروح.

انحنت المدرّبة الشابّة على الماء. من النظرة الأولى، رأت أنّ الجرح يقع عند فكّ آنوشكا.

ربّما كان على إيلينا أن تحترم القاعدة الذهبية للمدرّبين: عدم التعاطي أبداً مع زامورٍ حينما تكون في حالة عدوانية وعدم مرافقتها في الماء إلّا بعد التأكّد من أنّها قد عادت وديعة ومطيعة.

ربّما كان عليها أن تُفعّل إشارة الإنذار.

ربّما كان عليها أن تنبّه زملاءها.

ربّما كان عليها...

لكنّها إذ كانت لا تزال تحت صدمة شجارها مع إليوت، تخلّت إيلينا عن حذرها وغطست في الحوض حيث كانت آنوشكا قد استعادت جولتها المحمومة.

حينما أحسّت أن إيلينا تُقبِل نحوها، انقضّت آنوشكا عليها في قفزةٍ واحدة، فاتحة شدقيها كما لو أنّها تريد عضّها قبل أن تسحبها إلى القاع.

قاومت إيلينا، لكنّ الزامور كانت هي الأقوى.

كلّما كانت المرأة الشابة تطفو إلى السطح، كانت الزامور تُغطسها في الماء من دون أن تترك لها أدنى فرصة للتنفّس.

كانت إيلينا سبّاحة ماهرة، قادرة على البقاء لعدّة دقائق حابسة أنفاسها.

لكن لا يمكن للمرء أن يُصارع طويلاً حيواناً يبلغ وزنه أربعة أطنان وطوله ستّة أمتار...

ومع ذلك وفي لحظة معيّنة، حينما لم تعُد تُصدّق ذلك، نجحت في بلوغ سطح الماء واستعادة أنفاسها. في حركة يائسة، باشرت بالسباحة نحو حافة الحوض. كانت على وشك أن تصل إليه حينما...

التفتت إلى الوراء.

في غضون نصف ثانية من الرعب، حظيت بالوقت الكافي لترى الزعنفة الذيلية الضخمة للزامور تهوي عليها بسرعة هائلة.

كانت الصدمة رهيبة والألم الذي تبعها شديداً جدّاً لدرجة أنّها

كادت أن تفقد وعيها. غطست من دون مقاومة وتركت نفسها تنسحب نحو القاع. في آخر لحظة من الصفاء، بينما كانت رئتاها تمتلآن بالمياه المالحة، تساءلت المرأة الشابّة لماذا تصرّفت آنوشكا، التي تعالجها منذ سنوات، بهذه الدرجة من العنف. من دون شكّ لم يكن هناك جوابٌ لهذا السؤال. من دون شكّ أنّ الحياة في حوضٍ على المدى الطويل قد يجعل الكائن مجنوناً...

ذهب تفكيرها الأخير نحو الرجل الذي أحبّته. لطالما كانت مقتنعة بأنّهما سيشيخان معاً وها هي الآن ترحل أوّلاً وهي لم تبلغ حتى الثلاثين من عمرها.

لكنّ الإنسان لا يختار مصيره. لقد قرّرت الحياة بالنيابة عنهما، أوليس هذه هي الحال على الدوام؟

مسكونة بالرعب والذعر ومحاصرة بالعتمة، أحسّت أنّ تياراً مُميتاً يجرفها. بينما كانت تنقلب نهائياً على الجانب الآخر، تحسّرت فقط على أنّهما افترقا بعد مشاجرةٍ وأنّ آخر صورة سيحتفظ بها إليوت عنها ستكون مشوبة بالمرارة والاستياء.

* * *

هبّت الرياح بنسماتها الباردة على سطح المستشفى.

كما لو أنّه يخرج من كابوسٍ، فتح إليوت عينيه بينما كان شخصه الآخر يُنهي سرده المرعب.

ظلّ الرجلان صامتين. أحدهما فزعٌ ممّا عرفه للتوّ، والآخر تحت تأثير صدمة ما رواه.

ثمّ هزّ إليوت رأسه وفتح فمه قبل أن يُبدي تردّداً. مستبقاً تحفّظاته، أخرج الطبيب العجوز ورقة مصفرّة اللون من جيبه.

بدأ قائلاً:

- إذا كنت لا تصدّقني...

انتزع إليوت الورقة من بين يديه.

كانت عبارة عن مقالة قديمة مقصوصة من صحيفة **ميامي هيرالد**.

كانت الصحيفة، على الرغم من مظهرها المصفرّ، تحمل تاريخ اليوم التالي: 25 سبتمبر 1976!

بدأ إليوت، مرتعش اليدين، بقراءة النصّ المرفَق بصورةٍ شخصيةٍ كبيرة لإيلينا.

أنثى حوت تقتل
طبيبة بيطرية شابّة!

مأساة مروّعة حدثت الليلة الماضية في حديقة أوشن وورلد المائية في أورلاندو حيث هاجمت أنثى حوت قاتلة بطريقة غير مفهومة مدرّبتها لم تلزم أنثى الحوت العملاقة سوى بضع دقائق لكي تعتدي على الطبيبة إيلينا كرون، الطبيبة البيطرية في الحديقة المائية وتُغرقها وهي التي لم تسع سوى إلى نجدتها.

وإذا كانت ملابسات الحادث لا تزال غير معروفة تماماً، إلّا أنّه يبدو أنّ المدرّبة الشابّة لم تراعي كلّ إجراءات الأمان. وبانتظار معرفة المزيد من التفاصيل، رفضت إدارة حوض الدلافين الإدلاء بأيّ تعليق على الحادث.

حينما رفع عينيه عن الصحيفة، رأى الطبيب الشاب يبتعد ويتوارى وسط الضباب.

هتف الآخر قبل أن يفتح الباب المعدني ويختفي:

- الآن، الكرة في ملعبك!

ولأنّه تُرك لوحده، ظلّ إليوت لبضع ثوانٍ أخرى على السطح، مزعزَعاً وجامداً بفعل البرد والارتياب والحيرة. ثمّ كفّ عن التساؤل، إذ لم يعُد الوقت وقت طرح الأسئلة، وإنّما وقت الفعل.

بدوره، غادر السطح ونزل السلّم مسرعاً لكي يصل إلى مقصورات الهاتف.

لا يهمّ ما سيحدث غداً.

لا يهمّ ما الثمن الذي ينبغي دفعه.

سوف يذهب لإنقاذ المرأة التي أحبّها.

ولا أهمية لأيّ شيءٍ آخر.

* * *

انطلق في بهو المدخل مثل السهم واصطدم ببعض زملائه قبل أن يُمسك بسمّاعة هاتف ويُركّب رقم إيلينا.

سمع الطنين... ومن ثمّ الرنّات الأولى... وأخيراً جاءه صوتٌ:

إيلينا: مرحباً؟

إليوت: مرحباً، هذا أنا.

إيلينا: لا تعذّب نفسك بالإلحاح، سوف لن تعرف هديّتك قبل مساء اليوم.

إليوت: اسمعي، حبيبتي...

إيلينا: ما بكَ؟

إليوت: لا شيء... أنا قادمٌ لاستقبالكِ في المطار، كما اتّفقنا.

إيلينا: أتحرّق شوقاً لِلُقياك...

إليوت: أنا أيضاً.

إيلينا: صوتكَ غريب، هل أنت متأكّد أنّك بخير؟

إليوت: الآن، أنا بخير.

* * *

بعد أن أغلق السمّاعة، أصبح إليوت غير قادرٍ على العودة إلى الغرفة للنظر في عيني إيميلي، الشابّة المحترقة التي كانت لا تزال تُحتضر. طلب فقط من إحدى الممرّضات المناوِبات أن تمرّ لرؤيتها بانتظام.

ثمّ ارتدى معطفه وخرج إلى المرأب. هل كان هناك أيّ معنى لما يفعله الآن؟ هل حقاً غيّر مستقبله ومستقبل إيلينا؟ هل يكفي أحياناً استبدال جملة بأخرى لكي يغيّر المرء مصيره رأساً على عقب؟

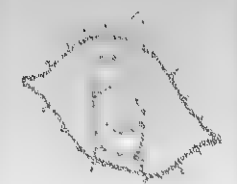
كلّ هذه الأسئلة كانت تزدحم في رأسه وهو يصل إلى سيارته. أشعل سيجارة بطريقة آليّة ووضع يديه في جيوبه لكي يتدفّأ. هنا، أحسّ بالورقة المقصوصة من الجريدة التي كانت تثوي في قاع معطفه، فراوده حينها ما يشبه إلهاماً. إذا كان قد غيّر المستقبل، فهذا يعني أنّ إيلينا لم تتعرّض للحادث، وبالتالي لم يكتب أيّ صحافي هذه المقالة، وبالتالي هذه المقالة ليست موجودة!

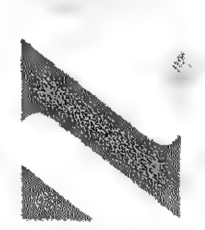
أخرَجَ، حائراً، الورقة المصفرّة من جيبه وطواها ولفّها لعدّة مرّات. وبطريقة لا تُصدّق، لم يعُد مضمون الصحيفة هو نفسه. وكأنّه بفعل سحرٍ، اختفت صورة إيلينا وفي مكان المقالة التي تُعلن

موت المدرّبة الشابّة، ظهر خبرٌ مختلف في الصفحة الأولى من الصحيفة.

أوشن وورلد: نفوق إحدى إناث الحوت

آنوشكا، عميدة إناث الحيتان في أوشن وورلد في أورلاندو نفقت هذه الليلة من جرّاء جرحٍ في فكّها بعد ارتطامها بالجدار المعدني للحوض. جرحٌ يبدو أنّها هي نفسها قد تسبّبت به.
ولدى سؤالها، أقرّت إدارة حوض الدلافين بأنّ أنثى الحوت ربّما تكون قد تصرّفت هكذا بدافع اليأس. في الواقع، كانت الحديقة قد انتزعت منها مؤخّراً ابنتها لكي تبيعها إلى حديقة مائية أخرى.
سوف تفتح حديقة أوشن وورلد أبوابها بشكلٍ طبيعيّ اليوم.
لم يُصب أيّ من موظفي الحديقة بجروحٍ.





15

اللقاء السادس

كان كلّ جهاتي، كان شمالي وجنوبي
وشرقي وغربي...
ويستن هيو أودن

سان فرانسيسكو، 1976
إليوت في سنّ الثلاثين

إنّه عيد الميلاد.

في صباح هذا اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر، ترك الطقس اللطيف في كاليفورنيا مكانه لجوّ مكفهرّ وبارد وهبّت رياحٌ شبيهة برياح نيويورك على سان فرانسيسكو وظنّ الناس أنّ الثلوج ستبدأ بالتساقط.

خيّم الصمت على البيت الغارق في الضوء الشاحب للفجر. وضعت إيلينا رأسها على كتف إليوت وغطّت في نوم عميقٍ وهادئ. على العكس منها، بدا الطبيب الشابّ منتفخ الوجه لأنّه لم يُغمَض له جفن طوال الليل.

أدار إليوت رأسه نحو إيلينا، قبّلها بحنان وهدوء حريصاً على ألّا يُوقظها وظلّ يتأمّلها لعدّة دقائق وهو يعلم أنّ هذه اللحظات هي

آخر اللحظات التي يمضيانها معاً. لآخر مرّة، شمّ رائحة شعرها ومرّر شفتيه على بشرتها المخملية وأصغى إلى موسيقى نبضات قلبها.

ثمّ اكتشف أنّ دموعاً صامتة تنهمر على شرشف السرير. ارتدى بلوزة وسروال جينز وخرج من الغرفة من دون إثارة ضجيج.

لم يستطِعْ أن يُصدّق أنّه سيتركها! هو يعلم بأنّه قد أبرم اتفاقاً مع شخصه الآخر، لكن الآن وقد أنقِذَتْ إيلينا، ما الذي يستطيع أن يمنعه من البقاء معها؟ أيّ طريقة انتقامٍ قد يتّبعها التافه الآخر لكي يُرغمه على الالتزام بجانبه من الاتفاق؟

كان الحُزن يسحقه وهو ينتقل من حجرة إلى أخرى، وهو يتمنّى يائساً أن يلتقي مع شخصه الآخر لكي يصرخ فيه تعبيراً عن غضبه واستيائه. لكنّ الآخر لم يظهر. كان إليوت البالغ ستين عاماً قد أوفى بجانبه من الاتفاق والآن كان عليه هو أن يفي بتعهّده.

وصل إليوت إلى المطبخ وانهار على كرسيٍّ. بالقرب من المدخل، كانت أمتعتهما محزّمة للقيام برحلةٍ إلى هاواي والتي لن يقوم لا هو ولا إيلينا بها. لأنّه كان يعلم تماماً بأنّه لا يملك خياراً آخر سوى الانفصال عنها. كان يشعر بما يشبه قوّة في داخله، ما يشبه صوتاً يدفعه إلى السير في هذا الاتجاه. لم يعُد سوى دمية تقوم قوّة مجهولة بسحب خيوط التحكّم بها خلف الكواليس.

عكست الطاولة الزجاجية صورة وجهه الضامر والمتشنّج. أحسّ بنفسه خاوياً ومهزوماً كما لو أنّه فقد كلّ ثقةٍ بنفسه وكلّ علامة على الطريقة التي يسير بها العالم.

منذ اليوم الأوّل الذي التقى فيه شخصه الآخر، أحسّ أنّه يعيشُ في عالمٍ لم يعُد يخضع لأيّ قانون. في مهبّ الخوف من المجهول،

لم يعُد يجد النوم إلى عينيه سبيلاً ولم يعد يتناول الطعام، مهتاجاً بكلّ أنواع الأسئلة المستحيلة. لماذا حدث له شيء كهذا؟ هل هذا اللقاء هو فرصة أم لعنة؟ هل لا يزال يحظى بكامل قواه العقلية؟ أحسّ بالاختناق لعدم وجود شخص يعرض عليه مشكلته.

هذا هو، إنّه يسمع ضجيجاً: صوت صرير الأرضية الخشبية وإيلينا التي تدخل إلى الحجرة مرتدية سروالاً داخلياً بسيطاً وأحد قمصانها الذي عقدته من الأسفل حول خصرها.

ابتسمت له ابتسامة جميلة وهي تدندن بإحدى أغاني فرقة آبا السويدية لموسيقى الروك. كان يعلم أنّ هذه آخر مرّة يراها سعيدة. كانت جميلة على نحوٍ لا يُصدّق ولم يكونا أكثر غراماً وهياماً ببعضهما كما هذه المرّة.

ومع ذلك، خلال بضع ثوانٍ سينهار كلّ شيء...

* * *

اقتربت إيلينا من إليوت ومرّرت ذراعيها حول رقبته ولكنّها أدركت سريعاً أنّ شيئاً ما لا يسير على ما يُرام:

– ماذا يحدث؟

– يجب أن نتكلّم. لم أعُد أستطيع التمثيل في هذه الكوميديا.

– أيّ كوميديا؟

– نحن الاثنان.

– عن... عن ماذا تتحدّث؟

– لقد التقيتُ امرأة أخرى.

نعم، لم يستغرق الأمر سوى ثانيتين. ثانيتان لاهتزاز حبٍّ عمره عشر سنوات. ثانيتان لفصل وجهَي عملة واحدة...

فركت إيلينا عينيها وجلست أمام إليوت وهي لا تزال تعتقد أنّ

الأمر يتعلّق بنكتة سخيفة، أو أنّها استيقظت على نحوٍ سيئ أو أنّها أساءت السمع...

- أنت تمزح؟

- هل يبدو عليّ ذلك؟

نظرت إليه، مصدومةً. كانت عيناه محمرّتين وقسمات وجهه متعَبة، والحقيقة كانت قد شعرت منذ عدّة أشهر أنّه متضايق ومتوتر وقلق.

سألته:

- مَن هي هذه المرأة؟

- لا تعرفينها: ممرّضة تُناوب معي في العيادة المجانية.

بدا لها الأمر غير واقعيّ إلى درجة أنّها اعتقدت هذه المرّة أنّ الأمر يتعلّق بحلم. هذه ليست المرّة الأولى التي ترى فيها كابوساً من هذا النوع. نعم إنّه كابوسٌ قذر سينتهي قريباً. ومع ذلك، تريد أن تعرف:

- منذ متى تقابلها؟

- منذ بضعة أشهر.

هنا، لم تعد تعرف بماذا تُجيب. أدركت فقط أنّ ما كانت قد بَنَته منذ عشر سنوات ينهار فجأةً.

في هذه الأثناء، واصل إليوت مشروعه التهديمي:

- منذ فترة لم تعُد الأمور تسير بيننا على ما يُرام.

- لم تقُل لي أيّ شيء...

- لم أكن أعرف كيف أتحدّث معكِ عن هذا الأمر... حاولتُ أن أجعلكِ تفهمين ذلك تدريجياً...

أرادت أن تسدّ أذنيها لكي لا تسمع. بسذاجة، ظلّت تأمل في أنّ هذا الحديث سوف لن يذهب أبعد من الاعتراف بخيانة.

لكنّ إليوت كان قد قرّر على نحوٍ مختلف:

- أريد أن ننفصل، يا إيلينا.

أرادت أن تردّ عليه ولكنّ الأمر كان مؤلماً للغاية. أحسّت، منهارةً، أنّ دموعاً تسيل على خدّيها.

واصل إليوت:

- لسنا متزوّجين وليس لنا أطفال...

أرادت أن يتوقّف عن الكلام لأنّ كلماته كانت مثل طعنات سكين تتوالى على قلبها ولأنّها لن تستطيع الصمود طويلاً على هذا الإيقاع. اعترفت له حينها باندفاع لامبالية بكبريائها:

- لكن، أنت كلّ شيء بالنسبة لي يا إليوت: حبيبي وصديقي وعائلتي...

اقتربَت لكي ترتمي بين ذراعيه، لكنّه تراجع إلى الوراء.

ألقت عليه نظرة مزّقته تماماً، بينما اعتقد أنّه لن يستطيع إضافة أيّ شيء، فتح فمه واستطاع أن ينطق. قال:

- أنتِ لا تفهمين: لم أعد أحبّكِ يا إيلينا.

* * *

إنّه صباح عيد الميلاد وكان الوقت لا يزال باكراً.

بعد تأخر غير معتاد في النوم، استيقظت سان فرانسيسكو بهدوء. في هذه المدينة دائمة الحركة، كانت الشوارع شبه خالية من الناس وظلّت غالبية المتاجر مغلقة الأبواب.

في الكثير من البيوت، كان يوم عيد: يستيقظ الأطفال ويستعجلون فتح هداياهم وتُسمَع الموسيقى وصيحات الفرح. في

أماكن أخرى يكون الوضع معاكساً تماماً، إذ يكون هذا اليوم صعب الانقضاء، يومٌ تكون العزلة فيه أكثر وطأة ممّا هو في العادة. قرب يونيون سكوير، يتكدّس المشرّدون على المقاعد العامّة. في مستشفى لينوكس، بعد ليلة مضطربة، ماتت فتاةٌ في العشرين من العمر بسبب حروقها. في مكان ما من المارينا، انفصل زوجان عن بعضهما للتوّ...

اقتربت سيارة أجرة من البيت الزجاجي وهي تُقل إيلينا إلى المطار.

بدوره، غادر إليوت الحي. سار محطّماً بفعل الحزن والخجل عبر المدينة وكاد أكثر من مرّة أن يتسبّب بحادث. في الحيّ الصيني، كانت المحلات مفتوحة. أوقف إليوت سيارته ودخل إلى أوّل مقهى وجده في طريقه وذهب مباشرةً إلى المرحاض.

بينما تقيّأ بشدّة فوق حوض المغسلة، أحسّ فجأةً بحضور شخصٍ خلفه. حضور بات الآن يعرفه ويخشاه...

استدار بحركة مفاجئة ليوجّه إلى شخصه الآخر لكمة قوية طرحته على الجدار المكسوّ بالقرميد.

- كلُّ هذا بسببك أنت!!

انهار الطبيب العجوز دائخاً بفعل الصدمة قرب الحائط. نهض بصعوبة وأظهر تأثره للحظة، في حين صعّد إليوت من موقفه:

- أنت السبب في رحيلها!

متأثراً بشدّة، انقضّ الأكبر سنّاً من بين الرجلين على الأصغر سنّاً وأمسك برقبته وضربه بركبته على أعضائه التناسلية.

ثمّ ظلّ الرجلان جنباً إلى جنب، يستعيد كلّ منهما أنفاسه في جوٍّ من الغيظ والضغينة.

إليوت هو أوّل من كسر الصمت وقال متنهّداً:

- كانت كلّ حياتي...

- أعرف ذلك جيّداً... ولذلك أنقذتَها.

وضع شخصه الآخر يده على كتفه، وفي محاولة لمواساته، قال له:

- لولاك، لماتت.

رفع إليوت رأسه ونظر إلى شخصه الآخر هذا الذي يقابله. إنّه لأمرٌ غريب: لا يزال لا يستطيع أن يعتبره سوى شخصٍ غريب. بالمقارنة مع هذا الرجل الذي يصعب عليه التعرّف على نفسه فيه، لم يعِشْ بعد سوى نصف حياته. كان الآخر يتقدّم عليه بثلاثين عاماً: ثلاثون عاماً من الخبرة، ثلاثون عاماً من اللقاءات والمعارف...

لكن ربّما أيضاً ثلاثون عاماً من الندم والأسف والأحزان؟

أحسّ أنّ صاحبه المسافر عبر الزمن يتهيّأ لتركه. تعرّف على الرجفان ونزيف الأنف اللذان يُعتبران من علامات رحيله.

التقط الطبيب العجوز منديلاً ورقياً ليوقف النزيف. هذه المرّة، لا بدّ أنّه أحبّ أن يمكث لوقتٍ أطول، لأنّه كان يعلم أنّ نسخته الأصغر عمراً تتهيّأ لاجتياز سنوات عصيبة. تأسّف لعدم عثوره على كلمات يواسيه بها، وهو يعلم تماماً أنّ الكلمات ليست سوى حُلفاء من الوزن الخفيف في مواجهة الآلام والمِحن.

وعلى نحوٍ خاص، تأسّف أنّ ينتهي الأمرُ بكلٍّ منهما إلى مواجهة وسوء فهم، مثل علاقة أبٍ وابنٍ لا تتجاوز مرحلة المعارضة المنهجية.

مع ذلك، رفض أن يُغادر من دون أن يُعطيه شيئاً آخر غير ضربة على خصيتيه. مقتنعاً أنّ هذه آخر مرّة يلتقيان فيها في هذا السنّ

ومتذكّراً الحزن الذي عاني منه هو بنفسه في تلك الفترة، حاول أن يوجّه له كلمة مواسية:

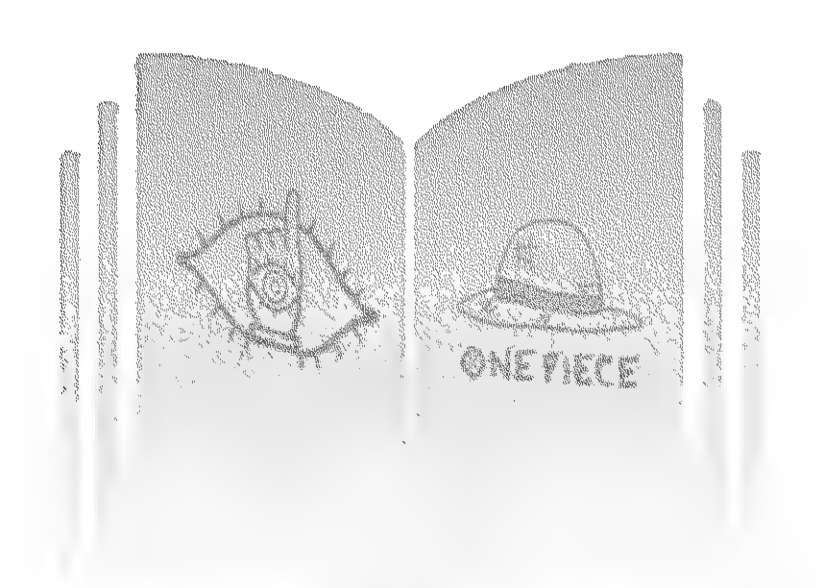
- على الأقلّ، سوف تعيش وأنت تعلم أنّ إيلينا على قيد الحياة في مكانٍ ما. أمّا أنا، فقد عشتُ مع موتها بتأنيب الضمير. وصدّقني، هذا فرقٌ كبير...

- اغرُبْ عن وجهي...

... والجواب الوحيد الذي تلقّاه.

قال في نفسه بينما تمتصّه تعرجّات الزمن: **ممّا لا شكّ فيه أنّه ليس من السهل أن يتواصل المرءُ مع ذاته!**

وكانت آخر صورة التقطها دماغه هي صورة شخصه الآخر، رافعاً إصبعه الأوسط باتجاهه.



16

لم يعُد لدى البشر متّسعٌ من الوقت لمعرفة أيّ شيء. إنّهم يشترون الحاجيات الجاهزة من الباعة. ولكن ليس هناك من باعة يبيعون الأصدقاء، لذا لم يعُد للبشر أصدقاء.

أنطوان دو سانت-أكزوبيري

سان فرانسيسكو، 1976

إليوت في سنّ الثلاثين

خرج إليوت من المرحاض وفي قلبه غصّة وألم.

ما الذي فعله ليستحقّ كلّ هذا؟

منذ أن ترك إيلينا، كان مسكوناً بالطريقة التي نظرت بها إليه حينما زعم أنّه لم يعُد يحبّها. كان يشعر بمعاناتها وألمها ورغم ذلك، واظب على إهانتها وإذلالها.

بالطبع، فعل ذلك من أجلها هي، لإنقاذ حياتها، إلّا أنّها سوف لن تعرف شيئاً عن ذلك أبداً! وسوف تقضي بقية حياتها وهي تكرهه...

يُضاف إلى ذلك ما شعر به هو نفسه في تلك اللحظة: لقد كره نفسه إلى درجة أنّه لم يعُد يرغب في أن يكون هو نفسه.

جلس متمنّياً الموت. أشعل سيجارةً وطلب كأساً ثانية ثمّ ثالثة.

نعم، سوف يتصرّف كما تصرّف والده من قبل: سوف يثمَل إلى أن لا يعود بوسعه النهوض من مكانه!

في الحالة العادية، لم يكن إليوت يشرب سوى كأسٍ من هنا أو هناك وغالباً كان يفعل ذلك لإسعاد مات الخبير البارع في النبيذ. وكابن رجلٍ مدمنٍ على الكحول، كان إليوت قد شاهد عن قرب أضرار الكحول التي ظلّت باستمرار مرتبطة في ذهنه بحالات الضرب التي تعرّض لها من والده حينما كان يفقد السيطرة على نفسه.

لكنّ اليوم، كانت هذه الحالة هي ما يسعى إليها بالضبط: فقدان السيطرة على نفسه، والتحوّل إلى شخصٍ آخر. بينما كان يطلب كأساً أخرى من الكحول، أبدى النادل الصيني تردّداً لبعض الوقت قبل أن يقدّمها له، مدركاً تماماً أنّ هذا الزبون ليس في حالته الطبيعية.

صاح إليوت وهو ينتزع القارورة من يده ويترك ورقة نقدية من فئة 10 دولار على الطاولة:

- أعطني هذه!

خرج إلى الشارع وهو يشدّ قارورة الكحول إلى صدره. وصل إلى سيارته وجلس خلف مقودها وأخذ جرعة أخرى من الكحول.

صرخ قبل أن يُقلِع بالسيارة:

- انظر يا أبي! أنا مثلك!

ولم تكن هذه سوى البداية...

* * *

لم يكن العثور على المخدّرات في سان فرانسيسكو أمراً صعباً. وكان إليوت، لكثرة ما استقبل المدمنين في المستشفى أو في العيادة المجّانية، قد خبر عاداتهم والأماكن التي يرتادونها.

قصد إذاً حي تندرلوين، وهو حيّ ليس جديراً بالثناء فعلاً لكنّه سوف يحصل فيه من دون عناء على ما يبحث عنه. خلال عشر دقائق، كان يجوب شوارع ذاك الحيّ الوضيع، الوكر الحقيقي للانحراف، قبل أن يلتقي بأحد مروّجي المخدّرات الذي يعرفه. رجلٌ أسود البشرة له ملامح جامايكية يُسمّي نفسه يامدا.

كان إليوت قد قدّم سابقاً شكويين ضدّه لأنّه كان يحاول غالباً أن يبيع بضاعته في حرم العيادة المجانية لمرضى قيد العلاج من الإدمان. كان الرجلان قد تشاجرا لمرّاتٍ عديدة بطريقة عنيفة وفي آخر مشاجرة لهما تعاركا بالأيدي.

لا شكّ أنّه كان بمقدور إليوت أن يجد بائعاً آخر -كان هناك الكثير من الباعة في تلك الزاوية من الحيّ- لكن حينما يقرّر المرء أن ينحدر إلى الدرك الأسفل، يغدو إذلال الذات أيضاً جزءاً من اللعبة.

لمّا لمحه المروّج شعر في البداية بالقلق قبل أن يُدرك أنّ إليوت كان هنا بصفته زبوناً.

قال ساخراً:

- إذاً يا دكتور، هل نبحث عن الإثارة والنشوة؟

- ماذا لديك لتعرضه عليّ؟

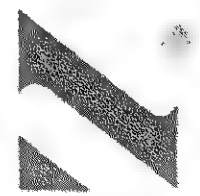
- كم معك؟

نبش إليوت في محفظته: كان معه سبعون دولاراً، وهو مبلغٌ كافٍ لشراء كمّية كبيرة من أيّ قذارة كانت.

اقترح عليه يامدا بنبرة شامتة:

- اختَرْ السمّ الذي تريده: حشيش، ميتيدرين، LSD، هيروين...

* * *



في فترات الهدوء والسكينة، يعتقد المرء أنّه قد انتصر على شياطينه ويتصوّر أنّه على المدى الطويل، انتهى إلى قتلها والتخلّص منها وأنّه قد أبعدها نهائياً وإلى الأبد، مرّة واحدة وإلى أبد الآبدين. لكن نادراً ما تكون هذه هي الحال.

غالباً ما تكون شياطيننا حاضرة، تتربّص في مكانٍ ما في الظلّ، وتنتظر من دون كللٍ اللحظة التي يتخلّى فيها المرء عن حذره، واللحظة التي يغيب فيها الحبّ...

حينما وصل إلى المارينا، صعد إليوت السلّم كلّ أربع درجات دفعة واحدة متّجهاً نحو الحمّام. ركض اللابرادور الصغير لملاقاة صاحبه فرحاً بقدومه، ولكن...

صاح الطبيب وهو يوجّه ركلة إلى اللابرادور الصغير دون أن يُصيبه بدقّة بسبب تأثير الكحول الذي أفقده توازنه.

- اغرب عن وجهي!

أطلق راستاكوير صرخة حادّة وعلى الرغم من هذا الاستقبال العدائي، حاول مرّة أخرى الاقتراب من إليوت وهو يلحق به. كلّفته هذه المحاولة كثيراً، لأنّ هذا الأخير أمسك بجلد رقبته ورماه خارجاً بعنف.

لمّا بقي لوحده، حبس إليوت نفسه في الحمّام وفتح علبة الصيدلية ليجد فيها محقناً وإبرة. أخرج من جيبه، مرتجفاً، كُريّات الهيروين التي اشتراها من يامدا.

حقن المخدّر في وريده سريعاً كيفما كان لكي يُفجّر رأسه. لم يكن يسعى إلى إراحة ذهنه مثل هؤلاء الهيبيين الحمقى. ما أراده هو تعاطٍ حقيقيّ للمخدّرات، تعطيلٌ حقيقيّ للدماغ، أيّ شيءٍ لينسى،

أيّ شيءٍ ليرحل إلى مكانٍ آخر. مكانٌ لا يكون فيه مسكوناً لا بشخصه الآخر ولا بذكرى إيلينا.

مكانٌ لا يعود فيه هو نفسه.

وضع كُريّة الهيروين في طبق فنجانٍ زجاجي وأضاف إليها قليلاً من الماء. ثمّ بمساعدة ولّاعته، سخّن أسفل الطبق قبل أن يُصفّي السائل باستخدام قطعة من القطن.

غرز الإبرة في القطعة القطنية وسحب منها المحلول الذي حقنه في أحد أوردة ساعده.

لمّا اجتاحت موجة حارقة جسده، أطلق صرخة خلاص وأحسّ بأنّه ينطلق في رحلة مظلمة نحو أعماق ذاته، مستعدّاً لمواجهة الجوانب الأكثر عتمةً في داخله والتي لا تُطاق.

* * *

سان فرانسيسكو، 1976

بعد بضع ساعات...

مات في سنّ الثلاثين

في يوم الميلاد ذاك، كان مات في حالة يُرثى لها. فقد عمل خلال الأسابيع المنصرمة بكلّ طاقته ولساعاتٍ إضافية من أجل تحديث وتطوير منشأته الاستشارية في مجال النبيذ وكانت الأمور قد أصبحت على السكّة الصحيحة.

ومع ذلك، حينما استيقظ هذا الصباح، بدت له حياته مملّة من دون شخصٍ يشاركه فيها. رفع سمّاعة هاتفه متخلّياً عن كبريائه ليفعل ما كان يفعله دائماً: الاتصال مع تيفاني والاعتذار منها عن سلوكه. لسوء الحظ، لم يعُد الرقم الذي حصل عليه منها في الخدمة. كانت

المرأة الشابة على ما يبدو قد غادرت المدينة من دون أن تُخبره ومن دون أن تحاول اللقاء به.

هذا ما يحصل حينما نؤجّل عمل اليوم إلى الغد...

استقلّ سيارته بعد الظهيرة ليقوم بجولةٍ في المارينا. كان من المفترض أنّ إليوت قد سافر جوّاً إلى هاواي، لكنّه أراد أن يذهب ليقوم بإطعام الكلب راستاكوير ويتنزّه معه على الشاطئ.

عند وصوله إلى الجادة المحاذية للبحر، لاحظ فجأةً سيارة إليوت السلحفاة وهي مركونة بجانب الرصيف.

أمرٌ غريب...

نزل من السيارة وصعد درجات العتبة، فدقّ الباب وانتظر أمامه، ولكنّه لم يتلقّ جواباً.

كان قد جلب معه جرزة المفاتيح التي تركها إليوت له حينما سافر. أدخل المفتاح في القفل ولكن تبيّن له أنّ الباب لم يكن مقفلاً.

هتف ليُعلن عن حضوره:

- مرحباً! هل من أحدٍ هنا؟

حينما دخل إلى الغرفة واكتشف الهيئة الخائفة للكلب، أدرك مات على الفور أنّ هناك مشكلة ما.

- هل أنت لوحدك، يا راستاكوير؟

بينما كان الكلب ينبح باتجاه الطابق العلوي، انتصب إليوت في أعلى السلّم أشعث الشعر منتشياً.

سأل مات وهو يفتح عينيه واسعتين:

- ماذا تفعل هنا؟ ألم تسافر إلى هاواي؟

- الأحرى أن أسألك أنا ماذا تفعل في بيتي؟

قال مات دون أن يتراجع في هجومه:

- مهلاً، أحوالك مزرية. ما الذي حدث؟

قال إليوت وهو ينزل بضع درجات:

- لا تستطيع أن تفهم.

- لماذا؟ هل أنا غبيٌّ لهذه الدرجة؟

- ربّما.

هذه المرّة، تأثّر مات كثيراً بالموقف. هذا الجانب العدائي لا يبدو على الإطلاق عائداً لإليوت الذي، على ما يبدو، لم يكُن في حالته الطبيعية.

- أين إيلينا؟

- لم يعد هناك إيلينا! انتهى الأمر!

- هيّا، ماذا تقول؟

- لقد تركتها.

ظلّ مات مذهولاً. كان هذا آخر شيءٍ يتوقّعه.

خرّ إليوت ساقطاً على الأريكة. لم تكن آثار المادّة المخدّرة قد تلاشت بعد. كان رأسه يدور ويشعر بالغثيان. وكان صداعٌ شديد يعذّبه بلا توقّف، كما لو أنّ مثاقب غير مرئية تخترق دماغه.

- مهلاً، يا إليوت، أنت لا تستطيع ترك إيلينا.

- بلى، أستطيع. يجب أن تصدّق.

- هذه المرأة هي كلّ حياتك... إنّها ملاذك، إنّها أفضل ما حصل لك في كلّ حياتك.

- كفّ عن الحديث بجُمَلِك الطنّانة!

- هذه الجُمل، أنت كنتَ تردّدها. وكنتَ تقول أيضاً أنّك بفضلها قد وجدت لنفسك مكاناً.

وكان ذلك صحيحاً.

- إذا تركتها ترحل، ستمضي بقية حياتك وأنت نادمٌ على ذلك وتلوم نفسك.

- دعني لوحدي قليلاً، من فضلك!

- هل تشاجرتما؟

- هذا ليس شأنك.

- هذا شأني لأنني صديقك ولأنني لن أدعك تُفسِد حياتك!

- اسمَعْ، عُد إلى مضاجعة عشيقاتك ودعني بسلام!

أغمض إليوت عينيه وقد آلمه ما تفوّه به ولم يستطعْ أن يوغِل أكثر في إهانة صديقه. كان عليه أن يروي له ما حصل معه ويكشف له المحنة التي يعيشها، إلّا أنّه لم يكن له الحق في ذلك. كان هذا جزءاً من الثمن الذي يجب دفعه: عدم البوح لأيّ شخصٍ بما حدث.

على الرغم من أنّ إهانات إليوت جرَحَته بعمق، حاول الشابّ الفرنسي مرّة أخرى أن يُظهر سعيه للتوفيق بينهما، فقال:

- لا أفهم ما حدث لك يا إليوت، لكنني أعرف أنّه لا بدّ أن تكون حزيناً جداً حتى تتفوّه بهكذا كلمات، وأعتقد أنّك سوف لن تتغلّب بمفردك على مشاكلك.

أحسّ إليوت أنّ قلبه يتمزّق، فحبّه لإيلينا وصداقة مات أهمّ ما في حياته. منذ عشر سنوات، كانا يتكاملان ويتساندان ويتفاهمان...

لكنّ اليوم، كان إليوت يجد نفسه في وضعٍ لا يمكنه الخروج منه إلّا بمفرده. لم يعد قادراً على الاستمرار طويلاً في تمثيل هذه الكوميديا مع صديقه، فاتّخذ قراراً موجعاً: أن يُبعده عن نفسه كما أبعد إيلينا.

- هل تُريد أن تُسعدني يا مات؟

- نعم.

- اخرج من حياتي...

أبدى الشابّ الفرنسي تردّداً كما لو أنّه لم يكن متأكّداً من أنّه قد سمع جيّداً. ثمّ تجمّد دمه وقال بصوتٍ يائس:

- كما تُريد.

خَفَضَ رأسه وتوجّه نحو الباب. حينما وصل إلى العتبة، التفت نحو إليوت، في آخر أملٍ بألّا يكون كلّ شيء قد ضاع. لكن كلّ ما وجده إليوت ليقوله له كان:

- أترُكُ لك أسهمي في المنشأة، لكن لا تكلّف نفسك عناء العودة لرؤيتي. أبداً.



17

«لا نتعلّم شيئاً بمجرّد قراءة الكتب.
لا نتعلّم إلّا بتلقي الضربات».

سوامي براجنانباد

سان فرانسيسكو، 2006

إليوت في سنّ الستين

لمّا فتح إليوت عينيه، أحسّ بأنّه محموم ويرتجف كما لو أنّه أُصيب بنزلة برد. لكنّ ذلك لم يكن نزلة برد وإنّما ذاك السرطان القذر إلى جانب الآثار الجانبية للسفر عبر الزمن. وقف على قدميه بصعوبة وجرجر نفسه حتى الحمّام ليتقيّأ في حوض المغسلة. سوف ينتهي به الأمر بالموت ولكن ليس الآن. وكما اعتاد على ذلك، تحقّق مرّة أخرى من عدد الأقراص في العلبة: لا يزال هناك أربعة أقراص. كان قد أقسم فيما مضى عدّة مرّات أنّه لن يعود يأخذ منها، لكن الأمر بات الآن مؤكّداً: لن يضع قدمه مرّة أخرى في الماضي!

وقف تحت الرشّاش واستعاد تدريجياً أنفاسه. كان قد ترك قبل دقائق قليلة شخصه الآخر بعد مشاجرةٍ عنيفة في مغاسل مطعمٍ صيني. بدا أنّ الفتى لم يكن في حالة جيّدة ولامَ نفسه قليلاً على عدم إيجاده الكلمات المناسبة لمواساته والتخفيف عنه.

ارتدى ثيابه سريعاً أمام مرآة غرفته.

قال في نفسه وهو ينظر في المرآة: **أتمنى أنّك سوف لن ترتكب حماقاتٍ.** لكنّه في الحقيقة كان يوجّه الكلام إلى نسخته الأصغر سناً.

ألقى نظرةً من خلال النافذة فرأى في صبيحة الميلاد هذه مجموعة من ممارسي رياضة المشي وهم يركضون على طول الشاطئ، في حين كانت فتاةٌ تلعب بالقرص الطائر مع كلبها على مروج حديقة مارينا غرين العامّة.

استقلّ سيارته ورغم برودة الصباح سار، وقد أنزل زجاج نوافذ السيارة، ثملاً بالهواء وبالإحساس البسيط بكونه على قيد الحياة. منذ أن علم أنّ نهايته باتت وشيكة، كان يعاني من مزيجٍ غريبٍ من النشوة والإرهاق. كان في مواجهة الموت، ولكن أيضاً في مواجهة الحقيقة. استطاع للمرّة الأولى أنّ يعيش كامل الزمن الحاضر وأن يعيش كلّ ثانية كما لو أنّها الأخيرة في حياته. عَبَرَ الساحل الشمالي بهمّة وحالة جيّدة وتوجّه نحو برج ليليان كويْت حيث كان على موعدٍ مع مات ليقوما برحلة صغيرة بقاربٍ: رحلة هادئة رجالية في أرجاء الخليج قرّر أن يكشف خلالها ما احتفظ به لوقتٍ طويل لنفسه: طبيعة مرضه واقتراب لحظة وفاته.

يا لها من هديّة عيد الميلاد...

في الحقيقة، لم يكن يعرف كيف سيتصرّف مات. لم تنقطع صداقتهما التي امتدت لسنواتٍ عديدة أبداً. كانت هذه الصداقة كيمياء غريبة مكوّنة من الالتزام والرفقة والحشمة والتي تعود في جذورها إلى أربعين عاماً خلت في أثناء حدثٍ خاصّ سوف يبقى كإحدى اللحظات الحاسمة في حياته.

بينما كان يسير نحو شمال المدينة، تذكّر إليوت ذلك اليوم من عام 1965 الذي التقى فيه مات و. . . إيلينا في الوقت ذاته.

* * *

مدينة نيويورك، 1965

إليوت في سنّ التاسعة عشرة

كان ذلك في أواسط فصل الشتاء، في بداية السهرة، في مدينة الأنوار. هبّت عاصفة مطرية مفاجئة وغير متوقّعة على مانهاتن. . .

نزل شابٌّ مبلّل الثياب السلّم المؤدّي إلى محطّة المترو. اسمه إليوت كوبر. إنّه في التاسعة عشرة من عمره ولا يدري تماماً ما يفعله في حياته. قبل شهرين، أوقف دراسته ليباشر برحلة عبر الولايات المتّحدة. وتلك طريقة لرؤية البلاد وتوفير معلومات حول مستقبله والابتعاد عن والده الذي يعيش في كاليفورنيا.

في اللحظة نفسها، كانت إيلينا كروز، فتاةٌ برازيلية في الثامنة عشرة من عمرها، تعود من حديقة الحيوانات في برونكس حيث وجدت فيها فرصة لتدريبٍ صيفي يتيح لها تحقيق حلم حياتها: الاهتمام بالحيوانات. اجتازت الشارع مسرعة وهي تتحاشى بُرك المياه والسيارات قبل أن تندسّ في المترو. كانت ذات روحٍ مرحة ولا تبارح الابتسامة شفتيها.

توقّف إليوت للحظة أمام عازف غيتارٍ أسمر البشرة يتسوّل في المترو وهو يردّد بموهبة ذخيرة أوتيس ريدينغ الموسيقية ويطالب، في عصر الحقوق المدنية هذا، بمزيدٍ من الاحترام لطائفته. كان إليوت مجنوناً بالموسيقى. كانت وسيلته ليلوذ بعالمه الخاصّ، بعيداً عن الآخرين. لماذا لا يثق بأحد؟ لماذا ليس لديه أصدقاء حقيقيون؟ لماذا يشعر بأنّه عديم الفائدة؟ لا يعرف ذلك بعد، ولكن، وفي أقلّ من خمس دقائق، سيعلم أنّ الأحداث هي التي غالباً ما تصنع الرجال.

عبرت إيلينا متموّجةً مثل لهبٍ الممرّ الطويل المؤدّي إلى رصيف المحطّة. كان المطر قد بلّل شعرها وقميصها ذي الحمّالات الرفيعة. أحياناً، خلال جزءٍ من الثانية، كان بعض الركّاب المستعجلين يتوهون رغماً عنهم في عينيها الخضراوين الفاتحين. كانت لديها موهبة في ذلك: تجذب الناس وتُلهمهم الثقة.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة وإحدى عشرة دقيقة مساءً حينما دخل القطار إلى المحطّة. كان يوم عملٍ عادي، في موعد خروج الموظّفين من مكاتبهم ويعجّ المكان بالناس. انسلّ إليوت على طول الرصيف لكي يصعد إلى إحدى عربات المقدّمة، حينما لمسته فجأةً تلك الفتاة لمسة خفيفة. لم يكن ذلك أمراً عظيماً. إنّها مجرّد لمسة ونظرة وحضور.

وتشوّش العالم من حوله. . لماذا هذا الدّوار، لماذا هذا الشعور بالفراغ في معدته؟ لماذا هذا الإحساس بأنّه لم يسبق لأحدٍ أبداً أن نظر إليه بهذه الطريقة؟

في البداية، شعرت إيلينا بالسعادة لإثارتها كلّ هذا الاهتمام من قبل فتى على الكثير من الوسامة. ثمّ ارتبكت من دون أن تعرف سبب ذلك. تعرّقت رغم أنّها كانت مبلّلة. رفعت حمّالة قميصها التي تدلّت على طول ذراعها ثمّ أدارت نظرتها لكي تفلت من تأثير هذا الصبي. لماذا هذا الإحساس بأنّ شيئاً خطيراً يلوح في الأفق؟

تقدّم اليوت على الرصيف لكي يصعد إلى العربة الثانية. لكنّ إيلينا اختارت العربة الثالثة. تردّد الشابّ ثمّ، كما لو أنّ مغناطيساً قد جذبه، شقّ صفوف الحشود وغيّر العربة قبل أن تُغلَق الأبواب.

اختار العربة الثالثة بدل الثانية. . .

هذا ما يرتبط به مصير أحياناً: يرتبط بنظرة مطوّلة، برقّة رمش، بلمسة حنّانة.

أقلع القطار. جلست في أحد المقاعد التي نادراً ما تكون شاغرة ولمحته في الطرف الآخر من العربة. تمنّت وخشيت أن يأتي ليتكلّم معها. أحسّت أنّ قلبها يدقّ في صدرها بقوّة إلى حدّ الألم تقريباً.

لم يبارحها بنظره وحاول أن يقترب من مؤخّرة المقصورة. تساءل كيف يمكنه الاقتراب منها والوقوف بجانبها وسعى إلى ما يبهجه منها، ولكنّه لم يتلقّ أيّ شيء. كلّا، سوف لن ينجح في ذلك. لم يكن ماهراً أبداً في هذه اللعبة. ثمّ إنّ فتاةً كهذه لا يمكن أن تهتمّ به. **اغرب يا إليوت، إنّها أعلى من مستواك. كفّ عن خداع نفسك.**

توقّف القطار في المحطّة الأولى. **غادِرْ هذه العربة، أيّها الغبي! أنت غير قادرٍ على اللعب في ميدان الكبار.** تردّد في ذلك. أقلع القطار من جديد وتجاوز محطّة ثانية وثمّ ثالثة. هذه المرّة، إيلينا هي مَن قامت. **لقد فات الأوان، ستنزل في المحطّة القادمة. هيّا، حاوِلْ أن تفعل شيئاً، يا عزيزي! إمّا الآن أو أبداً.**

اصطدم بشخصٍ أو شخصين لكي يقترب. لم يعُد يحسّ بساقيه. أصبح رأسه فارغاً. نجح الأمر، إنّها هنا، على بعد سنتيمترات منه. رأى المنحنى الكامل لشفتيها.

حينذاك، انحنى قليلاً نحوها وقال لها:

- ...

حدث ما يُشبه انفجار في المقطورة المجاورة، على بعد بضعة أمتارٍ منهما. انفجارٌ ضخم، ضجيجٌ عالٍ بقوّة شديدة، تبعه هبوبٌ قويّ هزّ القطار على سكّته وطرح الجميع أرضاً.

بطريقة غريبة، مرّت لحظة قبل أن يدرك الناس ما حدث.

سادت برهة قصيرة من الذهول، قبل أن تضجّ قمرة القيادة بالصراخ.

قبل لحظات، كانت هناك جمهرة من الناس، وكان هناك يوم العمل الذي انتهى، ومن ثمّ كان هناك الاسترخاء العذب للحياة اليومية. . .

ثمّ اندفع القطار وسط نفقٍ وانطفأت الأنوار وانهار الجميع.

قبل ثانية واحدة، كان صبيٌّ يتهيّأ للاقتراب من فتاة، ثمّ فجأةً حلّ الضوضاء والذعر والرعب.

نهض إليوت وإيلينا بمشقّة. امتلأت العربة بغبارٍ كثيف يحرق العيون ويُضيّق التنفّس. نظر الشابّان من حولهما: كان المسافرون تحت تأثير الصدمة، وأجسادهم ملطّخة بالدماء وثيابهم ممزّقة ووجوههم مشوّهة بالوجوم والقلق. كان القسم الأكبر من سقف العربة قد انهار إلى داخلها محاصِراً الركاب تحت الحطام.

اجتاحت صرخات الرعب والفزع العربة. صاحت امرأة بصوتٍ مذعورٍ: «ساعِدْنا، يا ربّ!» في حين تدافع الناس لإيجاد مَخرجٍ من العربة. حاولت إيلينا قدر المستطاع أن تحافظ على هدوئها وعملت على طمأنة فتاةٍ صغيرة كانت تبكي بجانبها.

كان شعر إليوت قد امتلأ بشظايا الزجاج وقميصٌ ملطّخ بالدماء. بالتأكيد، كان هو الآخر قد أُصيب بجرحٍ، لكنّه لم يحاول أن يعرف في أيّ مكانٍ من جسمه. هبّ بمساعدة الركاب الأخفّ إصابةً لنجدة المصابين المحاصرين تحت حطام الصفيح وشظاياه. نجح في إنقاذ بعضهم، لكن أجسادَ آخرين كانت قد تمزّقت من جرّاء شدّة الانفجار العنيف.

- علينا أن نخرج من هنا!

كان لهذه العبارة تأثير إنذارٍ نهائي. والحقيقة لم يعُد يفكّر الجميع سوى في أمرٍ واحدٍ: مغادرة هذا الجحيم الخانق. لكنّ الأبواب الأوتوماتيكية كانت قد تحطّمت وظلّت مقفلة. وفي النهاية، لم يبقَ أمام الناجين سوى القفز من النوافذ.

نظر إليوت من حوله فلم يرَ شيئاً يُذكَر. كانت ألسنة اللهب التي تلتهم القطار تُعطي الإحساس بأنّه في فرن. كان كلّ جسمه ينضح عرقاً. لم يشعُر في حياته بهذا القدر من الخوف. ازداد الدخان كثافةً وجعل الهواء غير قابلٍ للاستنشاق. انبعثت رائحة مثيرة للغثيان من الأرض، رائحةٌ سوف يتعلّم، خلال السنوات التالية، التعرّف عليها والخوف منها: رائحة الموت.

استعدّ للمغادرة. لكن هل كان له الحقّ في ذلك؟ كان يعلم أنّه لا يزال هناك جرحى في هذا القطار. ولكي يتنفّس على نحوٍ أفضل، جثا على ركبتيه وتقدّم نحو مؤخرة العربة. هناك، رأى أشلاء بشرية -ذراعٌ وساقٌ وقدمٌ في حذاء... - وبدأ بالبكاء. ما الذي بوسعه فعله؟

لا شيء.

- تعال!

إيلينا هي من نادته. كانت قد قفزت عبر النافذة واطمأنّت بأنّه سيلحق بها.

التفت إليوت. كاد أن يخضع لأمرها، لكنّه عاد على أعقابه. بالقرب منه تماماً، كان صبيٌّ في عمره نفسه ممدّداً، هامداً تحت أنقاض السقف. انحنى إليوت عليه ليرى إن كان لا يزال يتنفّس. اعتقد أنّه أحسّ بنبضات قلبه. في الحقيقة لم يكن متأكّداً من ذلك،

لكنّه قرّر أن يُصدّق ذلك. حاول بتفانٍ أن يسحبه من هذا القبر الحديدي، لكنّه لم ينجح في ذلك. كان الرجل الشاب قد حوصِر تحت لوحٍ معدني يضغط على قفصه الصدري.

كرّرت إيلينا:

- تعال!

إنّها محقّة: هناك الكثير من الدخان، والحرارة مرتفعة جدّاً...

مع ذلك، تردّد إليوت ثمّ، وبقوّة اليأس، قام بمحاولة جديدة.

صاح بالجريح:

- لا تمُت!

طيلة حياته، سوف يتساءل كيف استطاع أن يثني اللوح المعدني لكي يحرّر الصبي ويسحبه نحوه. لكن نجح الأمر، لقد فعل ذلك!

قام برفعه وأسنده على كتفه وغادر العربة المظلمة.

بعد إيلينا، قفز المسافة الفاصلة بين القطار والسكّة ثمّ سار في النفق بخطٍّ مستقيم. كان يسير أمامهم رجل مبتور الذراع مترنّحاً وكاد لعدّة مرّات أن يسقط أرضاً. أحسّ إليوت بسائلٍ ساخنٍ يسيل على وجهه. كان الجريح الذي يحمله على كتفه هو مَنْ ينزف. لم يعرف إليوت ما الذي يفعله لكي يوقف النزيف. توقّف لبضع ثوانٍ وانتزع قميصه وجعّده على شكل كرة وبكلّ ما أوتي من قوّة ضغط على الجرح لكي يوقف تدفّق الدم.

اختلط كلّ شيء في ذهنه. خارت قواه كما لو أنّ الرجل الذي يحمله يزن طنّاً، ولكن عليه أن ينسى ألمه الخاصّ. ولكي ينجح في ذلك، قرّر أن يركّز تفكيره على أمرٍ مريح.

فنظر إلى هذه الفتاة التي تمشي أمامه. عملياً، لم يتبادلا ولا كلمة لكنّهما ارتبطا بفعل شيءٍ ما. ترك نفسه ينقاد خلفها، مقتنعاً بأنّ

لا شيء سيحدث له. تُرى لولاها، لما استقلّ تلك العربة اللعينة، العربة التي وقع الانفجار فيها؟

بعد مضي برهةٍ، لمحوا ضوءاً في نهاية النفق: إنّها المحطّة. لم يعُد أمامهم سوى بضعة أمتار، لكنّها كانت الأصعب. لم يعُد إليوت يسمع أيّ شيء. كان على وشك الانهيار...

وفي تلك اللحظة اقترب منه أحد رجال فرق الإنقاذ وخلّصه من الجريح ليضعه على نقّالة.

بعد تحرّره من الحِمْل، التفت نحو إيلينا.

وأُغمي عليه.

في اللحظة نفسها، في الجوف الخانق للنفق، استمرّ القطار المحطّم في الاحتراق ليتحوّل بعد وقتٍ قصير إلى حُطامٍ يتصاعد منه الدخان.

في إحدى العربات، وعلى مقعدٍ شوّهته الحرارة، كان يوجد كتابٌ بدأت ألسنة اللهب بالتهامه، ولكن كان لا يزال من الممكن قراءة هذه الجمل الغريبة فيه:

أنت ملجأ نفسك

لا ملجأ لك سواك

لا يمكنك إنقاذ أحدٍ سواك

لا يمكنك أن تنقذ سوى نفسك[1]

---

(1) سيدهارتا غوتاما، الملقّب ببوذا.

حينما فتح إليوت عينيه، بعد انقضاء بضع ساعات، كان مستلقياً على سرير في المستشفى. كانت الشمس قد أشرقت. وجد أنّ ضمادة كبيرة قد لُفَّت على كتفه وأحسّ بألمٍ شديدٍ حول فقرات رقبته. كانت فتاة المترو جالسة إلى جانبه وتعتني به بصمت.

سألت وهي تنحني عليه:

- هل أنت بخير؟

هزّ برأسه وحاول أن يجلس في السرير، لكن أنبوب الحقن المغروز في ذراعه قيّد حركته.

- لا تتحرّك، سوف أعدّل وضعية السرير.

ضغطت إيلينا على زرٍّ وبدأ الجزء العلوي من السرير يرتفع ببطء.

كانت شاشة مثبّتة على علوّ في ركنٍ من الغرفة تبثّ بالأبيض والأسود صوراً لمدينة مانهاتن في حالة فوضى قبل أن يطلّ مذيعٌ ويُعلن لإليوت:

«شهدت نيويورك أسوأ عُطل كهربائيٍّ في تاريخها. في تمام الساعة الخامسة و16 دقيقة من بعد ظهيرة هذا اليوم، التاسع من نوفمبر 1965، انطفأت جميع الأنوار في أونتاريو وعلى طول الساحل الشرقي للولايات المتّحدة ولم تعد الإنارة إلّا بعد ما يقارب عشر ساعات. سرعان ما تمّ استبعاد فرضية عمل تخريبي وعُزي العطل إلى خللٍ في عملية النقل في إحدى المحطات الهيدوكهربائية في شلالات نياغارا...»

تَبِعَ ذلك صور ومن ثمّ تعليقٌ حول حادث المترو الذي عزاه الصحافي إلى انقطاع التيار الكهربائي. لا حديث عن قنبلة أو

هجوم، حتى وإن كانت البلاد تمرّ الآن في مرحلة مضطربة: كان كينيدي قد اغتيل قبل عامين، وكانت أعمال الشغب العرقية في لوس أنجلوس قد أوقعت في الصيف السابق العشرات من القتلى. كان الأميركيون قد بدأوا بإرسال قواتهم بأعداد كبيرة إلى فيتنام الأمر الذي أدّى إلى ظهور حركة معارِضَة في الجامعات حيث تطوّرت إلى حركة احتجاجية طلابية اتّخذت أحياناً أشكالاً عنيفة جدّاً.

أدارت إيلينا زرّاً لكي تُطفئ شاشة التلفاز.

سأل إليوت بعد لحظة:

- هل مات؟

- منْ تَقصِد؟

- الصبيّ الذي حاولتُ أن أنقذه، هل مات؟

أجابت شارحةً وهي على وشك البكاء:

- أظنّ أنّ الأطبّاء يجرون له الآن عملية جراحية. لقد كان في حالةٍ حرجة...

هزّ إليوت رأسه. لبرهة من الوقت لم يتكلّم أحدٌ منهما. كان كلّ منهما لا يزال مذهولاً بما جرى، فاستغرق في عالمه الداخلي المكوّن من الفوضى والغموض.

ثمّ قطعت الفتاة الصمت:

- هل أردتَ أن تقول لي شيئاً؟

قطّب إليوت حاجبيه.

قالت إيلينا مُوضِحَة:

- قبل الانفجار بقليل، انحنيت نحوي لكي تقول لي شيئاً...

تلعثم إليوت:

- حسناً..

ملأت الخيوط الأولى لأشعّة الشمس الغرفة بضوءٍ مريح وخلال بضع ثوانٍ وهمية، بدا وكأنّ الحادث لم يقع أبداً. كان هناك فقط صبيٌّ مليءٌ بالارتباك أمام فتاةٍ يراها جميلة...

-... أردتُ فقط أن أعرض عليكِ أن تذهبي لشرب فنجانٍ من القهوة معي.

قالت وقد بدا عليها شيءٌ من الخجل:

- آه حقّاً؟

جاء الصوت الجهوري للطبيب الذي دخل إلى الغرفة ليخرجهما من مأزقهما. قال الطبيب وهو يقترب من السرير:

- أنا الدكتور دويل.

بينما كان ذو البِذلة الطبية البيضاء يفحصه بدقّة، لاحظ إليوت بحسرة أنّ المرأة الشابّة قد استغلّت هذه المداخلة الطبية لتخرج من الغرفة. ومن ثمّ اضطرّ أن يتحمّل حديثاً مقتضباً التقط منه في الهواء عبارات مثل «رضّ في القفص الصدري مع انحرافٍ عظم القصّ» أو «انقراص فقرات الرقبة». وأخيراً، أنهى الطبيب زيارته بدَهن المناطق المُصابة بمرهم مضاد للالتهابات ووَضع طوق رقبة.

قبل أن يغادر الغرفة، سأله إليوت عن أخبار صبيّ في عمره نفسه كان قد نُقِل معه إلى المستشفى، فعلِم أنّ العملية الجراحية قد انتهت لِتوّها، ولكن لا بدّ من «انتظار استفاقة المريض لتشخيص حالته».

هذه الجملة سوف يردّدها هو بنفسه مراراً وتكراراً خلال السنوات القليلة القادمة...

ظلّ إليوت مستلقياً في سريره وحيداً في الغرفة إلى أن انفتح الباب قليلاً وأطلّ وجهٌ جميل من فتحته.

قالت إيلينا:

- أنا موافقة.

- على ماذا؟

قالت وهي ترفع فنجانين من الورق المقوّى:

- على القهوة.

ابتسم الرجل الشابّ والتقط المشروب المقدَّم له، ثمّ قال معرفاً بنفسه:

- في الحقيقة، أنا أُدعى إليوت.

فردّت المرأة الشابّة:

- وأنا أُدعى إيلينا.

في ذلك اليوم، في الطابق السادس من المستشفى، وسط شتاء مانهاتن، تحادث شبحان صغيران جمعهما القدر حتى وقتٍ متأخّرٍ من الليل.

التقيا في اليوم التالي، ومن ثمّ في الأيام التالية، تجوّلا في شوارع المدينة وتنزّها في حديقة سنترال بارك وجالا على المتاحف، ثمّ يعودان كلّ مساء إلى المستشفى للاطّلاع على أخبار الجريح الذي لا يزال في غيبوبة.

ومن ثمّ، ستحدث تلك القبلة المتبادلة تحت المطر لدى خروجهما من مقهى أمستردام كافيه الذي توقّفا فيه لتناول كوبٍ من الشوكولاتة المرّة وقطعة شيز-كيك بالقرفة.

هذه القبلة التي سوف تغيّر كلّ شيء.

لأنّ إليوت لم يكن قط سعيداً في حياته كما هو الحال مع هذه

الفتاة الغريبة، الإيجابية والبوهيمية، التي كانت تُعيد صنع العالم وهي تتناول وجبتها من البيتزا.

وسوف لن تشعر إيلينا أبداً بأنّها أكثر جمالاً سوى من خلال نظرة هذا الصبي الساحر والمحبوب الذي وضعه القدر في طريقها بهذه الطريقة الغريبة جدّاً.

كانا يقضيان، في فترة ما بعد الظهيرة، ساعات في الحديث والنقاش في الحديقة الشاسعة الممتدّة وسط ناطحات السحاب. هناك، تعارفا جيّداً. تحدّثت له عن دراستها لعلم الأحياء وطموحها في أن تصبح طبيبة بيطرية. كان هو الآخر يهتمّ بالرياضيات والعلوم. أرادت أن تعرف لماذا أوقف دراسته رغم نتائجه الجيّدة. صحيحٌ أنّه ذكي ولكنّه أكّد بأنّ ليس له دور في هذه النتائج الإيجابية. إنّها فقط بسبب التسهيلات وبسبب الرقم 166 المخصّص لمعدّل ذكائه.

حينما سألته إيلينا عن مشاريعه المستقبلية ولم يعرف بماذا يُجيب عن سؤالها، خمّنت إيلينا أنّه يعاني من عدم الثقة بنفسه وبحساسية مفرطة تجعله ينطوي غالباً على ذاته.

وبالتالي، ذات يوم، وبشكلٍ عابر، طرحت عليه السؤال: «لماذا لا تصبح طبيباً؟». في البداية تصرّف كما لو أنّه لم يسمع سؤالها، ثمّ ولأنّها ألحّت عليه بالسؤال، هزّ كتفيه.

مع ذلك، ظلّ السؤال حاضراً في تلافيف دماغه حتى جاء ذلك المساء الشهير حينما أبلغوه أنّ الصبي الذي أنقذه قد استفاق من غيبوبته وأنّه يرغب في رؤيته.

دخل إليوت إلى الغرفة واقترب من السرير.

كان الصبي الممدّد في السرير فرنسياً. رغم الأيام العشرة التي

أمضاها في الغيبوبة، كانت عيناه تلمعان وله وجهٌ مرح وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة على نحوٍ لطيف.

قال ممازحاً مع حركة خفيفة:

- إذاً، أنت مُنقذي!

أجاب إليوت:

- أظنّ ذلك.

لم يكن قد تبادلا ثلاث كلمات حينما سرى تيارٌ من المودّة بينهما.

قال له الفرنسي:

- الآن، سوف ألاحقك طيلة الوقت.

- حقّاً؟

- إلى حين أن أردّ لك المعروف وأن تُتاح الفرصة لي كي أنقذ، بدوري، حياتك...

ابتسم إليوت. أعجبَه الصبي على الفور من خلال فرحة الحياة التي يُبديها. مكتشفاً فيه نقيضه ومكمّله التام في آنٍ واحد، مدّ له يده لكي يعرّفه بنفسه:

- اسمي إليوت كوبر.

- أنا مات ديلوكا.

فيما بعد، حينما سيفكر في تلك اللحظة، سوف يدرك إليوت إلى أيّ درجة غيّرت حياته إلى الأبد.

ذات صباح، لكي يلحق بفتاةٍ في المترو، صعد إلى عربة بدل أخرى. أنقذ هذا الخيار حياته وأتاح له أن يلقى...

... حبّاً،

صديقاً
وقَدَراً.

في غضون بضعة أيام، في تلك السنة، أصبح رجلاً.

* * *

سان فرانسيسكو، 2006

إليوت في سنّ الستين

وهو لا يزال متعلّلاً بذكريات الماضي، أوقف إليوت سيارته في قمّة تيليغراف هيل قبل أن يسير مشياً على القدمين ويسلك مسالك فيلبيرتس ستيبس. نزل دورة الدرج المزخرف حتى وصل إلى الشقة الأنيقة المزيّنة بطرازٍ فني أنيق. دفع الحاجز المطلّ على الحديقة ولأنّ النافذة كانت مفتوحة قليلاً، هتف وهو يطرق على دَرْفتها:

- هذا أنا يا مات! أنتظرك في الخارج.

فتح مات الباب سريعاً وفتح عينيه على آخرهما.

- إليوت؟

- أسرعْ يا صديقي، يجب أن نتوقّف في محلّ شي فرانسيس لكي نشتري ساندويتشات. إذا ما تأخّرنا كثيراً، سوف لن تعود هناك أطعمة فاخرة وسوف تتذمر لأنّه سوف لن نعثر على أيّ طعام لذيذ لنتناوله.

- ماذا تفعل هنا؟

- أليس اليوم هو موعدنا لنخرج في رحلة بالقارب؟

- أيّ قارب؟

- قارب البابا!

- ما هذه القصّة؟

- ولكنّك تركت البارحة مساءً رسالة على المجيب الآلي لهاتفي تقترح فيها عليّ الذهاب للقيام بـ. . .

قاطَع مات كلامه:

- كُفّ يا إليوت! لم أتركْ لك أيّ رسالة لسببٍ وجيهٍ وبسيط وهو أنّنا لم نتكلّم مع بعضنا منذ ثلاثين سنة!

هذه المرّة، كان دور إليوت في أن يفتح عينيه على آخرهما ويبقى منذهلاً.

نظر في عينيّ مات وبات على يقينٍ أنّ هذا الأخير لم يكُن يمزح.

استأنف مات كلامه:

- اسمع، لا أعلم ما الذي تدبّره ولكن ليس لدي وقتٌ لأضيّعه اليوم. لذلك اعذرني، ولكن. . .

- مهلاً يا مات، مهلاً! أنت صديقي! نتحدّث مع بعضنا هاتفياً كلّ يوم ونلتقي عدّة مرّات في الأسبوع!

أغمَضَ الفرنسي عينيه نصف إغماضة كما لو أنّه يحاول أن يتذكّر شيئاً بعيداً.

- كنّا صديقين، هذا صحيح، ولكن منذ زمنٍ طويل.

كان سيُغلق باب شقّته حينما طلب منه الطبيب متوسّلاً:

- ما الذي حدث لنا؟ هل تشاجرنا؟

- أتمزح أم ماذا؟ لا تتظاهر بأنّك قد نسيتَ كلّ شيء!

- ذكّرني بما حدث.

بدا مات متردّداً، ثم قال:

- كان ذلك منذ ثلاثين عاماً. كان كلّ شيء يسير على ما يُرام في حياتنا إلى أن جاء يومٌ فقدتَ فيه عقلك.

- ماذا تقصد؟

- بدأتَ تروي أشياءَ غريبة بشأن رجلٍ وجَدَ وسيلة للسفر عبر الزمن والذي هو أنت نفسك ولكن أكبر سنّاً... باختصار، لم تكُن في حالتك الطبيعية. فعلتُ ما استطعتُ لمساعدتك إلى اليوم الذي تجاوزتَ فيه كلّ حدودكَ.

- متى كان ذلك يا مات؟ متى كان ذلك بدقّة؟

تذكّر الفرنسي فجأةً وهو قلقٍ لهذه المصادفة:

- يوم عيد الميلاد بالضبط. أتذكّر ذلك لأنّه كان أيضاً اليوم الذي قطعتَ فيه علاقتك مع إيلينا...

ثلاثون عاماً، بالتمام والكمال...

- لوقتٍ طويل بذلتُ كلّ جهدي لكي نتصالح، يا إليوت، لكنّك عمَدْتَ إلى بناء جدار بيننا. ومن ثمّ، بعد ما حدث لإيلينا، لم تعُد الأمور كما كانت.

- ماذا حدث لإيلينا؟

غطّت مسحة حزن فجأةً وجه مات الذي قال بصوتٍ يائس:

- انصرِفْ يا إليوت!

قبل أن يُصفّق الباب.

* * *

عانى إليوت مشقّة في العودة إلى رشده. محبَطاً للغاية تحت تأثير الصدمة، عاد إلى سيارته بخطى بطيئة. يبدو أنّ إليوت عام 1976 كان قد اختلف مع مات وهو مَنْ يتحمّل اليوم عواقب ذلك. ولكن كيف يمكن تفسير ذلك في حين أنّ لديه أطنانٌ من الذكريات

مع مات؟ هل كلّ ما عاشاه معاً منذ عام 1976 وحتى اليوم ليس له وجود سوى في خياله؟ استندَ إليوت بمرفقيه إلى سيارته وأمسك رأسه بين يديه.

ماذا لو كان هناك عدّة خطوط زمنية؟

كان قد سمع الحديث عن فرضية «العوالم المتعددة» هذه والتي هزّت أوساط العلماء. بحسب بعض علماء الفيزياء، كلّ شيء بإمكانه أن يحدث، سوف يحدث في عالمٍ محدّد. إذا ما رميتُ قطعة نقدية في الهواء، هناك عالمٌ ستقع فيه القطعة النقدية على طرف النقش وعالمٌ آخر ستقع فيه القطعة النقدية على طرف الطرّة. أنا ألعب لعبة اللوتو: هناك عالمٌ أربح فيه وملايين العوالم التي أخسر فيها! انطلاقاً من هنا، العالم الذي نعرفه ليس إلّا واحداً من بين عددٍ لامتناهٍ من عوالم أخرى. هناك عالمٌ لم يحدُث فيه 11 سبتمبر أبداً وعالمٌ جورج بوش ليس رئيساً للولايات المتّحدة فيه، وعالمٌ آخر لا يزال جدار برلين منتصباً فيه.

عالمٌ تشاجر فيه مع مات قبل ثلاثين عاماً وآخر لا يزالان صديقين فيه...

تكمن المشكلة في أنّ عملية ذهابه وإيابه بين الماضي والمستقبل قد وضعته على خطٍّ زمني لا تتوافق الأحداث فيه مع الذكريات التي يحملها عنها!

لسوء الحظّ، في الوقت الراهن، ليس لديه من خيار سوى التعامل مع هذه الحقيقة.

جلس خلف مقود سيارته السلحفاة وتوجّه نحو المستشفى.

كان أمرٌ مهم يشغل باله ويعذّبه: كان عليه أن يعرف ما حدثَ لإيلينا.

18

ما يُعتَبَرُ سبباً للحياة هو في الوقت ذاته سببٌ وجيهٌ للموت.

ألبير كامو

سان فرانسيسكو، 25 ديسمبر 1976
إيلينا في سنّ الثلاثين
الرابعة و48 دقيقة مساءً

محلّقاً عالياً في السماء، في قلب الضباب والرياح، اخترق طائرٌ فضيّ الريش السحب ليهبط نحو سان فرانسيسكو. هبّ كالسهم وحلّق فوق آلكاتراز وجزيرة الكنز قبل أن يحطّ على أحد برجَي جسر غولدن غيت، الجسر الواسع والأنيق الذي يمرّ فوق خليج على طول كيلومترين حتى يصل إلى سوساليتو. لا تخشى أعمدته العملاقة، المثبّتة بمتانة في المحيط الهادئ، لا التيارات المائية الباردة جدّاً ولا الضباب الكثيف الذي يلتفّ مثل نبات اللبلاب حول هيكلها المصنوع من المعدَن المشعّ والوهّاج. جاثماً فوق البرج الذي يعلو الأمواج، أخفَضَ الطائر رأسه نحو الفراغ ليتأمّل حياة البشر الذين يتحركون بحيوية في الأسفل على انخفاض مئتي مترٍ منه.

على الجسر، كانت السيارات تلتقي وتتجاوز بعضها في حركة متناسقة منظّمة في ستّة مسالك سير مفتوحة أمام حركة المرور. كان كلّ شيء عبارة عن صخب شديد وأصوات منبّهات السيارات وصفائح مهتزّة.

فجأةً، في الممرّ الخاصّ بالمشاة، تقدّمت امرأة نحيلة مثل بهلوانٍ يمشي على الحبل. كانت جاهزة للسقوط.

لا يمكن لإيلينا أن تفسّر ما جاءت تفعله هنا. أحسّت فقط أنّها غير قادرة على أن تستقلّ الطائرة لكي تعود إلى فلوريدا. ولذلك طلبت من سائق سيارة الأجرة أن يعود ويأخذها إلى المدينة. ثمّ، ولأنّه كان عليها أن تذهب إلى مكانٍ ما، تركت نفسها تنقاد وراء خطواتها وقد حملتها خطواتها إلى هنا.

كانت على حافة الهاوية، أسيرة ألمٍ لا يُطاق لم تكن حتّى تشكّ يوماً في أنّها ستُعاني منه. يعتقد الجميع أنّها قوية وصلبة وراشدة، لكنّ هذه الصورة هي ظاهرية ومخادعة فقط. الحقيقة هي أنّها ضعيفة وعزلاء، تحت رحمة جملة قصيرة وبسيطة -«لم أعد أحبّكِ»- والتي، خلال ثوانٍ، جعلتها تفقد كلّ معالمها ونزعت عنها كلّ قوتها ورغبتها في الحياة.

اقتربت من سياج الأمان لتنظر إلى المحيط. كان المنظر مبهِجاً ويسبّب الدوّار. كانت الرياح تهبّ في دوّامة والأمواج تتحطّم وتطرح زبداً يُعطي الانطباع بأنّ البحر يغلي. كان إليوت كلّ حياتها. ماذا سيحلّ بها من دونه؟

أحسّت إيلينا أنّها ضعيفة وضائعة. كان الألم الذي يغمرها شديداً جدّاً ومن المستحيل تخفيفه. فجأةً، أخافَها الاستمرار

في الحياة أكثر من الموت. أدركت حينها لماذا قادَتْها خطواتها إلى هنا.

واندفعت في الفراغ.

* * *

استغرق السقوط من أعلى جسر غولدن غيت أربع ثوانٍ.

أربع ثوانٍ من أجل رحلة أخيرة.

أربع ثوانٍ، منطقة فاصلة حقيقية بين عالمين.

أربع ثوانٍ لا يعود فيها المرء على قيد الحياة نهائياً...

... ولا يكون قد مات بعد نهائياً.

أربع ثوانٍ في الفراغ.

أهي حركة حرية أم حركة جنون؟

أهي شَجاعة أم ضعف؟

أربع ثوانٍ نرتطم في نهايتها بالماء بسرعة 120 كيلومتراً في الساعة.

أربع ثوانٍ في نهايتها...

... نموت.

* * *

سان فرانسيسكو، 25 ديسمبر 1976

إليوت في سنّ الثلاثين

الخامسة وإحدى وثلاثون دقيقة مساءً

في فصل الشتاء، يحلّ الليل سريعاً.

سرعان ما يتحوّل ما بعد الظهيرة إلى مجرّد ذكرى. تضيءُ الأنوار عبر المدينة بعضها تلو الأخرى في حين يستغلّ طرفٌ من القمر ثغرةً في السماء ليطلّ باستحياء.

سار إليوت، ونوافذ السيارة مفتوحة، على طول أمباركاديرو، الجادة الرئيسة الواسعة التي تُحاذي الواجهة البحرية. بعد ما حصل له اليوم، لم يمتلك الشجاعة في قضاء الليل لوحده، محبوساً في بيته الزجاجي. خاف من أن يحنّ، خاف ممّا قد يُقدِم عليه...

فسار كالريح، منقاداً للأضواء التي حملته عبر حيّ الأعمال حيث يقع برج ترانس-أميركا بيراميد، ناطحة السحاب الجديدة المُشعّة على شكل سهم. حائراً ومشوّش الذهن، فكّر في إيلينا التي يجب أن تكون في طائرتها. كيف ستتصرّف حيال هذه القطيعة؟ حاول أن يُقنع نفسه بأنّ الأمور سوف لن تكون صعبة جدّاً بالنسبة إليها وأنّها سوف تجد من دون عناء رجلاً سيُجيد حبّها أفضل منه، ولكن في الوقت ذاته، كان هذا الاحتمال الأخير لا يُطاق بالنسبة له.

ظلّ يسلك المنعطفات واحداً تلو الآخر ليجد نفسه في النهاية في مرأب المستشفى. لقد خسر الحبّ والصداقة ولم يعُد له الآن سوى عمله. بالطبع لم يكن من الوارد أن يُجري أيّ عملية جراحية اليوم ولا حتى أن يتكفّل بمعالجة مرضى، لأنّ آثار الكحول والمخدّرات لم تتلاشَ بعد. لكنّه كان بحاجة إلى أن يجد نفسه في جوٍّ عائلي وهذا الجوّ الموجود في المستشفى هو الوحيد الذي يعرفه.

ركّن سيارته في المكان المعتاد وخرج وسط الليل في اللحظة التي دوّت فيها صفّارات سيارة الإسعاف وومضت أنوارها التحذيرية وهي تدخل مسرعةً إلى المرأب لتتوقّف أمام باب قسم الطوارئ. منقاداً بقوّة العادة، لم يستطِعْ إليوت الامتناع عن تقديم يد المساعدة لطبيبَي قسم الإسعاف: مارتينيز وبايك من الوحدة 21 واللذَين سبق

له أن عمل معهما. لاحظ الوجه الشاحب لممرّضتين، علامةً على خطورة جراح مريضهما.

- ماذا لدينا، يا مارتينيز؟

اعتقد الشاب اللاتيني أنّه في مناوبة وصرّح:

- امرأة شابّة في الثلاثين، في حالة غيبوبة، مُصابة برضوض متعدّدة. ألقت بنفسها من على جسر غولدن غيت قبل نصف ساعة...

- هل نجَتْ؟

- ليس لوقتٍ طويل إن أرَدْتَ رأيي...

كانت المرأة الشابّة قد وضِعت تحت الإنعاش ومُدِّدت لها الأنابيب والمسالك الوريدية إضافة إلى طوقٍ رقبيٍّ يُخفي جزءاً من وجهها.

ساعدهما إليوت في رفعها عن النقّالة.

ثمّ انحنى نحو الجريحة.

وعرفها.

* * *

سان فرانسيسكو، 2006

إليوت في سنّ الستين

وهو لا يزال تحت صدمة شجاره مع مات، كان إليوت يقود سيارته من دون تركيز على الطريق ومن دون أن يعرف إلى أين يذهب بالضبط.

ماذا أراد أن يقول صديقه من خلال عبارة «**بعد ما حدث لإيلينا**»؟ هل كان يُشير فقط إلى انفصالهما والقطيعة بينهما أم إلى أمرٍ أكثر خطورةً؟

حاول إليوت أن يرتّب الأمور في ذهنه. خلال رحلته الأخيرة في الماضي، صبيحة 25 ديسمبر 1976، نجح هو وشخصه الآخر في تجنّب الحادث مع الحوت الذي كان سيكلّف المرأة الشابّة حياتها. إذاً لا تزال إيلينا على قيد الحياة.

لماذا إذاً هذه النبرة اليائسة التي لمسها في صوت مات؟ أوقف على نحوٍ مفاجئ سيارته السلحفاة أمام صنابير إطفاء الحرائق بجانب حديقة واشنطن بارك. وهو يتجوّل على أرصفة نورث بيتش، وجد مقهى للإنترنت طلب فيه كوباً من الكابتشينو لكي يكون له الحقّ في استخدام أحد الحواسيب.

ببضع نقراتٍ على لوحة الحاسوب، وصل إلى موقع حولية على الشبكة وباشرَ بصياغة طلب بحث. فكتب «إيلينا كروز» في الخانة المناسبة.

بدأت الخانة التالية تومض. طلبت إدخال اسم المدينة. كتب «سان فرانسيسكو» ثمّ نقرَ على زرّ البحث.

لم يعثُر على نتائج.

وسّع البحث ليشمل كلّ كاليفورنيا ومن ثمّ ولايات أخرى.

لم يعثر على نتائج.

لا شكّ أنّ إيلينا عام 2006 على القائمة الحمراء، أو أنّها لم تعُد تُقيم على الشاطئ الغربي، أو أنّها غيّرت كنيتها.

من دون أن ييأس، نقرَ إليوت اسم «إيلينا كروز» على محرّك البحث غوغل، فحصل على نتيجة وحيدة. . . نقر على الرابط. كان عبارة عن موقع جامعي خاصّ بممارسة الطبّ البيطري حول الثدييات البحرية. يَذكر الموقع أنّ إيلينا كانت في السبعينيات إحدى الرائدات في إجراء العمليات الجراحية التي غدت روتينية في الوقت الراهن.

كانت المقالة تورِدُ، على سبيل المثال، تفاصيل أوّل عملية تخدير في العالم أُجريتْ على خروف البحر من قبل المرأة الشابّة في عام 1973. كان بجانب اسمها رقم هامشٍ يحيل إلى ملاحظة حول سيرتها الذاتية مدوّنة في أسفل الصفحة. ارتجفت يد إليوت وهو ينقر على الرابط ليكتشف بذعر تاريخَي ميلاد ووفاة إيلينا: 1947-1976!

لم يكن هناك المزيد من التفاصيل.

ظلّت نظرته متعلّقة بالشاشة وحاول أن يفهم الأمر.

إذا كانت إيلينا ما زالت على قيد الحياة في 25 ديسمبر 1976 ويذكر الموقع أنّها قد ماتت في العام نفسه، فهذا يعني أنّ وفاتها قد حدث خلال **الأيام الستّة الأخيرة من عام 1976**. ولكن متى؟ كيف؟ لماذا؟

خرج من مقهى الإنترنت وذهب إلى سيارته مسرعاً.

مراجعة صحف تلك الحقبة!

هذا ما عليه فعله كأولوية. انعطف من دون أن يُشعل ضوء الإشارة وكادَ أن يصدم سيارة لكزس قادمة من الاتجاه المعاكس. بعد انعطافٍ خطرٍ، سلك الطريق باتجاه سيتي هال حيث يوجد مقرّ صحيفة **سان فرانسيسكو كرونيكل** (وقائع سان فرانسيسكو).

هناك، ظلّ يبحث لعشرين دقيقة عن مكانٍ لركن سيارته، ولكن، كما توقّع، كان عدد الأماكن في ذلك الوقت من النهار أدنى من الصفر. بعد أن يئس من إيجاد مكانٍ، ركَنَ سيارته في صفٍّ ثانٍ مخالفٍ لقوانين المرور، مخمّناً أنّه سوف لن يجدها في المكان حينما يعود. دخل لاهثاً إلى المبنى الزجاجي الذي يضمّ مكاتب الصحيفة الشهيرة وشرح لموظّفة الاستقبال أنّه يريد مراجعة أرشيف

عام 1976. ناولته المرأة الشابّة في مكتب الاستقبال استمارة ليملأها وهي تشرح له أنّ طلبه لن يُلبّى قبل مرور عدّة أيام.

قال إليوت متذمّراً:

- عدّة أيام!

أجابته الموظّفة «يوم عطلة»، «نقص في عدد الموظّفين»، «ميكروفيلم»، «سنَة متبقّية يجب ترقيم أحداثها». . .

أخرج ورقة نقدية من فئة مئة دولار؛ بدا على الموظّفة الاستياء؛ أضافَ إليها ورقتين من الفئة نفسها؛ فقالت: «سأرى ما يُمكنني فعله».

وبعد مضيّ ربع ساعة، كان أمام جهازٍ للعرض عليه أن يُقلِّب صفحات سان فرانسيسكو كرونيكل للأعداد الصادرة في الأيام الأخيرة من عام 1976. ولأنّه لم يجد شيئاً في العناوين الرئيسة، بحَثَ في الوقائع المتفرّقة وفي طبعة 26 ديسمبر، وقَع على بيانٍ مقتَضَب قرأه عدّة مرّات، قبل أن يُدرك كلّ مضمونه.

محاولة انتحار جديدة
على جسر غولدن غيت

بعد ظهيرة البارحة، ألقت امرأة شابّة بنفسها من أعلى جسر غولدن غيت من فوق السياج رقم 69. إنّها إيلينا كروز، الطبيبة البيطرية من أصولٍ فلوريدية. بحسب بعض الشهود، ارتطمت بالمياه على قدميها. تمّ انتشالها من قبل قاربٍ للشرطة البحرية، ولكن بسبب إصابتها بالعديد من الكسور

والجراح الداخلية، تمّ نقلها إلى مستشفى لينوكس
حيث اعتبر الأطباء أنّ حالتها «حرجة للغاية».

تشكّل ما يشبه كرة في معدة إليوت وخلال عدّة دقائق، ظلّ جامداً في كرسيّه، منهاراً من جرّاء الضربة القوية التي سُدِّدت لمصيره. ثمّ راجعَ عدد اليوم التالي من الصحيفة، وهو يعرف مُسبقاً ما سيجده فيه.

لا معجزة لمنتحرة غولدن غيت

لا معجزة في مستشفى لينوكس. إيلينا كروز،
المرأة الشابة التي ألقت بنفسها أوّل أمس من أعلى
جسر غولدن غيت فارقت الحياة نتيجة إصابات
وجروح داخلية خطيرة (راجع طبعة أمس).
حادثة الوفاة الجديدة هذه أطلقت من جديد الجدل
حول ضرورة إقامة سياج أمان على الجسر، وهو
الإجراء الذي لا يزال مجلس إدارة جسر غولدن
غيت يرفضه.

خرج من المبنى، محطّماً. كانت سيارته قد ظلّت مركونة لأكثر من ساعة في صفٍّ ثانٍ مخالف من دون أن تقوم شرطة المرور بحجزها. خفّف ذلك عنه بعض الشيء. جلس خلف المقود وسلك الطريق نحو مستشفى لينوكس.

كان لديه آخر شيء يجب التحقّق منه.

* * *

سان فرانسيسكو، 25 ديسمبر 1976
إليوت في سنّ الثلاثين
الثامنة وثلاث وعشرون دقيقة مساءً

كان إليوت ينتظر أن تخرج إيلينا من غرفة العمليات والقلق ينهشه. ولأنّه لم يكن في الخدمة، فُضِّل ألّا يُجري هو العملية لها. ولأنّه كان قد تعاطى هذا الهيروين اللعين، لم يلحّ على إجراء العملية بنفسه.

كان التقييم الطبي كارثياً: كسورٌ في الساقين والقدمين وخلع في الورك والكتف ورضوضٌ في جدار القفص الصدري... كانت الصدمة قويّة جدّاً بحيث حطّمت أيضاً الحوض، متسبّبة بتمزّق في الأعضاء المتعلّقة به. كانت هناك خشية من تضرّر الكليتين والطحال في حين أثار تزيفٌ مهبلي الشكّ في تمزّق الأمعاء أو الجهاز البولي.

لم يستطع إليوت الثبات وظلّ يزرع المكان جيئة وذهاباً قبل أن يعود ويقف خلف الأبواب الزجاجية التي تفصله عن غرفة العمليات. لقد سبق له وأن رأى فيها الكثير وما يكفي لكي لا يتعلّل بالأوهام.

كان هو بنفسه يتدخّل غالباً لإجراء العمليات الجراحية في حالات متعددي الجروح[1] ويجب أن يكون واقعياً: في هذه الحالات، تكون احتمالات الموت راجحة على فرص النجاة. ناهيكم عن أنّ حادثة كهذه تسبّب غالباً إصابات في العمود الفقري والنخاع الشوكي. وهي جروح من النوع الذي تُصيب المرء بالشلل التامّ أو الشلل النصفي في أحسن الأحوال...

في لمحة خاطفة، مرّت صورة إيلينا المشلولة في أطرافها الأربعة

(1) متعدد الجروح: شخص فيه إصابات عديدة ناجمة عن الحادث نفسه.

وهي تُدفَعُ في كرسيٍّ متحرّك في ذهنه وتقابلت مع الصورة المرأة الشابّة التي كانت حتى الأمس تغطس وتسبح إلى جانب الدلافين.

كان كلّ هذا بسببه هو! مع شخصه الآخر، كان قد اعتقدا بأنّهما قد أنقذا إيلينا، لكنّهما في الحقيقة لم ينجحا سوى في تأجيل النهاية المحتومة لبضع ساعات. بدل أن تموت غرقاً بفعل حوتٍ، انتحرت بإلقاء نفسها من على جسرٍ.

يا لها من صفقة كبيرة!

كانا قد حاولا أن يتحدّيا القدر، لكنّ القدر كان الأقوى.

* * *

سان فرانسيسكو، 25 ديسمبر 2006

إليوت في سنّ الستين

العاشرة وتسع وخمسون مساءً

كان المطر يهطل بغزارة على مستشفى لينوكس.

في الطابق السفلي الثالث تحت الأرض، وعلى ضوء لمبة نيون تصدر أزيزاً، كان إليوت يتفقّد ملفات الأرشيف القديم لثلاثين سنةٍ خلت، بحثاً عن ملفّ إيلينا الطبي.

كانت القاعة مجهّزة برفوفٍ معدنية ترزح تحت عبء الصناديق الكرتونية. في مدّة زمنية بعيدة، كان من المفروض أنّ كلّ هذه الوثائق قد صُنِّفَت وفق ترتيبٍ محدّدٍ بدقّة، لكنّ اليوم القاعة برمّتها ليست سوى مجرّد فوضى عارمة. كانت الأشهر والسنوات والأقسام كلّها مختَلِطَة ومبعثرة على نحوٍ فوضوي. وهو منهمكٌ في فتح كلّ صندوقٍ وكلّ ملفّ على نحوٍ محموم، حاول إليوت أن يعطي معنى لما عاشه وشاهده منذ ثلاثة أشهر. في البداية، اعتقد بسذاجة أنّه

سيستطيع تغيير القدر وكان القدر يندرج ضمن ذكراه الطيّبة. لأنّه كان عليه أن يرضخ للواقع: الإرادة الحرّة وقدرة المرء على التأثير على قدره، كلّ هذا لم يكن سوى وهمٍ. الحقيقة هي أنّ مصائر حياتنا مبرمجة ومن العبث مقاومتها. بعضُ الأحداث لا يمكن منع حدوثها وساعة الموت جزء منها. المستقبل لا يُخلق تباعاً. بالنسبة إلى المسائل الجوهرية، الطريق مرسومة مسبقاً وليس هناك من حلٍّ سوى اتّباعها. يشكّل الكلّ -الماضي والحاضر والمستقبل- كتلة واحدة وتحمل الاسم المُرعب للقَدر المحتوم.

ولكن إذا كان كلّ شيء مكتوباً مسبقاً، مَنْ يُمسك بالقلم؟ قوّة عليا؟ إله؟ ولكن، لكي يقودنا إلى أين؟

وهو يعلم تماماً أنّه سوف لن يحصل أبداً على جوابٍ لهذه الأسئلة، ركّز انتباهه على أبحاثه وبعد مضي ساعة كاملة، انتهى إلى وضع يده على ما كان يبحث عنه.

لم يكن ملفّ قبول إيلينا قد اختفى، لكنّ علامات الزمن كانت قد جعلت مضمونه غير قابلة للقراءة تقريباً. كانت أحرف المطبعة قد تحلّلت وأدّت الرطوبة إلى التصاق بعض الصفحات ببعضها. باضطرابٍ وتوتّر، قرّب إليوت الأوراق من لمبة النيون واستطاع أن يفكّ طلاسم ما هو جوهري في الوثيقة.

كانت جروح إيلينا أكثر خطورة ممّا تصوّره، ولكن على عكس ما قرأه في الصحيفة، لم تكن إيلينا قد ماتت بسبب الجروح الداخلية العديدة وإنّما بسبب عملية جراحية عاجلة لسحب كتلة من الدم المتجمّع على دماغها.

نظر إلى اسم الطبيب الذي أجرى لها العملية: الدكتور ميتشل.

تذكّر الطبيب: كان روجيه ميتشل جرّاحاً ذا كفاءة، ولكن...

لماذا لم أُقم أنا بنفسي بالعملية الجراحية؟

كما تعجّب لعدم وجود تقرير التصوير الإشعاعي. بحسب المؤشّرات، نجح في إعادة تركيب صورة ما كان قد حدث. في حدود الساعة الرابعة صباحاً، كانت ممرّضة قد أشارت إلى تفاوتٍ في قرنية العين تشي بوجود كتلة دموية. تمّ إجراء عملية جراحية عاجلة لها ولكن من دون تحقيق النجاح.

كانت الكتلة الدموية عميقة ومستقرّة في مكان سيئ وزاد في تعقيد الأمر وجود جرح في الجيب الوردي وجعل رؤيتها غير ممكنة من دون تصويرٍ إشعاعي. عملية جراحية دقيقة للغاية أُجريت لمريضة تُعاني ضيق التنفّس وفقدان الوعي. سوف لن ينجح أفضل الجراحين في إنقاذها.

إلّا إذا اعتقد الطبيب أنّ العملية...

لفتت معلومة أخيرة انتباهه: ساعة الوفاة.

الرابعة وستّ وعشرون دقيقة صباحاً.

لم يستطِعْ الامتناع عن النظر إلى ساعة يده.

لم تكن قد بلغت منتصف الليل بعد.

* * *

سان فرانسيسكو، 26 ديسمبر 1976

إليوت في سنّ الثلاثين

الثانية عشرة وثلاث وعشرون دقيقة بعد منتصف الليل

قال الدكتور روجيه ميتشل موضّحاً لزميله الشابّ:

- لقد استأصلتُ الطحال وقمتُ بخياطة جزء من الأمعاء.

للمرّة الأولى، وجد إليوت نفسه، مع قلقٍ، في الجانب الآخر: جانب المرضى وعائلاتهم.

سأل:

- والكليتان؟

- يمكن أن تتحسّنا. بالمقابل، أنا قلقٌ بشأن الجهاز التنفّسي: العديد من الأضلاع المجاورة مكسورة على الأقلّ في مكانين منهما. كان إليوت يعرف دلالة هذا الأمر وتأثيره. هذا يعني أنّ فلقة من جدار الصدر لم يعُد على تكاملٍ مع القفص الصدري، الأمر الذي يزيد من خطر حدوث استرواحٍ صدري وانصباب الدم في الصدر وضيقٍ في التنفّس.

- هل هناك أضرار فقارية؟

- من المبكّر قول ذلك. ربّما على مستوى فقرات الظهر... كما تعرف، في هذه المنطقة إمّا الإصابة تكون كاملة أو لا تكون: قد يكون هذا أمراً حميداً...

أكمل إليوت العبارة:

-... كما يمكن لهذا أن يؤدّي إلى الشلل السفلي التامّ.

عبس ميتشل قليلاً:

- يجب أن ننتظر. في الوقت الراهن، لا يمكننا القيام بالشيء الكثير.

- ألا تحيلها إلى التصوير الإشعاعي؟

- ليس هذا المساء، لدينا مشكلة مع الجهاز: يجري تنزيل البرنامج منذ الصباح من دون توقّف.

صاحَ إليوت وهو يضرب الباب بقبضته!

- اللعنة!

- اهدأ. لقد وضعناها تحت المراقبة المشدّدة. سوف تمرّ ممرّضة كلّ ربع ساعة. وعلى أيّ حال..

أرادَ أن يقول شيئاً ثمّ عدل عن ذلك.

سأل إليوت لكي يُرغمه على إكمال الجملة:

- على أيّ حال ماذا؟

- الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله في هذه المرحلة هو أن نصلّي من أجلها. أن نصليّ بألّا نضطرّ إلى فتح بطنها قريباً جدّاً، لأنّها في حالتها هذه سوف لن تتحمّل.

* * *

سان فرانسيسكو، 26 ديسمبر 2006

إليوت في سنّ الستين

الواحدة وثلاث وثلاثون دقيقة فجراً

صعَدَ إليوت من جديد إلى الطابق العلوي وهو يضمّ إلى صدره ملف إيلينا الطبّي القديم. حتى وإن كان قد توقّف عن إجراء العمليات الجراحية منذ شهرين، فقد ظلّ مدير المستشفى الأمر الذي أعطاه الحقّ في الاحتفاظ بمكتبه. أُنيرت الأضواء تلقائياً ما أن دفع الباب. وقف ساكناً بلا حراك على قدميه قبالة النافذة، متأمّلاً سقوط المطر المستمرّ في الهطول فوق المدينة.

ثمّ جالَ في الغرفة، مشغول البال، متسائلاً إن كان لا يزال بوسعه أن يفعل شيئاً. استعرض مرّة جديدة الملفّ الطبي لإيلينا قبل أن يضعه على طاولة العمل إلى جانب لعبة شطرنج مصنوعة من المرمر في تصميم بديع. وهو مطرقٌ في التفكير، أمسكَ بقطعتين من الشطرنج: فيلٌ له شكلٌ مخروطي ورُخّ أسطواني.

المخروط والأسطوانة. . .

ذكّره ذلك بحكاية أسطورية درسها خلال دراسته.

وضع المخروط بطريقة مسطّحة على الطاولة ودفعه بإصبعه: دار المجسّم على نفسه. دفع الأسطوانة بالطريقة نفسها: تدحرجت على الطاولة وانتهت بأن تحطّمت على الأرض.

كانت القطعتان قد خضعتا للصدمة نفسها، ولكنّهما سلكتا مسارَين مختلفين. مغزى الحكاية: يتصرّف الناس بطرقٍ مختلفة حيال يد القدر نفسها. حتى إذا كنتُ لا أستطيع الهروب من قدري، أظلّ مسيطراً على طريقة مواجهته.

منتعشاً بهذه الفكرة، وضع إليوت يده في جيبه ليُمسك بعبوة الأقراص. كان قد عاش يوماً عصيباً ولم ينتهِ بعد. مع ذلك، أصبح يشعر بأنّه هادئٌ على نحوٍ مدهش.

فالإنسان لا يكون أبداً على هذه الدرجة من القوّة إلّا حينما يخوض معركته الأخيرة.

19

اللقاءان السابع والثامن

لو الشبيبة علِمت...
لو الشيخوخة قدِرت...

سان فرانسيسكو، 26 ديسمبر 1976
إليوت في سنّ الثلاثين
الثانية ودقيقة واحدة صباحاً

كان المستشفى قد هدأ من الداخل، في حين طغى عليه من الخارج صخب المطر المتساقط.

كانت إيلينا طريحة السرير، مُغمَضة العينين، في عتمة غرفة صغيرة، على جسدها شبكة من الحقن وفي فمها أنبوب التنفّس الاصطناعي.

جالساً إلى جوارها، رفع إليوت الغطاء قليلاً كما لو أنّه يخاف أن تأخذ برداً. مرتبكاً، قرّب يده المرتعشة من وجه المرأة الشابّة. حينما تلامست بشرتاهما، أحسّ أنّ نصال شفراتٍ بدأت تنغرس في قلبه. خلف قسمات وجهها المتورّم وشفتيها المزرقتين، أحسّ أنّ هناك حياة تُصارع لكي لا تنطفئ، حياة معلّقة بخيط من الممكن أن ينقطع في أيّ لحظة.

* * *

انفتح باب الغرفة بهدوء. التفت إليوت، معتقداً أنّ الممرّضة المناوِبَة في الطابق هي القادمة.

لكنّ القادم لم يكُن هي.

قال شخصه الآخر بنبرة لا تقبل أيّ اعتراض:

- يجب إجراء عملية جراحية لها!

- إجراء عملية ماذا؟

- ورم دموي خارج الأمّ الجافية في الدماغ.

رفع الطبيب الشاب مذعوراً جفون إيلينا، ولكنه لم يُلاحظ أي تفاوت في قرنية العين يشير إلى وجود ورم دموي.

- كيف تعرف هذا؟

- من تقرير الوفاة. ولو أجريت تصويراً إشعاعياً، لعرفتَ أنت أيضاً ذلك...

دافع إليوت عن موقفه:

- مهلاً، لسنا سوى في عام 1976، الأجهزة معطّلة وبرامج الحاسوب التي لا تُنصَب إلّا مرّة واحدة من أصل مرّتين، ألا يذكّرك هذا بأيّ شيء؟

لم يحظَ الآخر بالوقت الكافي للردّ عن سؤاله مركّزاً على فحص مخطّط القلب.

قال وهو يشير إلى هاتفٍ مثبّتٍ على الجدار:

- اطلب تجهيزَ غرفة، بسرعة!

- مهلاً، إنّها تعاني من العديد من الجروح والإصابات في القفص الصدري: إذا قمنا بفَتح جمجمتها الآن، ستتعرّض لخطر الموت.

- نعم، وإذا لم نفتَح الجمجمة، يُصبح الخطر مؤكّداً.

فكّر إليوت في ذريعته قبل أن يُبدي تحفّظاً جديداً:

- سوف لن يقوم ميتشل بإجراء عملية جراحية لإيلينا بناءً على مجرّد تخمينٍ.

هزّ الآخر كتفيه:

- إذا كنت تعتقد بأنني سوف أدَع ميتشل يُجري العملية...

- مَنْ إذاً؟

- أنا.

كان إليوت موافقاً على أن يجعل من نفسه «أنا»، لكن ظلّت هناك مشكلة واحدة:

- لا يمكن أن نُجري العملية بشخصين فقط! يلزمنا على الأقلّ اختصاصي تخدير وممرّضة.

- مَنْ هو اختصاصي التخدير المناوب؟

- سامانتا رايان، أعتقد.

هزّ الطبيب العجوز رأسه ونظر إلى ساعة الحائط.

قال وهو يغادر الحجرة:

- موعدنا بعد عشر دقائق في غرفة العمليات! جهّز إيلينا للعملية الجراحية، وأنا سأتكفّل بأمر رايان.

* * *

كان إليوت، البالغ ستين عاماً، يجول في الصالة الفسيحة شبه الفارغة حيث تفوح رائحة قوية للأثير. ولكي يمرّ دون أن ينتبه إليه أحد، خلع سترته وارتدى بلوزة بيضاء. كان يعرف كلّ أقسام المستشفى بالتفصيل ولم يجد صعوبة في إيجاد قاعة الاستراحة التي كانت سامانتا رايان قد لجأت إليها.

قال وهو يُشعِل الإنارة:

- مرحباً يا سام.

معتادة على النوم المتقطّع خلال المناوبات الليلية، فزّت المرأة الشابّة ووضعت يدها أمام عينيها للاحتماء من النور المبهر. ومع أنّ وجه هذا الرجل لم يكن مجهولاً بالنسبة إليها إلّا أنّها عجزت عن تذكّر اسمه.

ناولها إليوت فنجاناً من القهوة والذي قبلته وهي تعقص خصلاتٍ متناثرة من شعرها سقطت على وجهها.

هذه فتاة لانمطية وغير عادية: إنّها في الثلاثين من عمرها ومن أصلٍ إيرلندي ومثلية جنسياً وكاثوليكية ملتزمة. كانت تعمل في المستشفى منذ عامين، بعد أن قطعت جسور التواصل مع عائلتها التي تعيش في نيويورك حيث كان والدها وأخوتها من أركان شرطة نيويورك.

خلال السنوات التالية، أصبح إليوت وهي صديقين مقرّبين، لكن في تلك الفترة، كانت تعيش بمفردها، انطوائيةً وخجولة. لم يُعرف لها أيّ صديقٍ في المستشفى حيث لقّبها زملاؤها المتوحّدة.

- أحتاج إليكِ في عملية يا سام.

- في الحال؟

- نعم حالاً. تجمُّع دموي تحت الأغشية المحيطة بالمخّ يجب إزالته لمصابةٍ تعاني من ضيقٍ في التنفّس.

سألت وهي ترشف رشفة من القهوة:

- التي حاولت الانتحار؟

- هي بذاتها.

أعلنت بهدوء:

- سوف لن تنجو منها.

ردّ إليوت:

- هذا الأمر سيفصح عنه المستقبل.

فتحت ورقة من الألمنيوم كانت تحتوي على بضع قطعٍ من بسكويت أوريو.

سألت وهي تغمس قطعة من البسكويت في قهوتها:

- مَنْ سيُجري العملية؟

- أنا.

- ومَن أنت، بالضبط؟

- شخصٌ يعرفكِ.

التقت نظرة المرأة الشابة مع نظرة الطبيب، وللحظة واحدة، ارتبكت من جراء ذلك الإحساس العابر بأنّ الرجل يقرأ فيها كما يقرأ في كتاب...

قال إليوت مؤكّداً:

- يجب أن نتصرّف سريعاً.

هزّت سامانتا رأسها:

- ميتشل هو الطبيب المناوب وصاحب القرار. ليس من الوارد أن أجري عملية على هذا القدر من الخطورة، سأتسبّب بطردي من العمل.

قال إليوت مؤيّداً:

- هناك مخاطر. مع ذلك، ستساعدينني....

قالت وهي تهزّ كتفيها:

- لستُ مدينةً لك بأيّ شيء.

- لستِ مدينة لي، ولكنّكِ مدينة بشيءٍ ما لسارة ليفيس...

ترك جملته معلّقة ونظرت هي إليه، فزعةً. سارة ليفيس كانت بائعة هوى متشرّدة وقد وصلت إلى المستشفى قبل عامين بعد أن أوسِعَت ضرباً وتلقّت عدّة طعنات بسكين. تمّ إجراء عملٍ جراحيّ عاجل لها، لكنّها لم تُنقَذ وفارقت الحياة.

ذكّرها إليوت:

- كنتِ في بداية عملكِ في هذا المستشفى وكنتِ في الخدمة آنذاك. أنتِ طبيبة تخدير ناجحة، يا سام، واحدة من أفضل طبيبات التخدير، لكن في ذلك المساء، فشلتِ فشلاً ذريعاً...

أغمضت سامانتا عينيها، وللمرّة الألف، أعادت المشهد في ذهنها: إساءة استعمال ومادتان يتمّ مزجهما وخطأ طبيبة مبتدئة وتلك المرأة المسكينة التي لم تستيقظ من التخدير.

أقرّ لها إليوت:

- لقد كنتِ ماهرة في إخفاء خطأكِ ويجب الإقرار بأنّ موت تلك العاهرة لم يكن مهمّاً للكثير من الناس.

كانت سامانتا لا تزال تُغمض عينيها. لقد ارتكبت ذلك الخطأ لأنّها لم تكُن حريصة ومحتاطة جيّداً. والحقيقة أنّ ذهنها في ذلك المساء كان شارداً في مكانٍ آخر. كان ذهنها مشغولاً في نيويورك وبوالدٍ يعاملها على أنّها «سافلة، ساقطة، عاهرة صغيرة» وبوالدتها التي تردّد كلمة «عار» كلّ ثلاث ثوانٍ مرّة وبأخوتها الذين يدفعونها لمغادرة المدينة.

حينما فتحت عينيها، نظرت إلى إليوت، مذعورةً:

- كيف عرفت كلّ هذا؟

- لأنّكِ أخبرتِني بذلك.

هزّت سامانتا رأسها. لم تكن قد تحدّثت مع أحدٍ على الإطلاق عن تلك الحادثة، ولا حتى في سرّها.

بالمقابل، بدأت منذ سنتين تعمّق إيمانها الديني وتصلّي باستمرار كما لو أنّها تريد أن تكفّر عن ذنبها.

أكثر من أيّ شيء كانت تتمنّى لو أنّها تعود إلى الوراء وتتصرّف كما لو أنّ ذاك اليوم اللعين لم يكن موجوداً أبداً. كم من مرّة تضرّعت إلى السماء لكي تمنحها فرصة التكفير عن ذلك الإثم!

قال إليوت الذي خمّن ما كانت تفكّر به:

- أنقِذي حياة لتكفّري عن ذنب التسبّب بموتٍ...

بعد بضع ثوانٍ من التردّد، زرّرت سامانتا سترتها وقالت ببساطة:

- سأصعد إلى غرفة العمليات.

كان إليوت سيسير في إثرها حينما أحسّ بيده التي بدأت ترتجف.

جاءت الحالة!

لجأ إلى المرحاض الذي كان لحسن الحظّ خالياً في ذلك الوقت المتأخر من الليل. أحسّ مذعوراً بأنّه يختفي. انحنى فوق المغسلة لكي يغسل وجهه. على النقيض من سامانتا رايان، لم يكن يؤمن بالله، الأمر الذي لم يمنعه من التضرّع إليه بالصلاة.

دعني أُجري لها العملية! دعني أبقى لوقتٍ أطول بقليل!

لكنّ الله الذي لم يكُن يؤمن به لم يستجِب لتوسّلاته ولم يعُد أمام إليوت من خيار سوى أن يدع نفسه ينجرف في متعرّجات الزمن.

* * *

استيقظ إليوت في عام 2006، مسترخياً في أريكة مكتبه. نظر وقد تملّكه الذعر إلى المؤشر الرقمي لساعة موضوعة على رفٍّ في المكتبة: الثانية وثلاث وعشرون دقيقة فجراً.

كان لا يزال لديه القليل من الوقت، شريطة أن ينطلق في الحال إلى الماضي. محموماً، ابتلع قرصاً جديداً، لكنّ شيئاً لم يحدث. هذا أمرٌ طبيعي: فالمادة لا تأخذ مفعولها إلّا في أثناء النوم. والحال أنّه كان قلقاً جدّاً بحيث لا يمكنه النوم بحسب الطلب. فهرع إلى الممرّ ليطلب المصعد وينزل إلى صيدلية المستشفى. في الصيدلية، حصل على عبوة من الهيبنوزين، وهو عقارٌ يسبّب فقدان الوعي ويُستخدَم لتحضير المرضى قبل تخديرهم. صعد بأقصى سرعة إلى مكتبه وأمسك بحقيبته الطبية ليُخرج منها محقناً يُستخدَم لمرّة واحدة. سحب بالمحقن جرعة صغيرة من العقار وحقنها في أحد أوردته. لم تتأخر آثار العقار المنوّم طويلاً في نقل إليوت إلى بلاد الأحلام والأوهام.

* * *

في اللحظة نفسها، في عام 1976، كان إليوت، البالغ ثلاثين عاماً، ينتهي من تحضير إيلينا للعملية الجراحية. حلق شعر رأسها وهمّ بنزع جهاز التنفّس الاصطناعي. لكي يتيح لها التنفّس خلال عملية نقلها، ركّب بالوناً منفوخاً وأصعدها إلى غرفة العمليات، بأقصى درجات السرية. كانت سامانتا رايان تنتظره هناك كممرّضة.

بالمقابل، لم يكن هناك أيّ أثر لشخصه الآخر، إلى أن سمع أحدهم ينقر على الزجاج. أشار إليه الطبيب العجوز بأن يأتي ويتعقّم وذهب إليوت إليه من دون أن يتكلّم معه. بعد أن اجتمعا أخيراً، رفع الطبيبان الجرّاحان أكمامهما حتى المرفقين واستعدّا في صمتٍ، إذ

قاما بفرك يديهما بمادة مطهّرة قبل أن يرتديا صدرية وكمّامة وقفازات لدنة وقلنسوة ورقية.

* * *

ثمّ دخل كلاهما إلى غرفة العمليات.

وقف إليوت بعيداً بعض الشيء، تاركاً شخصه الآخر يقود المناورة. كان الآخر في مزاجٍ مرحٍ وهادئ جدّاً وينسّق كلّ حركة لكي يضع إيلينا على طاولة العملية الجراحية. أبقى رأسها في وضعية محورية، متجنّباً كلّ حركة انحناء أو دوران. كان يعلم أنّها تعاني من إصابات في فقرات العمود الفقري ولم يشأ في أن يزيد من خطورتها نتيجة وضعها بسرعة على السرير.

وأخيراً بدأت العملية. أحسّ الأكبر سنّاً من بين الطبيبين بتأثّرٍ خاصّ: لقد مرّ شهران على توقّفه عن إجراء العمليات الجراحية ولم يعتقد قطّ بأنّه سيُمسك من جديد مبضعاً في يده. كانت حركاته دقيقة. مع الوقت، تعلّم كيف يتحمّل ضغط هذه اللحظات العصيبة. يعلم تماماً أين يفتح بالضبط ولا ترتعش يداه وكان كلّ شيء يسير على ما يرام إلى أن...

- مَن أعطاكم الإذن بإجراء عملية جراحية!

دخل ميتشل إلى القاعة وهو في غاية الغضب. نظر على التوالي إلى سامانتا وإليوت وشخصه الآخر.

سأل وهو يشير بإصبعه إلى الجرّاح العجوز:

- ومَن يكون هذا الرجل؟

قال له هذا الأخير بكلّ هدوء:

- لستَ معقّماً يا دكتور ميتشل وأنت تدخل على عملية إزالة تجمّع دموي.



مستاءً ومنزعجاً، وضع ميتشل كمّامةً على فمه وتوعّد قائلاً:

- لن يمرّ الأمر بهذه الطريقة!

كرّر إليوت، مرغِماً الطبيب على الخروج من القاعة غاضباً:

- تفضّل بإجراء عملية التعقيم، يا دكتور.

استمرّت العملية الجراحية في مسارها بهدوءٍ غير متوقّع. في الخارج، كان برقٌ ورَعْدٌ ويُسمع ضجيج المطر الذي يضرب الزجاج ويسيل في المزاريب. نظر إليوت، البالغ ثلاثين عاماً، إلى شخصه الآخر الأكبر سنّاً بمزيج من الإعجاب وعدم التصديق. أمّا إليوت، البالغ ستين عاماً، فقد ظلّ مركّزاً على مهمته. حتى إذا كان كلّ شيء يسير على ما يُرام، فإنّ عمق التجمّع الدموي وحجمه والضيق الشديد في التنفّس عند إيلينا جعل الأمل في إنقاذ حياتها ضعيفاً للغاية. كان يعلم أنّ هذه الغيبوبة، حتى في أحسن الأحوال، سوف تتسبّب بأضرار دماغية وستكون لها عواقب وخيمة. كم هي نسبة فرص نجاتها؟

من الناحية الطبية، نسبة النجاح في إنقاذ حياتها هي خمس فرص من أصل مئة. وربّما فرصة واحدة من أصل ألف في أن لا تكون هناك عواقب سلبية عليها.

ولكن خلال ممارسة مهنته، تعلّم أن يتعامل مع هذه الأرقام والنسب بحذر. لقد عرف مرضى لم يكن الأطباء يتوقّعون أن يعيشوا لأكثر من ثلاثة أشهر، لكنّهم عاشوا لعشر سنوات. مثلما شاهد عمليات جراحية روتينية انتهت على نحوٍ مأساوي. هذا ما كان يقوله في نفسه عندما انبجس فيضٌ من الدم على وجهه. هذا ما كان يخشاه: جرحٌ في الجيوب الأنفية ضغط عليه التجمّع الدموي. لقد نزفت كثيراً لكنّه حذّر الآخرين وشُفِط الدم بحذر وانتباه. بذل جهوداً

لكبح عواطفه وانفعالاته، مركّزاً فقط على منطقة العملية، حتّى من دون أن يفكّر أنّ إيلينا هي من يُجري لها العملية الجراحية. لأنّه كان يعلم لو أنّه فكّر في وجهها وتصوّره ستبدأ يده بالارتعاش وسيكون هناك خطر أن تُشوَّش رؤيته.

سارت العملية بهدوء إلى أن دخل ميتشل من جديد إلى غرفة العمليات مصحوباً برئيس قسمٍ. لاحَظا مخالفة النظام المعمول به لكنّهما لم يحاولا إيقاف العمليّة التي كانت في كلّ الأحوال تشارف على نهايتها. حينما بدت أولى ارتعاشاته، التفت إليوت، البالغ ستين عاماً، نحو شخصه الآخر الأصغر سنّاً وعرض عليه:

- سوف أدعك تُغلق الجرح.

خلع صدريته وقلنسوته الورقية ونزع القفازين الملطّخين بالدم ونظر إلى يديه: لقد تحمّلتا الصدمة من دون ارتعاش لوقتٍ أطول ممّا توقّعه.

- شكراً.

لفظ كلمةَ الشكر هذه من دون أن يعلم هو نفسه لمن يوجّه شكره.

كانت هذه آخر عملية جراحية يُجريها. وكانت أيضاً الأكثر أهمية في حياته.

في لحظة اختفائه، تحت أنظار المحيطين به المحملقين بذهول، قال في نفسه بأنّه قد أنجز مهمته.

من الآن فصاعداً، لن يعود يخاف الموت.

20

اللقاء الأخير

في العشرين من العمر، نرقص في وسط العالم. في الثلاثين، ندور في الحلقة. في الخمسين، نسير على محيطها، متجنبين النظر إلى خارجها كما إلى داخلها. لاحقاً، لا أهمية لهذا، امتياز الأطفال والشيوخ، لا أحد يرانا.

كريستيان بوبان

سان فرانسيسكو، 2006

إليوت في سنّ الستين

لمّا فتح إليوت عينيه، كان مستلقياً على البلاط البارد لأرضية مكتبه، مُلقى في بركة صغيرة من الدماء. وقف على قدميه بصعوبة ورفع يده إلى أنفه الذي كان ينزف مثل نافورة. مرّة أخرى، كانت أوعيته الدموية قد دفعت ضريبتها لقاء السفر عبر الزمن وكان بحاجة إلى الكثير من القطن الطبي لاحتواء النزيف.

بينما بدأت الشمس بالشروق، ألحّ سؤالٌ عليه: هل نجح في إنقاذ إيلينا؟

جلس أمام حاسوبه لكي يراجع الحوليات على الشبكة. في الليلة الماضية، ظلّ بحثه عن اسم إيلينا كروز بلا جواب. قام إليوت بمحاولة جديدة شملت كلّ كاليفورنيا. هذه المرّة، أدّى البحث إلى بعض النتائج: عنوانٌ في ويفرفيل، وهي قرية في شمال الولاية.

أهو عنوانٌ زائف؟ أهي فرحة زائفة؟

لم يكُن هناك سوى وسيلة واحدة لمعرفة ذلك.

غادر مكتبه ونزل إلى البهو وبعد توقّف قصير أمام آلة تقديم القهوة، ذهب إلى سيارته المركونة في المرأب. إذا سار بسرعة، سيكون في ويفرفيل في أقلّ من ستّ ساعات. كانت سيارته السلحفاة متعَبَة مثله ولكنّه كان يأمل في أن تتحمّل العبء لمزيدٍ من الوقت...

سلك الطريق منذ الصباح الباكر. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، لكنّ الأمطار الغزيرة التي هطلت في الليلة السابقة بدت وكأنّها قد أضفَت على السماء لوناً أزرق معدنياً.

خرج من سان فرانسيسكو عبر الطريق السريع 101، وهو يلتهم سريعاً أوّل متَي كيلومتر من الطريق.

بعد أن تجاوز بلدة ليغيت بقليل، غادر الأوتوستراد ليسلك الطريق ذا المناظر الخلّابة المتعرّج حتى مدينة فيرندالي ملتفاً على خليج ميندوسينو.

كان الطريق، مضروباً بأمواج المحيط الهادئ، يحاذي الشاطئ لأقرب مسافة ويطلّ على المنحدرات الوعرة التي تغوص في البحر. ظلّ إليوت يسير بمحاذاة الشاطئ إلى أن وصل إلى مدينة أركاتا لكي يسلك الطريق السريع 299، الطريق الوحيد السالك الذي يعبر الجبال من الشرق إلى الغرب. كان للمكان جانبٌ موحش بغاباته

ذات أشجار السيكويا العملاقة، ومساحاته الشاسعة المحمية وأشجار التنوب الفضية اللون.

كان يسير منذ أكثر من خمس ساعات حينما وصل إلى ويفرفيل التي لم تكن سوى قرية معزولة وسط الجبال. ركَنَ سيارته السلحفاة في الشارع الرئيس ودخل إلى متجر القرية ليطلب عنوان إيلينا كروز. دلّوه على طريقٍ زراعيٍّ قديم في مخرج القرية قرّر أن يسلكه سيراً على الأقدام. بعد أن سار لقرابة عشرين دقيقة، لمح بيتاً صغيراً من الخشب بُنِيَ على قارعة الطريق. سمع ضجيج شلال يجري بجواره. توقّف إليوت فوراً واختبأ خلف شجرة سيكويا ناجية من حملات قطع الأشجار التي تُشنُّ منذ قرن من الزمن. احتمى بيديه من الصدى وقلّص عينيه. كانت امرأة تجلس تحت مظلّة البيت الريفي، قبالة الجبال المغطاة بالثلوج.

في فترة ما بعد الظهيرة تلك، لم يَرَها إليوت إلّا من الخلف، ولكنّه لم يشكّ للحظة في أنّها هي.

كانا قد انفصلا منذ ثلاثين عاماً. والآن لا ينفصلان عن بعضهما سوى لمسافة ثلاثين متراً.

لبرهة قصيرة، أقنَعَ نفسه بأنّه قطع كل هذه المسافة ليروي لها كلّ شيء ويضمّها بين ذراعيه ويشمّ مرّة أخرى رائحة شعرها.

لكنّ الأوان كان قد فات. لقد أوهَنَته رحلاته الأخيرة عبر الزمن كثيراً وبات يعلم أكثر من أيّ وقتٍ مضى أنّ حياته قد أصبحت وراءه وأنّه قد خسر المعركة في مواجهة المرض الذي ينهشه.

وبالتالي، جلس مستنداً إلى جذع تلك الشجرة المعمّرة واكتفى بالنظر إليها.

كان الهواء لطيفاً وأحسّ أخيراً في هذا المكان المعزول والهادئ بأنّه قد تحرّر من عبء الزمن والحزن.

للمرّة الأولى في حياته، أحسّ بسلامٍ داخلي.

* * *

سان فرانسيسكو، 1976

التاسعة صباحاً

إليوت في سنّ الثلاثين

كان قد مضى يومان على عملية إيلينا.

استفاقت المرأة الشابّة من الغيبوبة، لكنّها لم تكن قد تجاوزت مرحلة الخطر ونجاتها لم يكُن مؤكّداً.

أصبحت الملابسات التي جرت فيها العملية الجراحية مَثار الحديث في المستشفى وسط الشكوك وعدم التصديق. خلال بضع ساعات، تباحث المسؤولون وتناقشوا حول الموقف الذي يجب اتّخاذه. هل كان عليهم أن يبلّغوا الشرطة بالحادث مجازفين بتعريض هيبة ومكانة مستشفى ليوكس للخطر؟ كان مدير المستشفى ورئيس قسم الجراحة حريصين جداً على سمعتهما بما لا يسمح لهما أن يوقّعا على تقريرٍ يذكر أنّ «رجلاً قادماً من العدم» قد أجرى العملية ومن ثمّ «تلاشى وسط غرفة العمليات». ولذلك اكتفيا باتّخاذ عقوبة بحقّ إليوت وسامانثا تمثّلت بإيقافهما عن العمل لمدّة شهرين.

كان الجرّاح الشابّ قد أُبلِغ بقرار تسريحه ويتهيّأ للخروج من المستشفى حينما نادته ممرِّضة. قالت له وهي تناوله سمّاعة هاتفٍ جداري:

- مكالمةٌ لك، يا دكتور.

- مرحباً؟

جاءه صوت شخصه الآخر:

- أنتظرك قبالة المستشفى. تعال قابلني.

- قبالة المستشفى؟

- في مطعم هاري. لقد طلبتُ لك وجبةً.

دون أن يتكفّل عناء الردّ، أغلق إليوت السمّاعة وعبر الشارع.

كانت الرؤية غير واضحة إذ كانت سحبٌ من الضباب تمتدّ وتموج في الهواء مغلّفة المصابيح والسيارات في حركتها ككتلة واحدة.

كان هاريز داينر مطعماً في عربة معدنية طويلة مُقامة قبالة قسم الإسعاف في المستشفى. كان طرازه النموذجي لسنوات الخمسينيات يمنحه طابعاً رجعياً. دفع إليوت الباب ووجد زملاءه من الأطباء والممرّضات الذين يتناولون وجبة غداء سريعة قبل أن يعودوا إلى الخدمة في أقسامهم.

في نهاية القاعة المليئة بالدخان، لمح شخصه الآخر جالساً إلى طاولةٍ أمام كوبٍ من القهوة.

سأل وهو يجلس على مقعدٍ مفروشٍ بالفرو:

- ماذا لديك؟

- لقد نجتْ!

- هل ستكون إيلينا على قيد الحياة، في المستقبل؟

هزّ الطبيب العجوز رأسه في إشارة على الردّ بالإيجاب.

للحظة لم يصدّق إليوت الخبر ثمّ سأل:

- وهل هناك عقابيل؟

لكنّ شخصه الآخر التفّ على السؤال وتحاشى الردّ عليه.

- اسمع أيّها الصبي، إنّها على قيد الحياة. لقد أنقذناها...

قرّر إليوت أن يصدّق هذه المعلومة، وظلّ الرجلان يقفان وجهاً لوجه في صمتٍ استمرّ لعدّة دقائق، متّحدين في نوعٍ من التأمّل.

كانت لكلّ منهما ملامح متعَبَة وعينان منهكتان. كانا منهكَين بسبب قلّة النوم والتوتّر المتراكم خلال الأيام الأخيرة حيث زجّا بكلّ قواهما في معركة غريبة ضدّ القدر والتي بدا أنّهما قد خرجا منها منتصرَين.

كان إليوت أوّل من كسر الإيقاع بدموع التعب التي لم يعرف هو نفسه إنْ كانت تريحه أم تُغرقه أكثر في الحيرة والقلق. فرك عينيه وأدار نظره نحو الواجهة الزجاجية. في الخارج، كان الضباب يمتدّ في أمواجٍ مائلةٍ إلى البياض ويُغطّي الأرصفة وصنابير إطفاء الحرائق.

- ستكون بخير، أيّها الصبي...

- كلّا، سوف لن أكون بخير! لقد خسرتُ كلّ الذين أحببتهم: مات! إيلينا! وكل هذا بسببكَ أنت!

- ربّما، ولكن هكذا هي الأمور. عليك أن تلتزم بتعهّداتك، كما التزمتُ أنا بتعهداتي...

- بالنسبة لك، من السهل أن تقول هذا!

- لقد سبق وأن تناقشنا في هذا الأمر! اسمَعْ، لا أعلم بأيّ معجزةٍ استطعنا أن ننقذ إيلينا، وبالتالي، لا تُفسِد كلّ شيء. عِشْ حياتك كما وعدتَ أن تعيشها، لأنّه ثمّة أمرٌ أنا متأكّدٌ منه، وهو أنّ المعجزات لا تتكرّر مرّتين.

- سيكون من الصعب جدّاً أن أتحمّل هذا...

قال إليوت مؤيّداً:

- ستكون السنوات المقبلة صعبة. بعد ذلك، سيسير كلّ شيء

على ما يُرام. أنت قادرٌ على تحمّل هذا، ولكنّك ستفعل ذلك لوحدك.

نظر إليه إليوت وهو يُقطّب جبينه.

قال الآخر شارحاً موقفه:

- هذه آخر مرّة نتقابل فيها، أيّها الصبي.

هزّ إليوت كتفيه.

- تقول هذا كلّ مرّة.

- هذه المرّة، ما أقوله حقيقة. لن أستطيع العودة، حتى إن أردتُ ذلك.

روى له في بضع كلمات قصّة الأقراص: الظروف التي رافقت حصوله عليها والأثر غير المنتظر الذي تركته عليه والتي أتاحت له عملية الذهاب والإياب هذه عبر الزمن...

لم يكن قد أنهى حكايته بعد وكان إليوت يتحرّق شوقاً لطرح ألف سؤالٍ عليه، لكنّ الآخر كان قد نهض من مكانه ليغادر الصالة. أدرك الجرّاح الشاب أنّه سوف لن يعرف المزيد عن الموضوع وأنّه بالفعل ستكون هذه آخر مرّة يلتقيان فيها.

بينما كان لا يزال واقفاً أمامه لبضع ثوانٍ إضافية، أحسّ أنّ شعوراً قد انتابه لم يكن قد توقّعه. قبل ليلتين، في أثناء عملية إيليا، كان الآخر قد أذهله ببراعته وقدرته على اتّخاذ القرارات الصائبة. الآن، يشعر بالحسرة لأنّه لم يحظَ بالمزيد من الوقت لكي يعرفه على نحوٍ أفضل.

أخذ الطبيب العجوز وقته لكي يزرّر معطفه. أحسّ بأنّه يرحل، ولكن من خلال الخبرة التي اكتسبها، كان يعلم بأنّه لا تزال أمامه دقيقة أو دقيقتان من الوقت.

- لديّ رغبة شديدة في أن أتحاشى الاختفاء بخفّة وسط هذا المقهى...

- في الواقع، من شأن هذا أن يوقِعَني في بعض المتاعب.

في لحظة الاستئذان، وضع إليوت ذو الستين عاماً يده على كتف إليوت ذي الثلاثين عاماً قبل أن يبتعد.

كان قد بلغ الباب تقريباً حينما التفت للمرّة الأخيرة لكي يرسل إيماءةً من رأسه لشخصه الآخر. التقت نظرتاهما وميّز في عيني إليوت الأصغر ما سبق له ولاحظه في عيون بعض المرضى: حزن الذين لم يبرؤوا أبداً من طفولتهم.

بدل أن يخرج من المطعم، عاد على أعقابه. كان لا يزال هناك ما يقوله لشخصه الآخر: جملة انتظرها هو بنفسه لسنوات، لكنّ لا أحد تحمّل عناء إلقائها على مسامعه. جملةٌ بسيطةٌ للغاية، لكنّها استغرقت حياةً بأكملها حتى فُهِمت.

- لم يكن خطأك.

في البداية، لم يُدرِك الجرّاح الشابّ إلى ماذا كان يُلمّح شخصه الآخر. لكنّ الآخر كرّر الجملة:

- لم يكُن خطأك.

- ماذا؟

- انتحار أمّك والصفعات التي كنت تتلقاها من والدك...

ترك إليوت ذو الستين عاماً جملته معلّقة حينما أدرك أنّ صوته بدأ يختنق. احتاج إلى أن يستعيد أنفاسه قبل أن يردّد مثل لازمة:

- ... لم يكن خطأك.

كذب إليوت مرتبكاً بسبب هذا الحديث غير المتَظَر:

- أعرف جيّداً.

فأجاب بهدوء:

- كلا، لا تعرف بعد. لا تعرف بعد...

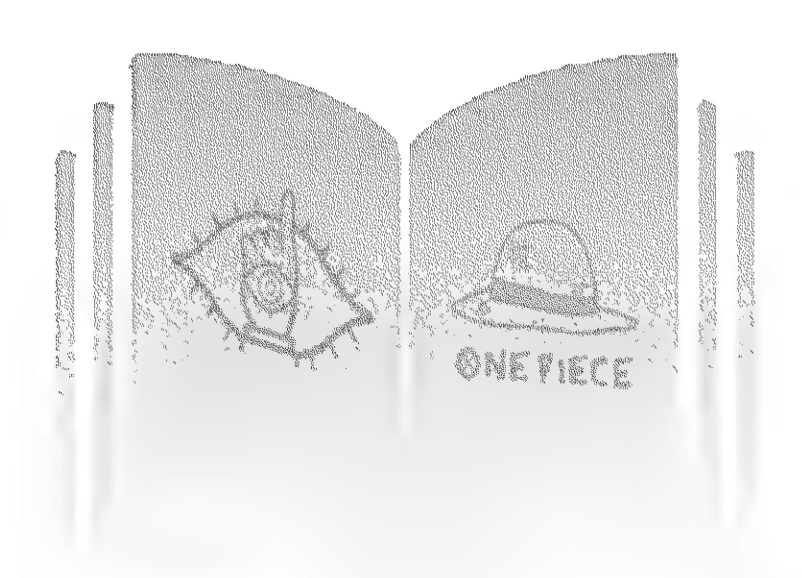
حينذاك، حدث نوعٌ من وحدة الشعور بين الرجلين، حدث اتّفاقٌ تامّ سيستمرّ لرفّة جفن إلى أن أُثير الأكبر سنّاً بالارتعاش الذي يزفّ ساعة عودته إلى المستقبل.

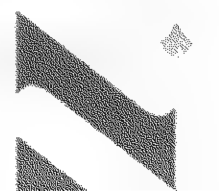
هتف وهو يبتعد بخطواتٍ سريعة:

- وداعاً أيّها الصبي! الكرة في ملعبك الآن!

عاد إليوت وجلس على المقعد. نظر من خلال الواجهة الزجاجية إلى شخصه الآخر يتوارى وسط الضباب.

ولم يعُد يراه أبداً.





21

العيش من دونك...

ستكون الحياة قد مرّت مثل قلعة
حزينة تعبرها كلّ الرياح.
لويس أراغون

1977

إليوت في سنّ الحادية والثلاثين

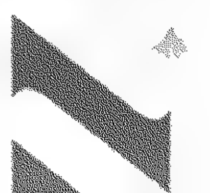
ذات ليلة صيفية في سان فرانسيسكو، دخّن إليوت، زائغ العينين، سيجارة على سطح المستشفى. كانت المدينة تميد من تحت قدميه، لكنّه لم يُعرها أيّ اهتمام. لم يُقابل إيلينا منذ انتقالها إلى ميامي وكان ذلك يُرهقه ويوصله إلى شفا الموت.

أثارت زوبعة قليلاً من الغبار. نظر الجرّاح الشابّ إلى ساعة يده ثمّ سحق عقب سيجارته. كانت لديه عملية جراحية بعد خمس دقائق وكانت تلك سادس عملية يُجريها في ذلك اليوم.

العيش مثل شبحٍ والثمالةُ بالعمل والقبول بكلّ المناوبات... لكي لا يستسلم للموت.

* * *

فتحت إيلينا عينيها بينما كانت الشمس تشرقُ فوق ميامي.



كانت ستّة أشهرٍ قد مضت وهي مستلقية على سريرٍ في المستشفى، جسمها محطّم وساقاها ممزّقتان إرباً إرباً. كانت قد خضعت لأربع عمليات جراحية ولم تنتهِ منها بعد، وكان وضعها النفسي أكثر سوءاً حيث يعمّ الفوضى والصخب دماغها وتشعر أن بهائم تصرخ وأبواباً تُصفق في رأسها. تتكلّم قليلاً وترفض كلّ الزيارات: زيارات مات وزيارات زملائها في العمل...

أحسّت أنّها ضعيفة وعاجزة.

كيف الخلاص من الألم والعار؟

* * *

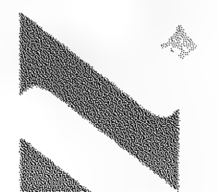
سار مات بأقصى سرعة على الأوتوستراد المؤدي إلى سياتل، وسقف السيارة مفتوح. كانت القطيعة القاسية مع إليوت قد خرّبت حياته. هو الآخر فَقَد ملامحه وكلّ ما كان يؤمن به. أحسّ أنّه وحيد وبائس، ففكّر في تيفاني، تلك الفتاة المدهشة التي ارتكب حماقة بتركها ترحل. إنّه، الآن، على استعدادٍ لفعل أيّ شيء لكي يستردّها. منذ ستّة أشهر وهو، في كلّ عطلة نهاية الأسبوع، يجول بلا كللٍ ولا مللٍ في أركان البلاد الأربعة، لم يكن في حوزته من دلائل سوى اسم ورقم هاتف ألغي منذ زمنٍ طويل.

لماذا هي؟ لم يطرح حتى السؤال على نفسه. بالمقابل، كان متأكّداً من أمرٍ واحد: عليه أن يعثر من جديد على هذه المرأة، لأنّه كان يشعر بأنّها ستكون الجسر الثابت لحياته وملاذه الآمن.

1978

إيلينا في سنّ الثانية والثلاثين

في شهر يناير، في مركز لإعادة التأهيل في فلوريدا. يرتفع صوت موسيقى ليليات شوبان.



للمرّة الأولى خلال قرنٍ من الزمن، يتساقط الثلج على ميامي. كانت امرأة شابّة على كرسيٍّ متحرك تُراقب عبر زجاج النافذة الندائف البيضاء والخفيفة التي تتراقص في السماء.

قالت إيلينا في نفسها بحسرة: **لو أنني فقط أستطيع أن أموت...**

* * *

في نهاية أغسطس، في بلدة تائهة في ناحية من نواحي تكساس، تنظر نادلة الحانة إلى انعكاس صورتها في المرآة.

قبل ثلاثة أيام، احتفلت بعيد ميلادها الخامس والثلاثين. قالت تيفاني في نفسها: **تتحدّثين عن عيد! الأحرى أنّه مأتم...**

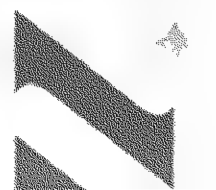
عادت منذ بضعة أسابيع إلى الحظيرة وباتت تمضي أيامها في تقديم أكواب الجعة إلى عامّة الفلاحين الذين يحدّقون بشهوانية في رقبتها وعري صدرها. العودة إلى الخانة الأولى؛ العودة إلى هذه المدينة التي غادرتها في سنّ السابعة عشرة لكي تذهب وتجرّب حظّها في كاليفورنيا. في تلك الفترة، كان الجميع يراها جميلة مثل قمرٍ. كانت تُجيد الغناء والرقص والتمثيل الكوميدي، لكن ذلك لم يكُن كافياً لمنحها التميّز. لا في سان فرانسيسكو ولا في هوليوود.

طالب زبونٌ وهو يهزّ كوب الجعة في يده:

- اجلبي لي واحداً، يا جميلتي!

تنهّدت تيفاني. لقد انتهت أحلامها في العظَمة تماماً.

كانت الحرارة خانقة والنوافذ مفتوحة على مصراعيها وغالباً ما كان يُسمَع صرير عجلات السيارة أمام الحانة، ثم، بعد ثوانٍ، يدخل زبونٌ جديد.



في البداية، لم تصدّق عينيها ثمّ كان عليها أن تعترف «أنّه هو بالفعل».

لم تكن قد نسيته وغالباً ما ندمت على تركها له حتى قبل أن تبدأ حكايتهما. ألقى نظرة سريعة على الصالة وشعّت عيناه.

أدركت حينها أنّه قد جاء من أجلها وأنّ الحياة تقدّم لنا أحياناً هدايا بعدما لا نعود ننتظرها.

اقترب مات، خجلاً بعض الشيء:

- بحثتُ عنكِ في كلّ مكان.

وأجابت تيفاني:

- خذني معك.

1979

إليوت في سنّ الثالثة والثلاثين

إنّه الخريف. بينما كان إليوت يقضي بضعة أيامٍ من العطلة في صقلية، ضربت سلسلة من الهزّات الأرضية جنوب إيطاليا. بطريقة شبه طبيعية، تطوّع لتقديم يد العون لفرق الإنقاذ وأرسل للانضمام إلى فريقٍ للصليب الأحمر في سانتا سيينا، وهي بلدة صغيرة على سفح الجبل. وستكون هذه الحادثة بداية تعاونٍ طويل الأمد مع المنظمة غير الحكومية، لكنّه لم يكن يعرف هذا الأمر بعد. في القرية القديمة، كان انزلاق التربة قد جرف كلّ شيء في طريقه: المنازل والسيارات...

كان المنقذون، تحت مطرٍ عاصف، يفعلون كلّ ما في وسعهم للبحث بين الأنقاض. عثروا على ما يُقارب مئة جثّة ولكن أيضاً وجدوا العديد من الأحياء المحاصَرين تحت الأنقاض.

كان المساء قد حلّ تقريباً حينما سمعوا أنين طفلٍ في السادسة من عمره محاصراً في قاعِ بئرٍ. أنزلوا مصباحاً مربوطاً بحبل. كانت الحفرة عميقة وكان البئر المنهار جزئياً على وشك أن يتداعى بالكامل. كان الطفل غارقاً في الطين حتى صدره وكان منسوب المياه يرتفع باستمرار. حاولوا رفعه بواسطة الحبل ولكنّ الطفل كان عاجزاً عن الإمساك به.

جازف إليوت في تهوّرٍ شديد، فربط نفسه بالحبل ونزل إلى قاع البئر.

لم يكُن له أيّ فضلٍ في ذلك فهو يعلم بأنّه سوف لن يموت اليوم. كان يعرف عن مستقبله بما يكفي ليعلم أنّه سوف يعيش على الأقلّ حتى سنّ الستين.

لسبعة وعشرين عاماً أخرى، سيبقى «حيّاً»...

1980

إيلينا في سنّ الرابعة والثلاثين

إنّه الشتاء - شاطئٌ مهجورٌ تكنسه الريح.

سارت إيلينا، مستندةً إلى عكّاز، لبضعة أمتارٍ قبل أن تستسلم للسقوط على الرمال المبلّلة.

قال لها الأطبّاء بأنها لا تزال شابّة وأنّها تمتلك إرادة حديدية وأنّه سيأتي يوم تمشي فيه على قدميها من جديد وبشكلٍ شبه طبيعي. في انتظار ذلك، كانت تلتهم عبثاً مسكّنات الألم، إذ لم تكن تؤثّر فيها بشيء، فالألم لا يزال منتشراً في كلّ أنحاء جسمها ورأسها وروحها.

* * *

8 ديسمبر -مستشفى لينوكس- قاعة استراحة الموظفين الطبيين.

كان إليوت، مسترخياً في أريكة ومغمض العينين، يرتاح بين عمليتين جراحيتين. كانت نقاشات زملائه تطنّ في أذنيه: مع أو ضدّ ريغان؟ مَنْ، في مسلسل دالاس، أطلق النار على جي آر؟ مَن استمع إلى آخر ألبوم للمغني ستيفي وندر؟

شغّل أحدهم التلفاز وبُثّ فجأةً الخبر الآتي:

«اغتيل جون لينون، هذه الليلة في نيويورك، أمام مبنى داكوتا من قبل شخصٍ مختلّ يُدعى مارك شابمان. وعلى الرغم من سرعة تقديم الإسعافات، إلّا أنّ أطباء مستشفى روزفلت لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً لإنقاذ العضو السابق في فرقة البيتلز».

1981

إنّه يومٌ مشمس في نابا فالي.

كان مات وتيفاني يتنزّهان يداً بيد بين كروم العنب. منذ ثلاثة أعوام، كان بينهما تفاهم تامّ وانسجامٌ ممتاز وسعادة كما في الأحلام..

هل هناك الكثير من الأشخاص على الأرض يمكننا أن نعيش معهم سعداء؟ هل يمكن لحبٍّ أن يستمر مدى الحياة؟

1982

الساعة الثانية فجراً، في غرفة شقّة صغيرة في حي لوور هايت.

انسلّ إليوت إلى خارج السرير محاولاً ألّا يوقظ المرأة النائمة إلى جانبه والتي التقى بها قبل بضع ساعات في إحدى حانات مركز المدينة. التقط سرواله الداخلي وسرواله الجينز وقميصه ثمّ ارتدى

ثيابه بصمت. بينما كان على وشك أن يتوارى عن الأنظار، ناداه صوتٌ:

- هل تنصرف؟

- نعم، ولكن ابقي في السرير. سأغلق الباب ورائي.

همهمت الفتاة وهي تختفي تحت الغطاء:

- في الواقع، اسمي ليزا!

- أعرف.

- إذاً، لماذا ناديتني إيلينا؟

1983

مات وتيفاني متعانقين، ممدّين على السرير، بعد ممارسة الحبّ.

سالت دمعة على خدّ المرأة الشابّة. منذ خمس سنوات، يحاولان من دون جدوى أن يُنجِبا طفلاً.

لقد بلغت الأربعين من عمرها.

1984

مرّت الأيام والأسابيع والسنوات...

بالنسبة إلى إيلينا، أصبح للحياة معنى من جديد.

مشت مجدّداً. صحيحٌ أنّها مشت عرَجاً مجرجرةً قدميها، ولكنّها استطاعت على الأقل أن تمشي من جديد.

من المستحيل أن تعود إلى مهنتها السابقة، لكنّها تغلّبت على المشكلة. فقد درّست، مفعمةً بالطاقة والحيوية، علم الأحياء البحري في جامعة ستانفورد وغدت واحدةً من قيادات منظّمة السلام

الأخضر، وقامت بدورٍ نشطٍ في الحملات الجديدة المناهضة لإغراق النفايات المشعّة في البحر وساهمت في تأسيس أولى المكاتب الأوروبية للمنظّمة في باريس ولندن.

* * *

إنّه فصل الصيف في سان فرانسيسكو.

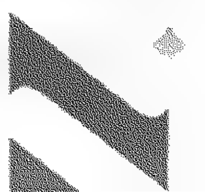
أضاء خيطٌ من الشمس بهو المستشفى. أخذ إليوت علبة كوكا من الموزّع الإلكتروني وجلس على إحدى الأرائك ونظر من حوله.

كان التلفاز موصولاً بقناة جديدة تُدعى MTV. على الشاشة، كانت تُبثّ أغنية *Like a virgin*، تُغنيها مغنّية شابّة تمشي بشهوانية على الأرض وتؤدّي سلسلة من الحركات المتعاقبة التي تكشف كلّ ملابسها الداخلية: إنّها بداية ظاهرة مادونا.

كان المستشفى هادئاً على نحوٍ مدهش. على طاولةٍ صغيرة، كان أحدهم قد نسي مكعّب روبيك. أمسك إليوت به وفي بضع حركات استطاع أن يرتّب الألوان الصلبة على كلّ واحدٍ من الأوجه الستّة.

ككلّ الناس، له أيامٌ سعيدة وأخرى سيئة. كان هذا اليوم أحد أيامه السعيدة. من دون أن يعلم لماذا، أحسّ بأنّه في حالة صفاء وهدوء. لكن في أوقاتٍ أخرى، كان الوضع أصعب. كانت وحدته تمتزج بالتعب لتنحدر به إلى هاوية الحزن والإحباط. ومن ثمّ، أوصلت سيارة الإسعاف جريحاً جديداً إلى المستشفى. وسرعان ما احتاجوا إلى جهوده، إذ عليه أن يُجري عملية جراحية للمُصاب! وفي لحظةٍ، استعادت الحياة معناها.

هذه المهنة نعمةٌ.



1985

فيرونا، في بداية فصل الربيع.

منذ يومين، يوجد إليوت في إيطاليا لحضور مؤتمرٍ حول الجراحة. إذا ما تذكّر جيّداً ما رواه شخصه الآخر له، هذا هو اليوم الذي يجب أن يلتقي فيه أمّ ابنته.

كان، جالساً على شرفة مطعمٍ صغيرٍ، ينظر إلى الشمس التي تغيب على ساحة بيازا برا الرئيسة في وسط المدينة. كانت أشعّة برتقالية اللون تداعب أعالي مدرج آرينا الروماني الرائع المطلّ على الساحة.

– تفضّل، يا سيّدي...

... انحنى النادل وهو يضع أمامه كأساً من المارتيني تسبح فيه حبّتا زيتون.

شرب إليوت الكوكتيل من دون أن ينجح في تهدئة نفسه. ما الذي من المفترض أن يفعله بالضبط؟ هو يعلم أنّه على موعدٍ مع قدره، لكنّه يخشى المرور بجانب الحدث. عادت إلى ذاكرته أقوال شخصه الآخر مراراً وتكراراً. كانت كلماته تعود إلى عشرة أعوامٍ خلت، لكنّه لم ينسها قط: «في 6 أبريل 1985، خلال مؤتمرٍ خاصٍّ بالجراحة في فيرونا، سوف تلتقي امرأة ستُبدي اهتماماً بك. سوف تستجيب لمبادراتها وسوف تقضيان معاً عطلة نهاية أسبوعٍ وستكون ابنتنا ثمرة ذلك اللقاء».

بدا كلّ هذا بسيطاً باستثناء أنّ 6 أبريل هو هذا اليوم وقد بلغت الساعة السابعة مساءً وهو لا يزال ينتظر أن تأتي فاتنة إيطالية وتغازله.

– هذا المكان شاغر؟

رفع رأسه، مدهوشاً، لأنّ هذه الجُملة لُفِظَتْ باللغة الإنجليزية وبلكنة نيويوركية. وقفت أمامه امرأة شابّة ترتدي فستاناً ورديّ اللون فاتحاً. ربّما تكون قد لاحظت نسخة **إنترناشيونال هيرالد تريبيون** الموضوعة أمام الجرّاح... على أيّ حال، بدت سعيدة بإيجاد مواطنٍ من بلدها.

هزّ إليوت رأسه ودعاها للجلوس. عرف أنّ اسمها باميلا وتعمل لصالح سلسلة فنادق مهمّة وهي في فيرونا لقضاء بعض الأعمال.

تساءل وقد استبدّ به القلق فجأةً: **أهذه هي؟ من الطبيعي أنّها هي، فكلّ شيء يتطابق مع ما قيل.** مهما يكن، لم يحدّد شخصه الآخر أبداً أنّها ستكون إيطالية... كان يتأمّل تفاصيلها بينما كانت تطلب لنفسها كأساً من نبيذ فالبوليتشيلا. كان جمالها جمال أعوام الثمانينيات، فهي طويلة القامة، منحوتة القوام، لها شعرٌ أشقر فاقع ولها هيئة مديرة تنفيذية.

حينما قُدِّمت لهما المقبّلات، كانا قد تجاوزا مرحلة التعارف وانصبّ الحديث على «أبطال» أميركا الجديدة: ريغان، مايكل جاكسون، سبيلبرغ، كارل لويس... تحدّث إليوت من دون تركيز. أخذ دوره في الحوار، لكنّ تفكيره كان مشغولاً في مكانٍ آخر.

هذا غريب، على أيّ حال، لم أتصوّرها هكذا...

لم يستطِعْ التصديق أنّ هذه المرأة ستصبح أمّ ابنته! من الصعب شرح السبب. ظاهرياً، لم يكن لديها أي خلل. إلّا أنّ حديثها كان غبيّاً وملاحظاتها كانت سطحية وهي جمهورية وحضورها باهت وليست لديها تلك المسحة الصغيرة في عينيها، تلك اللمعة الإضافية التي تُسمى السحر.

نعم، هذا هو: لو لم يلتقِ شخصه الآخر، لما علِم أنّ هذه المغازلة ستنتهي بولادة طفلٍ!

ومع ذلك من الغريب أن أنقاد وراء هراء هذه المرأة. . .

بالطبع، بعد بضع ساعات من الثرثرة التافهة، كان هناك احتمال ليلة من الجنس، لكن هنا أيضاً، رغم مفاتن باميلا التي لا نقاش فيها، قال إليوت في نفسه إنّه ليس بالضرورة أن يكون ذلك ممتعاً.

تتالت أطباق الوجبة بحسب خصوصيات المطعم: باستا إي فاسوي، ريزوتو آلماروني، تورنودو أو تاليفيو، وكان بين الطبق والطبق تُقدّم كؤوسٌ من شراب باردولينو.

كانت المصابيح تُنير في الساحة قصر باربيري، مقرّ فندق المدينة وكذلك الرصيف الواسع المبلّط الذي، على الرغم من الوقت المتأخر، كانت حشودٌ من سكّان فيرونا لا تزال تتجوّل فيه.

طلب فاتورة الحساب، ولكنّ لأنّ النادل تأخّر في إحضارها، قرّر أن ينهض من الطاولة ليدفع الحساب مباشرة على طاولة المحاسبة في المطعم. بينما كان صاحب المطعم يعدّ له الفاتورة، أخرج إليوت سيجارة مارلبورو من جيبه ورفعها إلى شفتيه. في اللحظة التي همّ فيها بإشعال ولاّعته، اشتعل لهبٌ في عقب سيجارته.

- مداخلتك هذا الصباح كانت لا بأس بها، يا دكتور.

رفع عينيه نحو محدّثته: امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، جالسة على كرسيّ عالٍ بلا مساند أمام كأسٍ من النبيذ الأبيض.

- هل كنتِ في المؤتمر؟

عرفّته بنفسها وهي تمدّ له يدها:

- جيوليا باتيستيني. أنا طبيبة جرّاحة في ميلانو.

كان لها عينان خضراوان وشعر أصهب غريب لا يمتُّ بصِلَة إلى النموذج الإيطالي.

التقت نظرة جيوليا بنظرته ولاحظ في عينيها البريق الخفيف الذي بحث عبثاً عنه عند باميلا: السحر.

بشعورٍ من الارتياح، أدرك أنّ هذه هي التي ستصبح أمّ ابنته وليست المرأة الأخرى!

بدأت جيوليا:

- وددتُ كثيراً أن أتناقش معك أكثر، ولكن...

- ولكن ماذا؟

أشارت إلى الرصيف بنظرة سريعة وقالت:

- أعتقد أنّ صديقتك تنتظرك...

- أعتقد أنّها ليست صديقتي.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها، علامةُ الانتصار المتواضع لامرأة كانت مستعدّة لأن تقاتل أكثر:

- في هذه الحالة...

1986

إليوت في سنّ الأربعين

سان فرانسيسكو، الساعة الخامسة صباحاً. مكالمة هاتفية واردة من أوروبا ضاربة عرض الحائط كلّ قواعد الفرق في التوقيت. لكنة إيطالية نسائية لتُخبره بما يعرفه مسبقاً.

استقلّ إليوت الطائرة إلى ميلانو، وقفز إلى سيارة أجرة باتجاه الفندق، وصعد إلى الطابق الرابع مشياً على القدمين ودقّ باب الغرفة

466: مرحباً يا جيوليا، مرحباً يا رفيق جيوليا الجديد، مرحباً يا دكتور، مرحباً يا ممرّضة.

اقترب أخيراً من المهد. لقد رأى يوماً أطفالاً في المستشفى، ولكنّ الأمر هنا مختلف. إنّها طفلته. في البداية، خاف من ألّا يشعر بشيء نحوها، ثمّ فتحت عينيها ونظرت إليه وفي رفّة رمش، تعلّق بها مدى الحياة.

في الخارج، كان شهر فبراير، حيث الثلج والبرد وحركة السير وأصوات منبّهات السيارات والشتائم البذيئة والتلوّث البيئي. ولكن داخل هذه الغرفة، كان كلّ شيء عبارة عن دفء وإنسانية.

- أهلاً بكِ يا أنجي...

1987

وعادت الحياة.

في لحظة واحدة، كانت نهاية النفق وانقلبت صفحة وعاد النور الذي لم يعُد منتظراً.

طفلٌ رضيعٌ في البيت وانقلب كلّ شيء رأساً على عقب؛ كان هنالك في كلّ مكانٍ من البيت رضّاعات وحفاضات وحليب للفئة العمرية الثانية.

في الشهر الخامس، ظهر أوّل أسنانها وبعد خمسة أشهر أخرى، خطت أولى خطواتها من دون إسنادها.

بدا كلّ شيءٍ تافهاً ما لم يتعلّق بها.

يوم التاسع عشر من أكتوبر، كان يوم انهيار البورصة، الاثنين الأسود، هبط مؤشّر داو جونز 20%.

وماذا بعد؟

1988

أنجي جائعة! أنجي تريد بسكويتاً! أنجي عطشانة! أنجي تريد كولاكوكا!

* * *

وها قد حلّ عيد الميلاد. تمّ تزيين البيت وتراقصت ألسنة لهبٍ جميلة في المدفأة.

انكبّ إليوت على الغيتار وأخذ يعزف معزوفة شخصية جدّاً لأغنية *With or without you*، وهو الألبوم الأكثر رواجاً حينذاك.

كان راستاكوير، متمدداً على السجّاد، يراقب الجوّ الأسري.

ورقصت أنجي أمام الشموع.

1989

بلغت أنجي ثلاث سنوات. أصبحت تُجيد كتابة اسمها الأوّل بأحرفٍ كبيرة باستخدام قلم تحديدٍ ضخم.

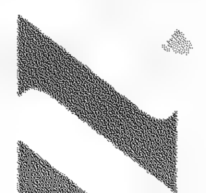
* * *

24 مارس، جنحت ناقلة النفط «إكسون فالديز» في عرض سواحل الاسكا وتسرّبت منها حمولتها البالغة ثلاثة ملايين طنّ من النفط الخام محدِثةً بقعة نفطية سوداء. على قناة سي إن إن، كان هناك ردّ فعلٍ عنيف من قبل منظمة السلام الأخضر على لسان الناطقة الجديدة باسمها: إلينا كروز.

* * *

في شهر أكتوبر، عزف روستروبوفيتش على التشيلو على جدار برلين الذي تمّ هدمه.

كان المحللون السياسيون يحللون على شاشات التلفاز بأنّ هذه



نهاية الحرب الباردة وأنّ الناس من الآن فصاعداً سوف يعيشون سعداء في عالمٍ مليءٍ بالديمقراطية واقتصاد السوق. . .

1990

امتدّت أرتالٌ طويلةٌ من الناس أمام السينما.

في الرتل الأوّل، كان هناك الكثير من العائلات وصرخات الأطفال. كان إليوت وأنجي ينتظران بفارغ الصبر عرض فيلم الرسوم المتحرّكة **الحورية الصغيرة**، الذي كان أحدث إنتاجٍ لشركة والت ديزني في حين كان الواقفون في الرتل المجاور ينتظرون مشاهدة ميغ رايان في فيلمها **عندما التقى هاري بسالي**.

تعبت أنجي قليلاً وسحبت كمّ قميص والدها ليحملها إليوت بين ذراعيه.

صرخ وهو يمسكها بيديه ويرفعها:

- احذري الإقلاع!

بينما كان يرفع ابنته، أدار إليوت رأسه ورأى. . . مات وتيفاني وهما يقفان في رتل الصفّ الآخر.

تبادلٌ للنظرات استغرق نصف ثانية، ولكنّه امتدّ طويلاً كما في التصوير البطيء. أحسّ إليوت بقلبه يتجمّد في صدره. لقد مرّت قرابة خمسة عشر عاماً على القطيعة بين الرجلين. نظرت تيفاني إلى أنجي مع ابتسامة حزينة قبل أن تُدير رأسها. ثمّ دخل كلٌّ من «الثنائيين» إلى صالة مختلفة.

لم يأتِ وقت التبريرات بعد.

ولكن، ذات يوم، ربّما. . .

1991

انهمك إليوت وأنجي في وصفة معقّدة لإعداد الفطائر المحلّاة. أنارت ابتسامة مشرقة وجه الفتاة الصغيرة وظهرت آثار شراب القيقب حول فمها. كانت السهرة في بدايتها وسط جوٍّ لطيفٍ وضوءٍ برتقاليّ جميل يتسرّب عبر زجاج المطبخ.

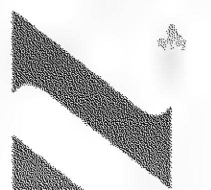
بالقرب من الميكروويف، كان التلفاز شغّالاً ولكن صوته مقطوع. عُرِضت بعض المشاهد من الكويت: عملية عاصفة الصحراء، أوّل تدخّل عسكري من قبل التحالف الدولي ضدّ العراق.

في المذياع، كانت فرقة يو تو تغنّي *Mysterious Ways* وصاحبت أنجي بفعالية المغني بونو في أدائه من خلال النقر بملعقة خشبية.

خلّد إليوت اللحظة بفضل كاميرا الفيديو. كان يحرص على الدوام أن يقضي أطول وقت معها، حتى وإن كان ذلك على حساب مهنته. ظلّ يحبّ مهنته كثيراً، ولكنه رفض التسويات التي يمكن لها أن تسمح له بصعود سلّم الترقيات بسرعة أكبر. تجاوزه آخرون ولم يفعل أيّ شيء للحاق بهم. كان يكفيه أن يكون جرّاحاً ناجحاً في عيون مرضاه لكي يكون راضياً ومرتاحاً.

ومن ثمّ، كانت الأولوية لابنته قبل كلّ شيء آخر. بات الآن يفهم شخصه الآخر وكلّ الجهود التي بذلها في سبيل إنقاذ إيلينا من دون التضحية بأنجي. لكنّ الصفاء والهدوء اللذين كان يشعر بهما حينما ينظر إلى ابنته كانا يصطبغان أحياناً بمسحةٍ من القلق الغامض. علّمته الحياة أنّ لحظات السعادة قد تكلّف ثمناً باهظاً وكان قد أخذ دروساً من ذلك. منذ ستّ سنوات، عادت الحياة لطيفة وعذبة من جديد، ولكنّه كان يعلم أنّ هذا قد يتوقّف في أيّ لحظة.

مشكلة السعادة هي أنّنا نعتاد عليها سريعاً...



1992

في العام السادس، يفقد الطفل أولى أسنانه... ولذلك، كانت أنجي تُنجز وظائفها المدرسية على الطاولة الزجاجية في الصالون مع ابتسامة جميلة بفمٍ أدرد.

دخل إليوت، وهو مستاءٌ على نحوٍ ظاهر، إلى الغرفة ونظر إلى ابنته بقسوة:

– سبق وقلتُ لكِ أن تطفئي التلفاز عندما تعملين على وظائفك المدرسية!

– لماذا؟

– لكي تعملي على نحوٍ أفضل، يجب أن تركّزي.

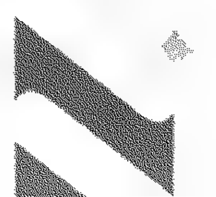
– لكنني أركّز جيّداً!

– لا تتخابثي معي!

أمسك بجهاز التحكّم المخبّأ تحت وسادة واستعدّ لإيقاف التلفاز حينما جمد إصبعه فوق الزرّ.

على الشاشة، كان مراسلٌ يتحدّث من ريو دي جانيرو حيث تنعقد قمّة الأرض الثانية. على مدار بضعة أيام، أرادت القوى العظمى أن تناقش وضع البيئة على كوكب الأرض. كان المراسل يستضيف ممثّلة إحدى المنظمات غير الحكومية. خلال دقائق عديدة، تحدّثت هذه الأخيرة ببراعة وتصميم عن التغيّرات المناخية وتدمير التنوّع الحيوي. كانت ذات عينين خضراوين فيهما مسحة حزنٍ غامضة. في أثناء حديثها، ظهر اسمها على شريطٍ على يمين الشاشة: إيلينا كروز.

– قلْ يا بابا، لماذا تبكي؟



1993

كانت الساعة تقارب السادسة والنصف صباحاً. انسلّ إليوت من السرير قبل أن يرنّ جرس المنبّه. ظهر من تحت الغطاء شعرٌ أسود طويل: شعر مضيفة طيران كان قد التقى بها مساء اليوم السابق في المطار حينما رافق أنجي التي سافرت لقضاء بضعة أيام عند والدتها في إيطاليا.

خرج من غرفته من دون إثارة ضجيج واستحمّ وارتدى ثيابه على عجلٍ، ثمّ انتقل إلى المطبخ، فأمسك بدفتر ملاحظات وتهيّأ لكتابة كلمة صغيرة حينما اكتشف أنّه قد نسي اسم الفتاة. فاكتفى بأن كتب باقتضاب:

لدى مغادرتك، هل يمكنكِ وضع المفاتيح
في صندوق الرسائل؟
شكراً على هذه الليلة.
على أمل اللقاء في يومٍ من الأيام.

كان يعلم أنّ هذا شيءٌ سخيف، لكن هكذا كان حاله. لم تكن علاقاته تتجاوز الأسبوع. كان هذا خياره: يرفض أن يبقى في علاقة ارتباطٍ من دون أن يكون عاشقاً، وإلّا سيكون منافقاً وجباناً. وبطريقة ما، كانت هذه وسيلة وجدها ليبقى وفيّاً لإيليانا.

يتّخذ المرء من التدابير ما يستطيع...

شرب فنجاناً من القهوة على عجلٍ وتناول فطيرة صغيرة وغادر المنزل ليذهب إلى عمله. لدى خروجه، التقط الصحيفة التي تركها موزّع الصحف لتوّه. كانت صورة كبيرة تمتدّ على الصفحة الأولى: المصافحة بين رابين وعرفات تحت العين الساهرة لبيل كليتنون.

1994

بداية السهرة في نهاية فصل الصيف. كانت السماء بنفسجية تشوبها خيوطٌ حمراء. أوقف إليوت سيارته السلحفاة الوفية أمام مارينا غرين. كان قد رتّب أموره بحيث لا يعود متأخّراً كثيراً، لكنه يعلم أنّ تيريزا، المربيّة التي وظّفها للاعتناء بابنته، قد غادرت منذ قرابة ساعة.

صرخ وهو يفتح الباب:

- أنجي! هذا أنا!

بلغ عمرها ثمانية أعوام، ومع ذلك كلّما يغيب عنها، يشعر بالقلق عليها.

- أنجي! هل أنتِ بخير، عزيزتي؟

سمع وقع خطواتها الصغيرة على السلّم، ولكن حينما رفع رأسه، رأى وجهها الجميل غارقاً بالدموع.

سأل وهو يهرع نحوها:

- ماذا حدث، يا صغيرتي؟

ارتمت بين ذراعيه، محطّمة بكلّ حزن العالم.

قالت بين شهقتين:

- إنّه راستاكويرا!

- ماذا فعل؟

- لقد... لقد مات.

ضمّها بين ذراعيه وصعدا معاً إلى الغرفة. كان الكلب العجوز يرقد بالفعل، كما لو أنّه نائمٌ، على سجادته.

سألت الفتاة الصغيرة:

- هل ستعالجه؟

بينما كان إليوت يفحص الكلب، تضاعفت شهقات أنجي وترافقت بالتوسّل إلى أبيها:

- من فضلك! اشفِه، يا بابا! اشفه!

- لقد مات، يا صغيرتي، لم يعُد بوسعنا معالجته.

صاحت وهي تسقط على ركبتيها:

- أتوسّل إليك!

حمَلَها وأخذها إلى غرفتها.

- أنتِ تعلمين أنّه عجوزٌ جدّاً. إنّها لمعجزة أن يعيش هذا العمر الطويل.

لكنّها لم تكن مستعدّة بعد أن تسمع هذا الحديث. كان الحزن لا يزال شديداً جدّاً ولا شيء يستطيع أن يخفّفه.

ارتمَت في سريرها وهي تدفن رأسها في وسادة. أمّا هو، فظلّ جالساً إلى جانبها محاولاً أن يواسيها قدر استطاعته.

غداً، سيكون الحال أفضل.

في اليوم التالي، استقلّا السيارة وسارا لما يقارب ساعة كاملة قبل أن يصلا إلى غابة إنغلوود الصغيرة في شمال سان فرانسيسكو. اختارا زاوية معزولة، ليست بعيدة كثيراً عن شجرة كبيرة، وحفر إليوت حفرة عميقة بمساعدة مجرفة حرص على أن يأخذها معه. في النهاية، وضع جثة اللابرادور في الحفرة وطمرها بالتراب.

سألت الفتاة الصغيرة:

- هل تعتقد أنّ هناك جنّة للكلاب؟

أجاب إليوت وهو يغطّي القبر بأوراق وأغصان الشجر:

- لا أدري. في كلّ الأحوال، إذا كان هناك جنّة، فبالتأكيد سيكون لراستاكوير مكانٌ فيها.

أشارت، صامتةً، برأسها موافقة قبل أن تنهمر دموعها. فقد كان راستاكوير دائماً جزءاً من عالمها.

- لا أستطيع أن أصدّق أنني لن أعود أراه أبداً.

- أعرف يا عزيزتي، من الصعب أن نفقد أحداً نحبّه. ليس هناك ما هو أقسى من ذلك في الحياة.

تأكّد إليوت من أنّ كلّ شيء قد تمّ بحسب الأصول ثمّ اقترح على ابنته:

- يمكنكِ أن تودّعيه، إن أردتِ.

تقدّمت أنجي من القبر وقالت بصوتٍ أجشّ:

- وداعاً، يا راستاكوير. لقد كنتَ كلباً رائعاً...

وافقها إليوت الرأي:

- صحيح. لقد كنتَ الأفضل.

ثمّ عادا إلى السيارة وسلكا طريق المدينة. في طريق العودة، ظلّا صامتين. وبما أنّهما كانا يحتاجان إلى استراحة قصيرة، اقترح إليوت أن يتوقّفا في مقهى ستاربكس.

- هل أقدّم لكِ كوباً من الشوكولاتة الساخنة؟

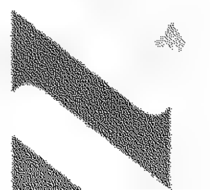
- موافقة. مع كريم شانتيه!

جلسا إلى طاولة وبعد أن لوّثت نصف وجهها بالكريما المخفوقة، سألت أنجي:

- كيف حصلتَ على هذا الكلب؟

- ألم أروِ لكِ القصّة من قبل؟

- كلا.



– حسناً، سوف ترين أننا، هو وأنا، لم نكن في البداية نحبّ بعضنا كثيراً. . .

1995

– بابا، هل سنشاهد فيلم **توي ستوري**؟

ردّ مع حركات ساخرة:

– ما هذا؟

1996

– بابا، هل يمكننا الذهاب لمشاهدة **روميو وجولييت**؟ أنا أحبّ ليوناردو كثيراً!

– هل أنجزتِ وظائفك المدرسية؟

– نعم، أقسم لك!

1997

ما بعد ظهيرة أحد أيام السبت من شهر ديسمبر. للمرّة الأولى، فضّلت أنجي الذهاب إلى السينما مع صديقاتها وليس معه هو.

مثلها مثل الملايين من المراهقات، كانت تتلهّف لمشاهدة دي كابريو وهو يقبّل كيت وينسليت على متن سفينة **تايتانيك**.

أعدّ إليوت، هادئاً، لنفسه فنجاناً من القهوة في المطبخ. كان كلّ شيء على ما يُرام. من أين يأتي إذاً هذا الإحساس العميق بالوحدة؟

صعد إلى الطابق العلوي ودفع باب غرفة أنجي. كانت قد غادرت تاركة الموسيقى شغّالة. في أحشاء جهاز بثّ الأغاني، كانت

فتيات فرقة سبايس غيرلز يصدحن بأغنيتهنّ *Wannabe*. على الجدار، إلى جانب صور شخصيات المسلسل الكرتوني الكوميدي سيمبسونز التي لا تصدأ، كانت هناك الملصقات الدعائية لمسلسلات تلفزيونية لم يكن قد سمع بها أبداً: *Friends*، *Beverly Hills*، *South Park*...

فجأةً، أحسّ بفراغٍ وأدرك أنّ ابنته لم تعد طفلة تماماً. هذا أمرٌ طبيعي، فالأطفال يكبرون. إنّها الحياة.

ولكن لماذا بسرعة كبيرة؟

1998

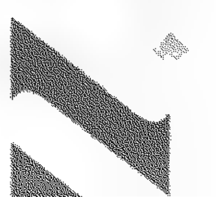
إليوت في سنّ الثانية والخمسين

في صالة الاستراحة في المستشفى، كان التلفاز شغّالاً. على الشاشة، أعلن رجلٌ أنّ الرجال قدموا من المريخ والنساء من الزُهرة. بدت جميع الممرّضات في القاعة موافقات على هذا القول. عبس إليوت. أخذ يشعر، على نحوٍ متزايد، بأنّه لم يعُد يواكب العالم المحيط به. أنهى علبة الكوكا خاصّته وخرج من الصالة. للمرّة الأولى، أحسّ بعبء سنّ «الخمسين». ليس لأنّه يشعر بأنّه عجوز وإنّما لأنّه لم يعُد يشعر بأنّه شاب. ويعلم أنّ الشباب سوف لن يعود.

* * *

إنّها حقبة نجاح مسلسل طوارئ. في المستشفى، كان بعض المرضى يطالبون بأن يُعالَجوا من قبل الدكتور غرين أو الدكتور روس....

* * *



في أحد أيام الخميس من شهر يناير، ظهر بيل كلينتون على التلفاز عابساً، مرغماً على الدفاع عن نفسه:

- لم أقِم علاقات جنسية مع هذه المرأة، الآنسة لوينسكي.

في الوقت نفسه، كان الجليد يُواصل ذوبانه في القطب الشمالي بسبب الاحتباس الحراري.

لكن منْ يهتمّ لذلك حقّاً؟

1999

إنّها نهاية شهر أبريل.

في المستشفى، أطلّ إليوت برأسه من فتحة باب صالة الاستراحة.

كانت فارغة.

فتح باب الثلاجة الصغيرة للموظفين ليأخذ منها قطعة من الفاكهة. كانت ممرّضة قد وضعت لُصاقةً باسمها على تفاحة خضراء. رفع إليوت حاجبيه ونزع اللصاقة وقضم التفاحة بأسنانه الناصعة.

جلس على حافة النافذة ونظر بعينٍ مشوّشة إلى بعض زملائه الذين كانوا يلعبون كرّة السلّة في الباحة. كانت رائحة الربيع تفوح على سان فرانسيسكو والنهار رائعاً: نهارٌ موسومٌ بالحياة، نهارٌ تعاقبت فيه العمليات الجراحية بنجاحٍ ولم تراود المرضى الفكرة السيئة في الموت بين يدي الأطباء.

تردّد في تشغيل التلفاز. لماذا سيجازف بإفساد هذا المزاج الرائق بتلقي جرعته اليومية من الأخبار حول مصائب العالم؟ كان على وشك أن يُقلع عن فكرة تشغيل التلفاز حينما قال في نفسه بأنّ

الأمور قد تكون مختلفة اليوم. خلال هنيهةٍ استسلم للأحلام: الإعلان عن مضادّ لمرض السيدا، السلام النهائي في الشرق الأوسط، خطّة عالمية حقيقية للكفاح ضدّ التلوّث، مضاعفة الميزانية الاتحادية المخصّصة للتعليم...

خابت أحلامه. على شاشة سي إن إن، أعلن موفدٌ خاصّ في بثٍّ مباشر من ثانوية كولومباين في ليتل تاون أنّ اثنين من التلاميذ قد قتلا اثنا عشرة من زملائهما قبل أن يُطلقا النار على نفسيهما.

كان من الأفضل لو أنّه لم يشغّل التلفاز...

2000

– بابا، هل يمكنني أن أضع حَلقة بيرسينغ؟

* * *

– بابا، هل يمكنني أن أمتلك هاتفاً خلوياً؟

* * *

– بابا، هل يمكنني أن أضع وشماً؟

ولكن أيضاً:

جرذٌ من فصيلة العضلان، حاسوب ماكنتوش، آيبود، قميص بلا أكمام من ماركة دكني، سروال جينز من ماركة ديزل، حقيبة من الفراء، حذاء رياضي من ماركة نيو بالانس، سمكة مهرّج، سترة طويلة من ماركة بربري، عطر من ماركة مارك جاكوبز، نظارات من ماركة دولتشي أند غابانا، شانشيلا، حقيبة من ماركة هيلو كيتي، سلاحف مائية، قميص من ماركة هيلفيغر، قميص بلا أكمام من ماركة إيككس، فرس البحر، بلوزة من ماركة رالف لورين، و...

2001

أوقف إليوت سيارته السلحفاة في المرأب ونظر إلى ساعة يده. كان الوقت لا يزال مبكّراً. نظرياً، ما كان عليه أن يبدأ دوامه قبل الساعة الثانية، لكنّه اختار أن يأتي مبكّراً.

كان يعلم أنّ اليوم سيكون نهاراً خاصّاً.

حينما دخل إلى بهو المستشفى، وجد أنّ العشرات من المرضى والأطباء والممرّضات يتحلّقون حول التلفاز. كانت وجوه الجميع شاحبة وفتح البعض هواتفهم النقّالة.

من بين كلّ الجمل التي قالها له شخصه الآخر في مختلف لقاءاتهما في عام 1976، كانت هناك جملة لم ينسَها أبداً:

«حدث أمرٌ ما في الحادي عشر من سبتمبر 2001، في برج التجارة العالمي، في نيويورك».

لزمنٍ طويل، تساءل إليوت عمّا قد يكون هذا الأمر.

اقترب من التلفاز ودفع بعض الأشخاص ليرى طرفاً من الشاشة.

الآن عرف.

2002، 2003، 2004، 2005...

إليوت في سنّ السادسة والخمسين، السابعة والخمسين، الثامنة والخمسين، التاسعة والخمسين...

«ليس الأمر أننا نمتلك القليل من الوقت، بل هو أننا نضيّع الكثير منه».

سينيك

2006

إليوت في سنّ الستين

مانهاتن، الأسبوع الثاني من يناير.

أخذ إليوت إجازة من بضعة أيامٍ لكي يساعد أنجي في الإقامة والاستقرار في نيويورك حيث ستبدأ دراستها للطبّ.

في حين كانت ابنته متحمّسة جداً لحياتها الجديدة، تركها إليوت لبضع ساعات ليقوم بشراء بعض الحاجيات الخاصة به. أقلّته سيارة الأجرة وأنزلته أمام برجٍ من المعدن والزجاج في زاوية تقاطع بارك أفينيو والشارع 52. دلف إلى المبنى وأخذ المصعد حتى الطابق الثالث والثلاثين، وهو مقرّ عيادة طبيّة شهيرة. كان إليوت قد أمضى الليلة السابقة في إجراء الفحوصات وصور الأشعة وينتظر الآن نتائجها. فضّل إليوت أن يجري كلّ هذه الفحوصات في نيويورك وليس سان فرانسيسكو التي يعرفه نصف الكوادر الطبية فيها. بالطبع، من الناحية النظرية، هناك السرّ الطبي، ولكن في هذا الوسط كما في سواه، تنتشر الإشاعات سريعاً كالنار في الهشيم.

قال له جون غولدوين، أحد شركاء العيادة:

- تفضّل بالدخول يا إليوت.

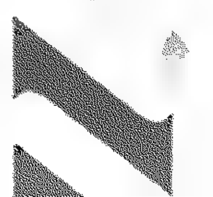
كان الرجلان قد درسا معاً في كاليفورنيا وظلّا على اتصالٍ مستمرّ.

أخذ إليوت مكانه في أريكة في حين فتح غولدوين ملفاً ورقياً ليُخرج منه عدّة صور إشعاعية فَرَدَها على طاولة مكتبه.

قال وهو يناوله إحدى الصور الإشعاعية:

- سوف لن أكذب عليك، يا إليوت...

- لديّ سرطان، أليس كذلك؟



- نعم.

- خطير؟

- أخشى ذلك.

احتاج إلى بضع ثوانٍ ليستوعب المعلومة، ثمّ سأل:

- كم من الوقت؟

- بضعة أشهر...

* * *

بعد مضي ربع ساعة، كان إليوت في الشارع مرّة أخرى، وسط ناطحات السحاب ومنبّهات السيارات وضجيجها. كانت السماء زرقاء صافية، لكنّ البرد كان قطبياً.

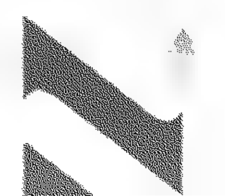
وهو لا يزال تحت تأثير صدمة الإفصاح عن مرضه، تجوّل هائماً على وجهه في الشوارع، تائهاً، محموماً، مرتعشاً.

وهو يسير بمحاذاة معرضٍ تجاري، وقع وجهاً لوجه على صورته المنعكسة على الواجهة الزجاجية للمتجر الفاخر. هنا، أدرك فجأة أنّ له العمر والمظهر نفسهما اللذين كانا لشخصه الآخر حينما ظهر له قبل ثلاثين عاماً خلت.

هذا هو: أخيراً أصبحتُ هو...

أمام صورته في الواجهة الزجاجية، هزّ الصورة الإشعاعية لرئتيه المصابتين بالسرطان. كما لو أنّه لا يزال يستطيع أن يتحدّث مع شخصه الآخر في ما وراء الزمن، قال له بصوتٍ مخنوق:

- هذا ما حرصتَ على ألّا تُخبرني به، أيّها الوغد!



22

وهو يتركني لقدري، رحل ذات صباحٍ مليءٍ بالضياء.

إديت بياف

فبراير 2007
إليوت في سنّ الحادية والستين

قبل الموت بثلاث دقائق...

نظر إليوت، مستلقياً على أريكة الشرفة وملفوفاً بأغطيته، للمرّة الأخيرة إلى الشمس وهي تغيب على سان فرانسيسكو.

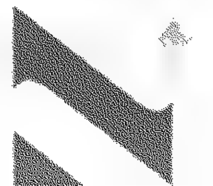
كان يرتعش ورغم وجود جهاز الأكسجين لم يعد قادراً على التنفّس.

أحسّ أنّ كلّ جسمه يذوب.

قبل الموت بدقيقتين...

هذه هي اللحظة التي يُخشى منها كثيراً. لحظة الانطلاق في الرحلة الكبيرة.

غالباً ما يُزعَم أنّ الحياة لا تُقاس بمدّتها وإنّما بالطريقة التي نعيشها.



من السهل قول هذا حينما نكون بوافر صحّتنا!

أمّا هو، فقد حاول أن يقدّم أفضل ما لديه، لكن هل كان رجلاً عصامياً؟

فليحدث ما يحدث.

فليحدث ما يحدث.

الدقيقة الأخيرة...

لا بدّ أنّه أراد أن يموت بصفاء معلّمٍ بوذي.

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة.

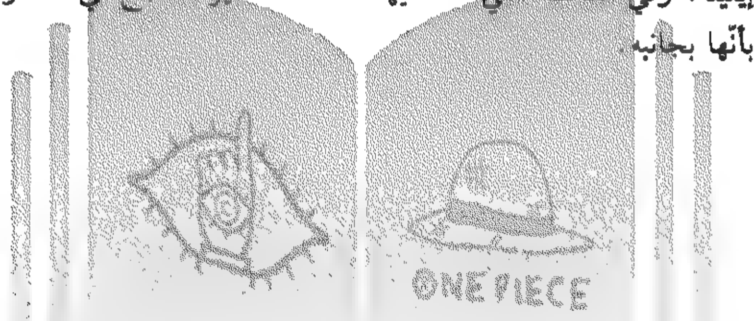
على العكس من ذلك، كان أعزلَ، مثل طفلٍ.

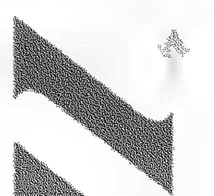
كان خائفاً.

لم يشأ أن يُخبر أنجي.

لم يكن إلى جانبه أحدٌ.

ولذلك، ولكي لا يُغادر هذه الحياة وحيداً، فكّر بشدّة في إيلينا. وفي اللحظة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة، نجح في التصوّر بأنّها بجانبه.





23

مثلما هي من طبيعة البشر أن يمتلكوا سرّاً،
من طبيعتهم أن يفشوه، عاجلاً أم آجلاً.
فيليب روث

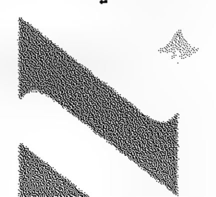
فبراير 2007

بعد مضي ثلاثة أيام

شعّت شمسٌ شتائية جميلة فوق الممرات الخضراء لمقبرة غرينوود التي كانت تعطي للمكان هيئة حديقة.

كانت عملية الدفن قد انتهت لتوّها واصطفّ الذين أرادوا أن يلقوا نظرة الوداع الأخيرة على إليوت في رتلٍ أمام القبر، وهم يرمون على النعش حفنة من التراب أو زهرة.

تقدّمت آنجي أوّلاً، برفقة والدتها التي قَدِمت من ميلانو. تلاها زملاءه وكذلك العديد من المرضى الذين كان قد أجرى لهم عمليات جراحية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة. لو لم يكن إليوت مدفوناً بعُمق ستّة أقدام تحت الأرض، لكان قد فوجئ بهذه الجموع من الناس ودبّ حضورٌ خاصٌّ الدفء في قلبه: حضور المحقّق المتقاعد مالدين الذي، وهو في سنّ التسعين، تقدّم بإقدامٍ نحو القبر، مسنوداً بزميله السابق، النقيب دوغلاس الذي يدير الآن المفوضيّة الرئيسة للشرطة في المدينة.



انتهت مراسم الدفن بعد ذلك بنصف ساعة قبل هبوط الليل تماماً، وتفرّق سريعاً ذلك العالم الصغير ولجأ المشيّعون إلى القُمرات المريحة والآمنة للسيارات المركونة في المرأب.

لمّا عادوا إلى منازلهم، قال كثيرون منهم في أنفسهم: «**أنا أيضاً، سيأتي يومي**»؛ ليردفوا مباشرةً: «**أتمنى أن يتأخّر ذلك إلى أبعد ما يُمكن**».

* * *

أصبحت المقبرة الصغيرة خالية من الناس، تصفعها الرياح.

بعد أن تأكّد بأنّه وحيدٌ في المكان، تجرأ رجلٌ، كان قد وقف بعيداً عن الجموع في أثناء مراسم الدفن، على الاقتراب من القبر.

مات.

كانت زوجته تيفاني قد حاولت ثنيه عن المجيء إذ لم ترَ ضرورة في تكريم ذكرى رجلٍ قاطعه منذ ثلاثين عاماً.

لكن، مع ذلك، جاء مات.

بموت إليوت، اختفى جزءٌ كبير من شبابه وكذلك الأمل في مُصالحة ظلّ على الدوام يتمنّاها في سرّه.

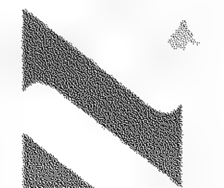
لأنّ مات لم يستطِعْ الامتناع عن التفكير في أنّه كان قد عجز عن معرفة أمرٍ جوهري في قصّة إليوت، قبل ثلاثين عاماً. كيف يمكن تفسير التغيّر المفاجئ في سلوك إليوت اتجاهه؟ كيف يمكن تفسير تركه لإيلينا التي كان يبادلها المودّة؟

الكثير من الأسئلة التي سوف لن يجد لها بعد الآن أجوبة أبداً.

قال بصوتٍ منهك:

- لقد اخترتَ أن تأخذَ سرّك معك، يا صديقي.

بينما كان يقف أمام الشاهدة المنصوبة حديثاً، انهالت عليه



الذكريات. وكان ذلك مؤلماً. كانا مقرّبين جدّاً من بعضهما سابقاً. كانت صداقتهما تعود إلى أربعين عاماً كاملة، ومع ذلك بدت له كما لو أنّها كانت البارحة. جثا أمام شاهدة القبر وظلّ جامداً بلا حراك لوقتٍ طويل، بينما انهمرت دموعٌ صامتة على الأرض. مع امتداد سنوات العمر، كانت دموعه تنهمر غالباً تلقائياً من دون أن يستطيع فعل أيّ شيء لإيقافها.

بينما كان ينهض، قال بمزيجٍ من الفظاظة والسخرية:

– طالما رحلتَ أوّلاً، من الأفضل أن تترك لي هذا المكان السيئ...

كان يهمّ بالابتعاد عن القبر حينما أحسّ بوجودِ شخصٍ يقف خلفه:

– لا بدّ أنّك مات...

التفت إلى الوراء، متفاجئاً بهذا الصوت الذي لم يسمَعه قط من قبل.

كانت امرأة شابّة ملتحفة بمعطفٍ طويلٍ أسود اللون تقف خلفه.

قالت وهي تمدّ إليه يدها:

– أنا آنجي، ابنة إليوت.

قال معرّفاً بنفسه:

– مات ديلوكا.

– أخبرني أبي بأنّه في مراسم دفنه، ستكون الرجل الذي سيبقى لأطول وقتٍ على قبره.

قال مات موضّحاً وهو منزعج بعض الشيء:

– كنّا صديقين مقرّبين جدّاً...

ترك جملته معلّقة لبضع ثوانٍ قبل أن يُضيف موضّحاً:

-. . . لكنّ ذلك كان قبل زمنٍ بعيد وقبل أن تولَدي بكثير.

وهو ينظر إلى الفتاة بتمعّن، لم يستطِع مات أن يردع ارتباكه لشبهها الكبير مع إليوت. كانت أنجي قد ورثت ملامحها المتناسقة من والدها، ولكنّها لم ترث الجانب القلق من شخصيته. كانت فتاة طلقة المُحيا وبدت، رغم حزنها، مرتاحة في قرارة نفسها.

قالت وهي تناوله كيساً من ورق الكرافت:

- ترك أبي هذا لك.

قال باندهاش وهو يتلقّى الطرد:

- ماذا؟

تردّدت أنجي ثمّ أضافت:

- قبل وفاته بعدّة أسابيع، قال لي إن حدثَ لي مكروهٌ ذات يوم. . .

قال وهو يحثّ الفتاة على إكمال جملتها:

- نعم؟

- إذا ما وقعتُ في مشكلة، عليّ ألّا أتردّد في المجيء لمقابلتك.

متأثراً ومرتاحاً لعلامة الثقة هذه، صمت مات لهنيهة قبل أن يؤكّد:

- بالطبع، سوف أساعدكِ بأفضل ما لديّ.

أضافت:

- عمّا قريب، ربّما.

ثمّ ابتعدَت مثل ظلٍّ.

انتظر مات إلى أن اختفت في الأفق لكي يلتفت نحو قبر إليوت.

قال مؤكِّداً:

- يمكنك أن تعتمد عليّ. سوف أهتمّ بها وأرعاها.

ثمّ غادر المقبرة، وقد بات قلبه أخفّ ممّا كان عليه عند مجيئه.

* * *

بعينين مغرورقتين بالدموع، سار إليوت على الطريق السريع 29 باتجاه كاليستوغا، المدينة الصغيرة في نابا فالي التي يقع فيها مشروعه الخاصّ بإنتاج النبيذ. كانت تيفاني في رحلة إلى أوروبا لتسويق نبيذهما ولم يشأ أن يعود وحيداً إلى سان فرانسيسكو وينام في بيتٍ باردٍ وفارغ.

عَبَرَ بسيارته أوكفيل وسانت هيلينا قبل أن يصل إلى مصنعه الذي يتفاخر به. كان مات رجلاً ثريّاً. منذ ثلاثين عاماً، لم يدّخر جهداً في سبيل جعل مصنعه أحد أكبر المصانع في المنطقة.

كبس على زرٍّ في جهاز التحكّم وانفتحت الأبواب الأوتوماتيكية لمعمل النبيذ. عَبَرَ الحدائق المجهّزة بالأحواض والبرك المائية ثمّ أوقف سيارته في نهاية ممرٍّ مفروشٍ بالحصى. كان البيت القديم، الذي هُدِّم منذ زمنٍ طويل، قد ترك مكانه لمنزلٍ جميلٍ كلاسيكيٍّ ومعاصرٍ في آنٍ واحد.

ألقى التحية على الحارس ونزل مباشرةً إلى سرداب التذوّق. كان عبارة عن صالة فسيحة مزيّنة بلوحاتٍ ومنحوتاتٍ لفنانين مشهورين: فرنانْد ليجيه ودوبوفيه وسيزار وكذلك لوحة ثمينة للغاية للفنان باسكيا كان قد أهداها إلى تيفاني بمناسبة عيد ميلادها الأخير.

أضفَت الإنارة الخفيفة على أرضية الصالة لوناً أسمر ذهبيّاً. جلس مات على مقعد من خشب السنديان وفتح بتلهفٍ الطرد الورقي، متلهّفاً لرؤية ما «أوصى به» صديقه. كان الكيس يحتوي

على علبة خشبية لونها فاتح تضم قارورتَي نبيذ قام بفحصهما بحذرٍ وانتباه. شاتو لاتور 1959؛ شاتو موتون روتشيلد 1982. خمور معتّقة فاخرة من إنتاج اثنين من أكبر مصانع النبيذ في منطقة ميدوك الفرنسية: شيءٌ من الكمال في هذا العالم السفلي...

متعلّلاً بهذه اللفتة من إليوت، رفع مات قارورة من علبتها واكتشف بذهولٍ مفكّرة كبيرة مغلّفة بالمخمل وملصقة بقاع العلبة.

في ثانية واحدة، تحوّلت حالته من التعلّل إلى الدهشة ومن ثمّ إلى الإثارة وفَتَح بيدين مرتعشتين الدفتر. كان يضمّ ما يقارب مئة صفحة، خُطّت بخطٍّ مُتقن عرف أنّه خطّ صديقه.

من خلال قراءة الصفحة الأولى، اقشعرّ بَدَن مات.

عزيزي مات،

إذا كنتَ تقرأُ هذه الأسطر، فذلك لأنّ هذا السرطان اللعين قد نال منّي أخيراً وقتلني.

لقد كافحتُ حتى النهاية، لكنّه من الأعداء الذين لا يُمكننا الانتصار عليهم...

في صحيفة الأمس، لا بدّ أنك قرأت خبر وفاتي ولأنك تملكُ قلباً طيّباً، تدبّرت أمرك لكي تهبّ لحضور مراسم دفني. بل إنني أُراهن أنك قد اختبأتَ خلف شجرةٍ بانتظار أن تتمكّن من التحدّث بهدوء مع شاهدة قبري...

أعلم أنّك ما زلت تحقد عليّ. أعلم أنّك لم تفهم قطّ تصرّفي وأنّك تألّمتَ مثلما تألّمتُ.

وددتُ لو أنني أشرحُ لك موقفي قبل الآن، لكن ذلك كان مستحيلاً بالنسبة إليّ.

سوف تُدرك سبب ذلك...

ها هي إذاً المغامرة التي لا تُصدّق والتي أسقطتني وأصابتنا نحن جميعاً:

أنت وإيلينا وأنا.

لقد حاولتُ في كلّ مرّة أن أتّخذ القرارات الصحيحة، ولكن كما سترى، كانت هوامش المناورة لديّ ضيّقة جدّاً.

ما أن تقرأ هذه الصفحات، سوف لن تلوم نفسك على أيّ شيء! لطالما كنتَ حاضراً من أجلي وقد كنتُ محظوظاً جدّاً بأنّه كان لديّ صديقٌ مثلك. لا تحزن. قبل أن تبدأ بالقراءة، افتح واحدة من قارورتَي النبيذ -سوف تُلاحظ بأنني لم أسخَر منك!- قدّم لنفسكَ كأساً منها واشرب نخبي.

بينما أكتبُ هذه الأسطر، أعلم أنني أعيش آخر أيامي. النافذة الزجاجية لغرفتي مفتوحة:

السماء تسطع بلونها الأزرق الداكن هذا الذي لا نجده إلّا في كاليفورنيا، وتجري بعض السُحب البخارية عبر الأفق في حين تحمل الرياح إليّ صخب الأمواج وهيجانها.

كلّ هذه الأشياء الصغيرة التي لم نمنح لأنفسنا الوقت للاستمتاع بها... من الحماقة قول ذلك، لكنّه من المؤلم أن نغادرها.

اعتنِ بنفسك، يا عزيزي مات واستمتع بما تبقّى من الوقت.

ليتك تعلم كم اشتقتُ إليك!

صديقُك في الحياة وفي الموت،

إليوت.

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية فجراً.

أنهى مات، محمرّ العينين، قراءة القصة العجيبة التي كان صديقه قد تركها له. لقاء إليوت مع شخصه الآخر والرحلات عبر الزمن والاتفاقية الغريبة لإنقاذ إيلينا... هذه الحكاية التي لم يشأ أن يصدّقها قبل ثلاثين عاماً خلت تعود إليه اليوم من منظورٍ جديد.

أغلق مات الدفتر ووقف على قدميه بمشقّة. كان رأسه يدور وقد بدأت قارورة النبيذ المعتّق تفعل فعلها، ولكنّها لم تكُن كافية لتخفّف الألم اللامتناهي الناجم عن الندم والحسرة.

ما العمل الآن؟ الإجهاز على ما تبقّى من نبيذٍ في القارورة لإغراق ألمه في الكحول؟ قيّم للحظةٍ هذا الاحتمال، لكنّه أقلع عنه سريعاً جدّاً. مرّ من خلف طاولة التذوّق وغسل وجهه بالماء البارد. ثمّ ارتدى معطفه قبل أن يخرج إلى الليل. جعلته الرياح الباردة يصحو من الثمالة ببضع هبّاتٍ. لقد مات إليوت وليس بوسعه أن يغيّر في ذلك شيئاً. في المقابل، كان لا يزال هناك شيءٌ بوسعه أن يفعله.

لكن هل له الحقّ في ذلك؟

في المرأب، تخلّى عن سيارته من طراز رودستار واستقلّ سيارة رباعية الدفع عائدة لمصنعه. ما أن غادر المكان، شغّل نظام التموضع العالمي GPS وأدخل معطيات عنوانٍ في شمال كاليفورنيا.

ثمّ سلك الطريق باتجاه الجبال.

سار طيلة الليل، متوغّلاً نحو الغرب وسط مناظر الجبال المغطّاة بالثلوج. كان لا يزال الوقت شتاءً والطرق زلقة، يغطّيها ضبابٌ كثيف.

بعد أن تجاوز ويلو كريك بقليل، كاد أن يَنفدَ منه الوقود

وتوقّف به السيارة ولم ينجُ من المأزق إلّا بفضل صاحب متجرٍ وافق على أن يبيعه صفيحة من الوقود لقاء ثمنٍ باهظ. حينما وصل إلى ويفرفيل، كان الضباب قد انجلى أخيراً وبات من الممكن رؤية الشمس المرتفعة خلف القمم المغطّاة بالثلج لسلسلة جبال ترينيتي آلبس.

سلك طريقاً فرعية وسط الغابات ووصل بعد قليلٍ من الوقت إلى أمام البيت الخشبي الصغير الذي سبق له أن زاره مع تيفاني.

على هدير محرّك السيارة رباعية الدفع، كانت إيلينا قد خرجت إلى الشرفة.

صاحت بصوتٍ قلق:

- ماتي!

لوّح لها بيده قبل أن يلتقيها تحت الشرفة ويضمّها بين ذراعيه.

كلّما كان ينظر إليها، كان يشعر بإحساسٍ خاصّ، مزيج من التعاطف والاحترام. كانت إيلينا قد كافحت طيلة حياتها، أوّلاً لكي تتغلّب على عجزها ومن ثمّ لتُدافع عن القضايا الأثيرة لديها.

قال لها:

- تبدين بكامل لياقتك.

- أمّا أنت، على العكس مني، تبدو خائفاً. ما الذي حدث يا مات؟

- سوف أشرح لك، لكن أعدّي لي فنجاناً من القهوة أوّلاً.

لحق بها إلى داخل المنزل. كان البيت الخشبي مزيّناً بذوقٍ رفيع، يمزج بين المشغولات الخشبية التقليدية والتصاميم الحديثة. أبواب ونوافذ زجاجية ومدفأة وأجهزة معلوماتية من أحدث طراز: لم يكن هناك ما ينقُص لجعل المكان مسكناً وثيراً ومريحاً.

سألت إيلينا وهي تشغّل آلة إعداد قهوة إكسبرسو:

- ماذا هناك؟ هل طردَتك زوجتك خارج البيت؟

أجاب مات مبتسماً:

- ليس بعد.

نظر إليها برقّة وحنان. على الرغم من المِحَن التي قاستها، كانت إيلينا لا تزال تشعّ بسحرٍ مذهل. في ستانفورد، حيث واصلت إلقاء بعض المحاضرات، كانت تُعتبر واحدة من «نجوم» الجامعة. في هذه الأرض الخصبة للمثقّفين وحائزي جائزة نوبل، كان هناك العديد من العقول الألمعية التي أُصيبت بخيبة أمل بعد تجريب استراتيجية إغراء معها. كان مات يعلم أنّ إيلينا، منذ حادثتها، قد رفضت إقامة أيّ علاقة غرامية في حياتها.

في المستشفى، كافحت وصارعت لكي تنجو من العمليات الجراحية العديدة التي أُجريت لها. وضمن منظّمة السلام الأخضر، عملت بجدّ ومثابرة ضدّ جماعات الضغط والحكومات، لكنّها لم تعثر أبداً على الحبّ من جديد.

قالت بعد أن وضعت على الطاولة صينية عليها فنجانان من القهوة يتصاعد البخار منهما مع تشكيلة من البسكويت:

- ها هي قهوتك.

دخل قطّ ذو وبرٍ طويل وأملسٍ ناعم إلى الغرفة لكي يُطالب هو الآخر بوجبته الأولى في النهار.

أخذته إيلينا بين ذراعيها وداعبته لبعض الوقت. كانت ستهمّ بالعودة إلى المطبخ حينما اعترف مات فجأةً بغرض زيارته:

- لقد مات إليوت.

ساد صمتٌ عميق في المنزل. تركت إيلينا القطّ الفارسي الذي ابتعد متأوّهاً.

سألت، ملتفتةً إلى مات:

- بسبب التدخين؟

- نعم، سرطانٌ في الرئتين.

هزّت رأسها، مستغرقةً في التفكير. ظلّ وجهها خالياً من التعابير، لكنّ مات لاحظ أنّ عينيها تلتمعان.

ثمّ غادرت الغرفة إلى الصالون والقط يتعقّبها.

لمّا بقي لوحده، تنهّد مات وتاهت نظرته على الأنهار الجليدية المنحدرة من الجبال مثل حممٍ بركانية مبيضّةٍ بالكلور.

فجأةً، هزّ ضجيج مزهرية مهشّمةٍ كلّ البيت. هرع نحو المطبخ ليجد إيلينا، خائرةً في كرسيّ. ممسكةً برأسها بين يديها، أطلقت العنان لحزنها. جثا مات بالقرب من صديقته وضمّها بكلّ ما أوتي من عاطفة.

باحت له وهي تتشبّث بكتفيه:

- أحببته كثيراً.

- أنا أيضاً...

رفعت نحوه عينين مغرورقتين بالدموع:

- رغم كلّ ما فعله بنا، بقيتُ أحبّه

غمغم مات:

- يجب أن تعرفي شيئاً...

نهض واقفاً وأخرج المفكّرة الكبيرة من جيب معطفه.

قال موضّحاً وهو يناولها المفكّرة:

- تركَ إليوت هذا لي قبل أن يموت.

- ما هذا؟

قال ببساطة:

- الحقيقة.

ثمّ غادر البيت وذهب إلى سيارته.

* * *

في حيرةٍ من أمرها، خرجت إيلينا إلى الشرفة في محاولةٍ منها لاستبقائه.

لكنّ مات كان قد غادر.

كان هواء الصباح نشطاً وبارداً على الرغم من الجو الجميل. التقطت إيلينا وشاحاً وغطّت به كتفيها قبل أن تستقرّ في الكرسيّ الهزّاز.

فتحت المفكّرة المغلفة بالمخمل وتعرّفت في الحال على خطّ إليوت وأحسّت أنّ معول ثلجٍ انغرس في قلبها ومزّق روحها.

بعد أن قرأت الأسطر الأولى، أدركت أنّها ستحصل على جواب السؤال الذي ظلّ يعذّبها منذ ثلاثين عاماً.

لماذا تركتني؟

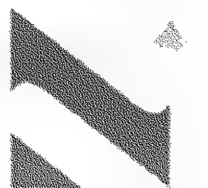
* * *

قاد مات سيارته مثل رجلٍ آلي باتجاه سان فرانسيسكو.

كان حزيناً ومحبَطاً.

منحه اعتراف ما بعد الوفاة الذي أودعه إليوت في البداية نوعاً من الراحة التي لم تتأخّر في ترك مكانها للكآبة ومن ثمّ الإرهاق.

تركت له مصالحة ما بعد الموت هذه في الواقع مذاقاً ناقصاً. كان في شخصية مات جانبٌ أبيقوري. هذا ما آمن به، آمن بالحياة



ولم يهتمّ في حياته بفكرة النهاية الحسنة والرحيل بسلام، والخروج بحصيلة إيجابية لحياته.

ما كان يرغب فيه هو أن يعيش من جديد حياة ماجنة مع إليوت. أن يستقلّا المركب ويبحرا معاً في الخليج ويشربا المشروب الفاتح للشهية في مقاهي الميناء القديم ويتناولا وجبة سمك في مطعم شي فرانسيس، ويذهبا في رحلة في غابات سييرا نيفادا...

أن يعيشا.

لكن ما كان عليه أن يحلم. فقد مات إليوت وربّما هو الآخر سوف لن يتأخّر في اللحاق به.

ولأنّه كان ساذجاً، تصور دائماً أنّ الأمور تعود في النهاية إلى نصابها، ولكن الحياة لم تشأ له ذلك ومرّت السنوات...

أشارت الساعة إلى الثالثة عصراً، وكلّما كان يقترب من المدينة أكثر، كانت حركة السير تزداد ازدحاماً. توقّف في محطّة للخدمة ليتزوّد من جديد بالوقود ويتناول شيئاً.

في المرحاض، صبّ لعدّة مرّات الماء على وجهه كما لو أنّه ينتظر أن تزيل هذه الحركة تعبه وشيخوخته. عكست المرآة صورة مضطربة. كان بطنه يُصدر أصواتاً وكان ذهنه مشوّشاً بسبب التعب والإحباط.

من أين يأتي هذا الإحساس بأنّه لم يفهم الأمر الأساسي في الحكاية؟ منذ الليلة السابقة، شيءٌ ما كان يقضّ مضجعه. بدا له أنّ هناك حلقة مفقودة، لكنّه لم يعرف سبب ذلك.

طلب شطيرة قبل أن يجلس إلى طاولة بالقرب من النافذة التي نظر منها، ساهياً، إلى حركة السيارات على طول الطريق 101.

قضم شطيرة اللحم المقدّد بمتعة مَشوبة بإحساسٍ بالذنب. منذ

أن كشفت تحاليله الطبية الأخيرة عن نسبة مُقلِقة من الكولسترول، منعت عليه زوجته تناول هكذا أطعمة.

لكن تيفاني ليست حاضرة اليوم لكي تعتني به.

بين لقمتين من الشطيرة، تحمّل عناء الإمساك بعلبة الدواء المضاد للكولسترول الذي كان يحتفظ به على الدوام في جيب سترته. كان شريط الدواء شبه فارغ. أخرج آخر قرصٍ من الكبسولة وابتلعه مع رشفةٍ من القهوة.

هذه الحركة الآلية أطلقت في ذهنه شرارةً ونزعت قفلاً عنه.

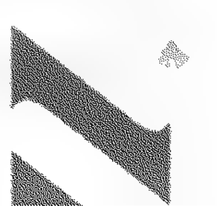
ترك شطيرته وقهوته وأسرع نحو سيارته ذات الدفع الرباعي.

فقد فهم للتوّ ما كان يشغله منذ عدّة ساعات!

أعاد وكرّر قراءة رواية إليوت الذي يشرح بوضوح أنّ العجوز الكمبودي قد أعطاه عشرة أقراص. والحال أنّ إليوت لم يقم سوى بتسع رحلات عبر الزمن!

عشرة أقراصٍ وتسع رحلاتٍ.

أين ذهب إذاً القرص المتبقّي؟



24

القرص الأخير...

عندما تُفتَح أمامكَ طرق كثيرة ولا تعرف أيّ منها تتّخذ، لا تسلكْ أحدها مصادفةً، بل اجلسْ وانتظرْ. انتظرْ طويلاً. لا تتحرّكْ، واصمتْ واستمعْ إلى قلبكَ، ثمّ، حينما يحدّثكَ قلبكَ، انهضْ واذهبْ إلى حيث يقودكَ.

سوزانا تامارو

2007

مات في سنّ الحادية والستين

عاد مات إلى المدينة في أقلّ من نصف ساعة.

شيءٌ ما كان يجول في ذهنه.

فكرةٌ مجنونةٌ إلى حدٍّ ما، لكنّها تضع بلسماً على قلبه.

سار نحو المارينا وأوقف سيارته، كما كان يفعل في الزمن الماضي الجميل، أمام منزل إليوت. كان يأمل أن يجد فيه أنجي، لكن البيت بدا فارغاً. بعد أن رنّ الجرس ودقّ على الباب، دار حول الباب وقفز من فوق السور ليسقط في الحديقة. كان المكان

على حاله تقريباً ولم يحدث أيّ تغيير فيه. كانت شجرة أرز ألاسكا القديمة، الوفية للمكان، تُلقي بظلالها الوارفة التي تغازل الجدار الزجاجي. كان إليوت شبه متأكّدٍ بأنّ هذا المنزل، وبخلاف المنازل المحيطة به، لا يحتوي على جهاز إنذار. خلع معطفه ولفّه على ذراعه وضرب بكلّ ما أوتي من قوّة بمرفقه على الباب الزجاجي للمطبخ. كان الزجاج سميكاً، لكنّ مات كان لا يزال يحتفظ بقوّة جسدية لا بأس بها. حينما استسلم اللوح الزجاجي، مرّر يده الماهرة من بين الزجاج المتكسّر ليفتح الباب من الداخل.

انسلّ إلى البيت وخلال ثلاث ساعات كاملة، جال في الطابقين وقلبهما رأساً على عقب، مفتّشاً على نحوٍ دقيق كلّ غرفة، فاتحاً كلّ الأدراج ومفتّشاً في كلّ خزانة، ورافعاً بعض الألواح غير المثبّتة على الأرضية على أمل أن يضع يده على القرص الأخير.

لكنّه لم يعثُر عليه.

حلّ الليل وكان مات على وشك أن يغادر ويعود إلى بيته حينما وقف أمام إطارٍ يضمّ صورةً لإليوت موضوعة وسط عدّة صورٍ لأنجي.

فأطلق العنان لغضبه وخيبة أمله. صاح وهو يتوجّه إلى صورة إليوت:

- لقد سخرتَ منّا كثيراً، أليس كذلك؟

تشاجر معه كما لو أنّه يقف أمامه:

- كل هذه عبارة عن ترّهات وحماقات، أليس كذلك؟ هراء وأكاذيب اخترعتها لتبرّر سلوكك...

اقترب من الصورة أكثر وحدّق في عيني الطبيب:

- لم يكن هناك عجوزٌ كمبودي أبداً! لم تكن هناك أقراصٌ

أبداً! لم تكن هناك رحلاتٌ عبر الزمن أبداً! كنت تهذي منذ ثلاثين عاماً وظللتَ تهذي حتى وفاتك!

وفي حركة غضبٍ واستياء، أمسك بالإطار وضربه بالجدار.

- وغد!

ثمّ، وبكلّ قواه، ترك نفسه يتهاوى في الأريكة.

احتاج إلى وقتٍ طويل ليستعيد بعض الصفاء.

الآن، كانت الغرفة بأكملها تغرق في ظلامٍ دامس.

نهض مات لكي يضيء المصباح الصغير الموضوع على خزانة صغيرة من الخشب المصبوغ. وسط قطع الزجاج المتكسّر، التقط صورة إليوت ووضعها على أحد رفوف المكتبة.

- لا أحقد عليك.

المكتبة...

تقدّم نحو خزانة المكتبة. تذكّر اليوم الذي جاء فيه إلى هنا لكي يدسّ البرقية بين صفحات أطلسٍ. واقفاً أمام الرفوف، استعرض عناوين الكتب إلى أن وصل إلى العنوان الذي كان يبحث عنه. أمسك بالأطلس القديم، ونفخ على الغلاف لكي يزيل الطبقة الرقيقة من الغبار وهزّ مدوّنة الخرائط واللوحات.

لم يجد شيئاً. ثمّ فجأةً داهمه حدسٌ، حركةٌ أخيرة للتشبّث بحلمه...

أمسكَ بفتّاحة رسائل كانت موضوعة على طاولة المكتب ودسّها في الفُرجة الرفيعة التي تفصل الغلاف عن متن الأطلس. لاقى مقاومة ما إلى أن سقط مكعّبٌ بلاستيكيٌّ صغير على الأرضية.

التقطه مات وقلبه يدقّ بقوّة. كان عبارة عن كيسٍ صغيرٍ مُحكَم الإغلاق لم يتأخّر مات في فتحه لكي يضع محتواه على راحة يده.

يوجد الآن في قاع راحة يده قرصٌ ذهبيّ اللون. . .

حاول أن يكبح جماح حماسه، لكنّ شحنة من الأدرينالين اجتاحته.

قرصٌ أخير.

رحلةٌ أخيرة. . .

* * *

ما العمل الآن؟

ماذا قصد إليوت في احتفاظه بإمكانية أخيرةٍ في العودة إلى الماضي؟ ولماذا اختار أن يُخفي القرص في هذا المكان بالضبط، في هذا المخبأ الذي هو وحده يستطيع أن يعرفه؟

كان مات يجول في صالون الاستقبال وهو يُردّد هذه الأسئلة نفسها حينما رنّ هاتفه.

نظر إلى الشاشة وتعرّف على الرقم الظاهر عليها.

- إيلينا؟

- نعم، هذه أنا، لقد قرأتُ المفكّرة للتوّ. . .

كانت تتحدّث بصوتٍ حزين، وهي تحاول أن تحتوي نوبات الخوف والانفعال.

- هذه حكايةٌ مجنونة، يا ماتي، يجب أن تقول لي المزيد عنها.

لم يعرف مات بماذا يُجيب. أغمضَ عينيه وفركَ أجفانه.

من المؤكّد أنّه كان من الصعب على إيلينا أن تصدّق رواية إليوت! كيف كان بوسعه أن يغيّر الأمر؟ كيف يمكنه أن يطلب منها أن تصدّق هذه القصة العجيبة وهي التي لم تتخيّل يوماً أنّ مأساة فظيعة كهذه هي التي أفسدت حياة الرجل الذي أحبّته.

أجاب مات:

- لا أستطيع أن أشرحِ لكِ أيّ شيء الآن.

استشاطت إيلينا غضباً:

- بل ستشرح لي! جئتَ إلى بيتي لكي تُرغمني على إثارة ذكرياتٍ أمضيتُ ثلاثين عاماً في دفنها وغادرتَ مثل لصٍّ!

- سأعيده إليكِ، يا إيلينا.

- مَنْ؟

- إليوت.

- أنت أيضاً جُننت. لقد مات إليوت، يا مات. لقد مات!

كرّر مات ببساطة:

- سأعيده إليكِ. أعدكِ بذلك.

صرخت إيلينا قبل أن تُغلق السمّاعة:

- كُفَّ عن تعذيبي!

أعاد مات هاتفه إلى جيبه. وقف أمام النافذة الزجاجية التي كان مطرٌ ناعمٌ يهطل عليه بهدوء. كان هادئاً وحازماً. الآن، كان كلّ شيء يبدو واضحاً له.

هذا القرص الأخير، هو مَن سيتناوله.

* * *

وجد قارورة مياه بيرييه المعدنية في الثلاّجة وتجرّع منها جرعة كبيرة من أجل -إذا جاز التعبير- «تمرير القرص».

قُضِيَ الأمر.

فات الأوان على العودة إلى الوراء.

عاد إلى الصالون، وجلس في أريكة ومدّ ساقيه على طاولة المكتب.

الآن، لم يعُد له سوى أن ينتظر.

ولكن ينتظر ماذا؟

عسر هضمٍ؟

تشنّجات في المعدة؟

أم أن يعود هو الآخر ثلاثين عاماً إلى الوراء...؟

انتظر وانتظر طويلاً.

عبثاً.

شعر بالإحباط، فصعد إلى الطابق العلوي وتسلّل إلى المرحاض ووجد علبة لأقراصٍ منوّمة. أخذ قرصين دفعة واحدة ونزل من جديد إلى الصالون وتمدّد على الأريكة.

أغمض عينيه وعدّ الخراف في ذهنه، ثمّ فتح عينيه وغيّر وضعيته وأطفأ الضوء، ومن ثمّ أناره من جديد...

هتف مات وهو ينهض في وثبة واحدة:

- اللعنة!

منعه توتّره الشديد من النوم، فارتدى معطفه وغادر المنزل تحت زخّات المطر. ذهب إلى سيارته جرياً ليحتمي بها من المطر. أقلع مسرعاً وصعد إلى حي فيلمور ليصل إلى شارع لومبارد. كان الفصل شتاءً، وتجاوزت الساعة منتصف الليل والشوارع مقفرة.

وصل إلى القسم الأعلى من حي راشن هيل -في المكان الذي يغوص فيه الشارع نحو نورث بيتش في سلسلة من المنعطفات الحادّة- حينما داهمه النعاس فجأةً. انتشر على نحوٍ مفاجئ ألمٌ في رقبته وتشوّش ذهنه وشعر أنّ الدم ينبض في صدغيه. فقد وعيه وخرّ على المقود حتى من دون أن يحظى بالوقت الكافي لإيقاف السيارة.

اصطدمت السيارة بالرصيف وسحقت مجموعتين من أزهار الأرطنسيا قبل أن تصطدم بحاجزٍ معدني.

* * *

1977

حينما فتح مات عينيه، كان ملقياً على وجهه على الأرض وسط شراك شارع لومبارد. كان ظلام الليل دامساً ومشوّشاً بفعل المطر والضباب.

نهض مات بصعوبة وهو مبلّلٌ تتقطّر المياه منه. كم من الوقت بقي هناك؟ نظر إلى ساعة يده، لكنّها كانت متوقّفة. نظر من حوله بحثاً عن سيارته: كانت السيارة رباعية الدفع قد اختفت.

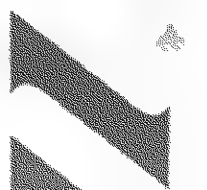
إلى الأعلى قليلاً، في شارع هايد ستريت، كانت اللافتة المُضاءة لمتجر تلتمع في الظلام. كان المكان خالياً، باستثناء موظّفٍ آسيوي الأصل يصفّ علب الصودا على رفٍّ. اقترب مات من المسند الحامل للمجلّات. أمسكَ باضطرابٍ بنسخةٍ من مجلة نيوزويك: على الغلاف، صورة جيمي كارتر بابتسامة عريضة. على حافة المجلّة كان تاريخ النشر يشير: 6 فبراير 1977.

فرّ إلى خارج المتجر.

بدأ القرص أخيراً يعطي مفاعيله!

عاد، بدوره، إلى الماضي، إلى ما قبل ثلاثين عاماً خلت!

لكنّه كان يعلم أنّ مدّة هذه المراسي في الزمن قصيرة. ليس أمامه سوى بضع دقائق لكي يلتقي إليوت. كانت نيّته الأولى هي العودة نحو المارينا، ولكنه، بحسب ما قرأ في المفكّرة، كان يعلم أنّ إليوت يعمل غالباً، في هذه الفترة، في أثناء الليل.



استغرق بضع ثوانٍ لكي يتّخذ قراره.

كان مستشفى لينوكس على بُعد أكثر من كيلومترٍ بقليل. إنّها مسافةٌ قصيرة إن قُطِعَت بالسيارة، لكنّها ليست قريبة سيراً على الأقدام. وقف وسط الشارع لكي يوقف سيارة أجرة، لكنّه لم يجنِ سوى أصوات منبّهات السيارات الغاضبة وبقع المياه والطين التي غطّته من رأسه حتى أخمص قدميه.

فاستجمع شجاعته وانخرط في سيرٍ ليليٍّ لكي يصل إلى المستشفى. صعد ومن ثمّ انحدر في شوارع هذه المدينة ذات الطبوغرافية الخاصّة جدّاً. وصل، لاهثاً ومقطوع الأنفاس، إلى شارع كاليفورنيا. وضع يديه على ركبتيه واستعاد أنفاسه وهو يتحسّر بمرارة على عدم الأخذ بنصائح تيفاني التي تحثّه على ممارسة رياضة المشي يوميّاً لكي يخسر ما يُقارب عشرة كيلوغرامات من وزنه الزائد. لم يعُد معطفه سوى ممسحة عملاقة، فتركه على الرصيف. تخفّف بهذه الطريقة من حمله، فاستأنف جريه تحت وابل المطر. كان سيموت بأزمة قلبية لو أنّه تخلّى عن هدفه الذي بات قريباً جدّاً!

مضى أربعون عاماً وهو ينتظر هذا اليوم. اليوم الذي سيذهب فيه، هو بدوره، لإنقاذ إليوت.

لمح أخيراً الأضواء الوماضة لقسم الطوارئ في المستشفى. جرى في المئة متر الأخيرة بأقصى ما أوتي من سرعة ودفع باب المستشفى كما لو أن حياته متوقّفة على هذا الباب.

قال رشاً:

- أبحث عن الدكتور إليوت كوبر!

سألت موظّفة مكتب الاستقبال بتعجّب:

- عفواً؟

كرّر بكلماتٍ متقطّعة هذه المرّة:

- أبحث عن الدكتور إليوت كوبر.

كانت الموظّفة خدومة -كانت بأخلاق فترة السبعينيات- فأعطته منشفة كي ينشّف جسمه المبلّل، قبل أن تُراجع جدول أسماء الأطباء. كانت على وشك أن تُجيب على طلبه حينما استبقها ممرّض في الردّ، وهو يقضم لوحاً من الشوكولاتة، وقال موضّحاً:

- إليوت في الكافيتريا. لكن هذا المكان...

اندسّ مات في البهو بينما كان الممرّض يُنهي جملته:

- ... مخصّص للموظفين.

* * *

دفع مات مصراعَي باب غرفة الطعام. كان المكان خالياً، غارقاً في الظلام الدامس. على الجدار، كانت الساعة تشير إلى الثانية فجراً، وخلف الطاولة، كان جهاز راديو يبثّ بصوتٍ منخفض حفلة للمغنية نينا سيمون.

تقدّم مات وسط صفوف الطاولات. في عمق الصالة، كان إليوت، مستنداً إلى الجدار وممدّداً ساقيه على المقعد، يدوّن ملاحظات على أضابير طبية وهو يدخّن سيجارة.

- إذاً، يا عزيزي، ما زلت في الدوام؟

فزّ إليوت والتفت نحو الرجل الذي دخل لتوّه. في البداية، لم يعرفه. ثمّ غضّ النظر عن التجاعيد والقوام المتغيّر والشعر الأقلّ كثافة.

قال مات:

- ثلاثون عاماً، هذ يُغيّر الإنسان، أليس كذلك؟



تمتم الطبيب الشابّ وهو ينهض من مكانه بهدوء:

- أهذا... أهذا أنت؟

- بشحمي ولحمي.

بعد تردّدٍ قصير، تعانق الرجلان.

- تبّاً لك، من أين أتيت؟

- من عام 2007 المُبارك.

- كيف استطعت...؟

قال مات موضّحاً:

- كان قد تبقّى قرصٌ واحدٌ.

- إذاً، أنت تعرف كلّ شيء الآن؟

- نعم.

اعتذر إليوت:

- أنا آسف على ما جرى.

- لا تبالي...

وقف الرجلان وجهاً لوجه، وهما متأثرين وخجلين في آنٍ واحد.

سأل إليوت الذي ظلّ متلهفاً لمعرفة المعلومات حول المستقبل:

- وأنت كيف حالك في عام 2007؟

أجاب مات مع ابتسامة خفيفة:

- أصبحتُ عجوزاً، ولكنني بخير.

- هل ما زلنا متخاصمين؟

صمت مات لهنيهةٍ قبل أن يحدّق في عيني صديقه ويعترف:

- أنت، تكون ميّتاً.

ساد الصمت وتضاعفت شدّة العاصفة وتاه صوت نينا سيمون الحلو والمرّ في آنٍ واحد وسط صخب المطر.

عاجزاً عن لفظ أدنى كلمة، رمش بعينيه وهزّ برأسه.

كان مات على وشك أن يضيف شيئاً حينما انبجس خيطٌ من الدم وسال على قميصه في اللحظة نفسها التي هزّت أولى الارتعاشات جسده.

صاحب إليوت:

- سأغادر!

انتابته نوبة تشنّج، فتكوّر مات على نفسه كما لو أنّ جسده تعرّض فجأةً لشحنة كهربائية.

تكلّم بمشقّة:

- جئتُ لكي أنقذك.

كان يرتجف بشدّة بحيث ساعده إليوت على الجلوس على الأرض.

سأل وهو يجثو على ركبتيه بجانبه:

- وكيف ستفعل ذلك؟

قال مات وهو ينزع السيجارة من فمه قبل أن يسحقها على أرضية الكافيتريا:

- هكذا.

نظر إليوت إلى صديقه بقلق. كانت رقبته متصلبة وكلّ أعضاء جسمه تعاني من تقلّصات وتشنّجات فوضوية.

تمتم مات وهو يحاول أن يُفرج عن ابتسامة:

- ليس هناك سواك مَن يستطيع إنقاذ حياة الناس.

اقترح عليه إليوت:

- إذا بقيتُ على قيد الحياة من الآن إلى ذاك التاريخ، سيكون موعدنا في عام 2007.

- من الأفضل أن تكون موجوداً، يا عزيزي.

أبدى إليوت ملاحظةً وهو يمسك بيده:

- ثلاثون عاماً، ستكون هذه مدّة طويلة.

- لا تبالي: سيمرّ هذا سريعاً.

في غضون بضع ثوانٍ، أصبح تنفّس مات أجشّاً وصاخباً وتجمّدت عيناه وتشنّج وجهه. حظي فقط بالوقت الكافي ليضيف:

- الزمن يمضي دائماً بسرعة...

ثمّ اختفى وسط صرخة ألم.

* * *

وقف إليوت على قدميه، يتناهشه القلق. كانت عودة مات من المستقبل أكثر إيلاماً له من شخصه الآخر. هل بلغ مع ذلك غايته؟ وإذا كان الجواب بنعم، ففي أيّ حال؟ وككلّ مرّة يستبد به القلق، مدّ يده إلى علبة سجائره وأشعل واحدة منها بسرعة. على الرغم من المطر الغزير، فتح النافذة ونظر بانبهارٍ إلى خيوط المطر المنهمرة من السماء.

أشعل إليوت هذه السيجارة وهو يأخذ كامل وقته.

كان قد فهم تماماً رسالة مات.

تائه النظر في الظلام، مفتوناً بالستار المتشكّل من المطر، فكّر بالمخاطر التي عرّض صديقه نفسه لها لكي ينقذ حياته.

اعترف بصوتٍ خفيضٍ على أمل أن تحمل قوى الروح رسالته إلى مات:

- في هذا، أدهشتني يا عزيزي!

سحق عقب سيجارته على حرف النافذة وألقى بعلبة سجائره مباشرةً في سلّة القمامة وغادر الكافتيريا.

كانت تلك آخر سيجارة في حياته.

* * *

2007

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية فجراً، لكنّ الأنوار كانت لا تزال مضاءةً في بيت إيلينا الصغير.

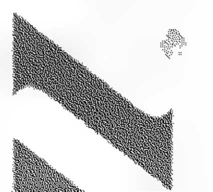
على طاولة المكتب، بين الحاسوب المحمول وكوب الشاي البارد، كان الدفتر المغلّف بالمخمل والذي يضمّ بين دفّتيه رواية إليوت مفتوحاً على صفحته الأخيرة.

جالسة إلى طاولة عملها، وعيناها تؤلمانها لكثرة البكاء، بدأت إيلينا تغفو حينما أوقف القطّ الفارسي النائم على الأريكة فجأةً وبره وأطلق صيحةً غير مألوفة قبل أن يجري ليختبئ تحت الخزانة الصغيرة ذات الأدراج.

في لحظة، اهتزّ البيت، فارتجّت الجدران وانفجر مصباحٌ كهربائي وتحطمت مزهريةٌ على الأرض.

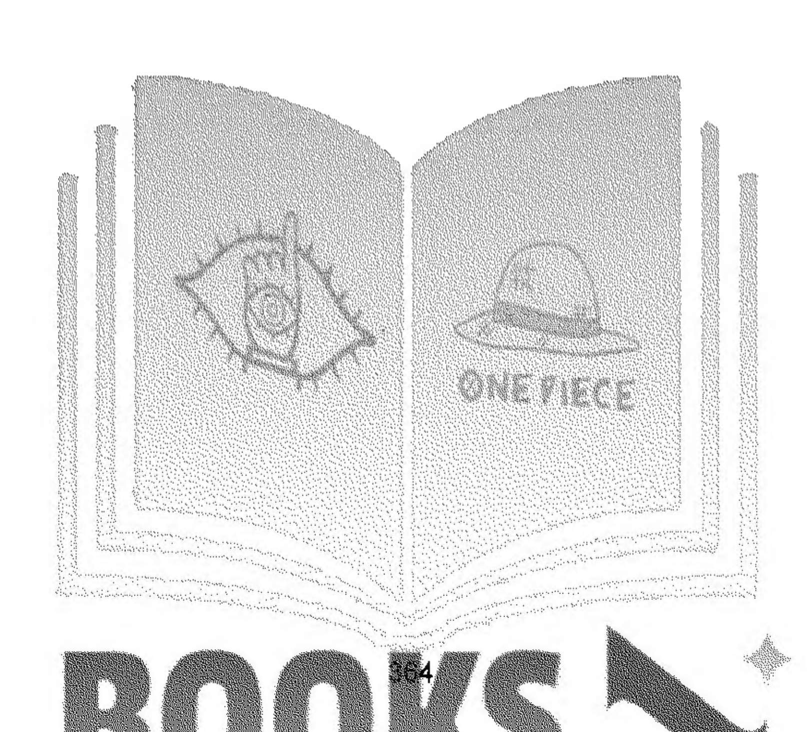
اعتدلت إيلينا في كرسيها، مذعورةً. كان هناك دويّ انفجارٍ شديد تبعه اندفاعٌ قويٌّ للهواء في البيت وتطاير الدفتر المغلّف بالمخمل تحت أنظارها!

توقّفت الاهتزازات تدريجياً وخرج القطّ بهدوء من مخبأه وتأوّه.



أمّا إيلينا، فقد ظلّت مشدوهةً، مشلولة من جراء الانفعال الشديد وفي ذهنها أملٌ مجنون:

إن لم يعُد الدفتر موجوداً، فهذا يعني أنّ إليوت لم يكتبه.
إن لم يكتبه إليوت، فهذا يعني أنّه... على قيد الحياة.



خاتمة

فبراير 2007

- يا سيّد، هل أنت بخير، يا سيّد؟

حينما فتح مات عينيه، كان منهاراً فوق مقود سيارته رباعية الدفع. على كلّ جانبٍ من جوانب السيارة، كان شرطيان ينقران على زجاج السيارة، قلقين على حالته.

اعتدل مات في المقعد بصعوبة وفتح أبواب السيارة.

حينما شاهد أحد رجال الشرطة قميص مات الملطّخ بالدم، صاح:

- سأطلب سيارة إسعاف!

كان مات في حالة يُرثى لها، يستوطن صداعٌ شديد رأسه وانفجرت طبلتا أذنيه. خرج من السيارة وهو يضع إحدى يديه أمام عينيه ليحتمي من النور المبهر. كانت أعضاء جسمه مخدّرة، كما لو أنّه قد نام لبضعة أشهر.

بدأ رجال الشرطة بطرح وابلٍ من الأسئلة عليه.

بعد تحطيم السلّم المعدني، كانت سيارة الدفع الرباعي قد أكملت سيرها فوق درجات السلّم الممتدّ على طول الشارع الأكثر

انحداراً في المدينة. قدّم مات أوراقه الثبوتية وأقرّ بمسؤوليته الكاملة عن الحادث وقبل بإجراء اختبار تعاطي الكحول الذي تبيّن أنّه سلبي.

بعد أن تحرّر من التزاماته أمام السلطة العامّة، غادر شارع لومبارد من دون انتظار وصول سيارة الإسعاف.

كانت عاصفة الليل السابق قد تركت مكانها لصباحٍ جميل، تهبّ الرياح فيه بقوّة، ولكنه مشمس.

عاد مات، ذاهلاً ومترنّحاً، إلى المارينا وهو يجرجر ساقيه. كان كلّ شيء يختلط في ذهنه.

الآن، لم يعُد متأكّداً من أيّ شيء. هل حلم برحلته عبر الزمن؟ هل نجح في إنقاذ إليوت؟

حينما وصل مات إلى المارينا، دقّ مثل مجنونٍ على باب مدخل منزل صديقه.

- افتح يا إليوت! افتحْ هذا الباب اللعين!

لكنّ المنزل كان خالياً.

لو لم يمحِ الزمن صداقتهما، لما استطاعت صداقتهما أيضاً أن تمحي الزمن.

خرّ مات باكياً على حافة الرصيف منهكاً ومدمّراً نفسياً. ظلّ على تلك الحالة مكتئباً إلى أن انعطفت سيارة أجرة عند زاوية فيلمور لكي تتوقّف أمامه.

خرجت إيلينا من السيارة، طافحة بالأمل، لكنّ مات وجّه إليها إشارة سلبية من رأسه للدلالة على أنّه قد أخفق.

لم يفِ بوعده، لم يستطعْ أن يُعيد إليوت.

* * *

عبرت إيلينا الشارع وخطت بضع خطوات باتجاه الشاطئ. كان جسر غولدن غيت قريباً جدّاً، وللمرّة الأولى، امتلكت شجاعة النظر إلى هذا الجسر اللعين الذي كانت قد ألقت بنفسها من فوقه منذ ثلاثين عاماً خلت.

كان لا يزال له ذلك البريق الرائع الذي يجعله ساحراً وجذّاباً جدّاً.

ولأنّها كانت منبهرة بنور الصباح، تقدّمت إيلينا نحو البحر.

على الشاطئ، كان رجلٌ يسير على طول الأمواج.

حينما التفت، استطاعت إيلينا أن ترى وجهه وانقبض قلبها.

كان هنا.

